النثر الأدبي

في المملكة العربية السعودية

تأليف
الدكتور محمد عبد الرحمن الشامخ
الأستاذ في كلية الآداب

الطبعة الثالثة

دار العلوم
للطباعة والنشر
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

النثر الأدبي
في المملكة العربية السعودية

تأليف
الدكتور محمد عبد الرحمن الشامخ
الأستاذ في كلية الآداب

الطبعة الثالثة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار العلوم
للطباعة والنشر
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

لقد شغل الباحثون في الأدب الحديث في هذه البلاد بالشعر عن النثر، ولذلك يجد دارس النثر الأدبي نفسه كما لو كان في ميدان جديد. وإذا كان في هذا ما قد يغريه بالموضوع، فإن فيه ما يزيد من المصاعب التي تعترض سبيله حين يسعى للحصول على المصادر الأدبية التي أنتجت منذ مطلع هذا القرن. وفي الحقيقة إن مهمة البحث في النثر الأدبي الحديث بهذه الديار إنما تتجاوز حدود بحث من الأبحاث، ولهذا حاولتُ أن أقصر الحديث هنا على العقود الخمسة الأولى من نشأة هذا النثر.

وقد ابتدأ هذا البحث بالسنوات الأولى من القرن العشرين حيث ظهرت الصحافة لأول مرة في تاريخ هذه البلاد، فظهر بظهورها نوع جديد من أنواع النثر الأدبي يختلف في شكله ومضمونه عن تلك الأنماط الأدبية التقليدية. واختتم البحث حين انتصف القرن العشرون، ودخل الأدب العربي في مرحلة جديدة من مراحل حياته.

وقُسمت هذه الدراسة بحسب الأدوار التي مر بها التاريخ الحديث لهذه البلاد، ذلك لأن التطور الأدبي قد تأثر تأثراً كبيراً بالأحداث السياسية المعاصرة، ولا سيما أنه كان لكل دور من هذه الأدوار صحفه الخاصة به، هذه الصحف التي كان لها شأن عظيم فيما أصاب الأدب من تغير وتطور.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وبما أنه قصد بهذا البحث أن يبرز أهم خصائص النثر الأدبي الحديث بهذه البلاد، وأن يبين المسيرة التي اجتازها في تطوره، فقد كان الاهتمام بدراسة الكتاب أنفسهم أقل من الاهتمام بالبحث عن مظاهر التطور الأدبي، ولذلك اختير من النصوص الأدبية ما يبين تطور هذا الأدب، ويمثل التكون الفني لشخصيته. فليست هذه الدراسة سجلاً لكل ما أنتج في ميدان النثر الأدبي، ولكنها محاولة لتتبع حركة هذا النثر خلال حقبة معينة من الزمن، كما أنه لم يقصد بهذا البحث أن يكون تقويماً لكل ما نشره الكتاب المحليون المعاصرون الذين كانوا خلال السنوات الأخيرة من هذه الدراسة في بداية نشأتهم الأدبية، ولكنه قد أريد به أن يصور ما حفلت به الحياة الأدبية حينئذ من نشاط في مجال النثر الأدبي.

وإذا كان هذا البحث قد أشاد بما حققه الكتاب المعاصرون لأدبهم من تطور وتجديد، فإن ظروف البيئة قد روعيت في ذلك، وإن هذا التقويم ليعتمد على موازنة آثار الأدب المحلي بعضها ببعض، ولكن القيمة الأدبية لهذه الأعمال النثرية قد تبدو أقل من ذلك بكثير إذا ما قورنت بالانتاج الأدبي الذي ظهر في الفترة نفسها ببعض الأقطار العربية الأخرى كمصر وبلاد الشام.

الرياض في ٢٤/٧/١٤٠٢هـ.
١٧/٥/١٩٨٢م.

محمد عبد الرحمن الشامخ

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

تمهيد

عندما أهل القرن العشرون كانت الأجزاء التي تتكون منها المملكة العربية السعودية مقسمة إلى عدد من الامارات المتفرقة، فكانت نجد في يد الملك عبد العزيز آل سعود، وكانت حائل تابعة لآل الرشيد، أما منطقتا الحجاز والأحساء، فكانتا خاضعتين للدولة العثمانية. وكانت تتنازع عسير وتهامة أيدي العثمانيين والأدارسة. وفي عام ١٣٣٤هـ (١٩١٦م) استخلص الحسين بن علي ولاية الحجاز لنفسه، وانتزعها من أيدي العثمانيين.

ولكن هذه الأجزاء من جزيرة العرب ما لبثت أن اتحدت خلال العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين. فقد انضمت الأحساء إلى نجد سنة ١٣٣١هـ (١٩١٣م). وفي عام ١٣٤٠هـ (١٩٢١م) انضمت حائل وعسير إلى هاتين المنطقتين. ولم يأت عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) إلا وقد أصبح الحجاز جزءاً من هذا الكيان الموحد. وفي سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) رأى أهل هذه البلاد أن يطلقوا على وطنهم اسم المملكة العربية السعودية ليكون هذا الاسم رمزاً لوحدتهم، وإيذاناً بانقضاء عهد الفرقة الذي كان قد حل بهم.

والحقيقة أن ما أصيبت به هذه الأجزاء من جزيرة العرب في القرن

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من فرقة وعدم استقرار قد جعل حياتها العلمية ضعيفة في الانتشار، مقصورة على عدد من الأفراد. ولو لم يكن لدى بعض الناس حينئذ شعور بواجبهم نحو دراسة دينهم ولغتهم لسادت الأمية، وعادت البلاد إلى عصور الجهالة. ولكن أمانة العلم التي حملها نفر من العلماء المخلصين في أرجاء البلاد قد أبقت على وميض من نور العلم، وأضاءت المشاعل التي اهتدى بها السراة في بعض جنبات الصحراء. ولذلك وجدت في الحرمين الشريفين وفي مساجد نجد والأحساء وعسير وتهامة بيئات علمية وحلقات دراسية لم تكن كثيرة العدد، ولكنها كانت مباركة النتاج. وكان من الطبيعي في ظل هذه الحياة العلمية المحدودة أن ينتمي معظم من يشتغلون بالكتابة، أو يهتمون بالنثر الأدبي إلى هذه المراكز العلمية.

وما دام الحفاظ على الدين واللغة العربية هو الهدف الذي أبقى على العلم في هذه الأجزاء من جزيرة العرب، فلا بدع إن كانت الأماكن المقدسة ــ بفضل حرميها الشريفين ــ أكثر هذه الأجزاء صلة بالعلم، وأقلها حرماناً من وسائل الثقافة. فقد كان الحرمان الشريفان يحفلان في هذه الفترة بالعلماء والمتعلمين، كما أن مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة قد حظيت عند مطلع القرن العشرين بإنشاء عدد من المدارس الأهلية مثل المدرستين الصولتية والخيرية بمكة ومدرستي الفلاح بمكة وجدة وبعض المدارس الرشدية التي افتتحتها الحكومة العثمانية في كل من مكة والمدينة وجدة والطائف[1]. وإذا كانت هذه المدارس لم تؤت ثمارها خلال السنوات الأولى من إنشائها، فإنها قد أسهمت في تخريج نفر من العلماء

---

(١) للاطلاع على مزيد من التفصيل حول هذا الموضوع انظر ما ذكره المؤلف في كتابه «التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني».

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

والأدباء الذين شاركوا في الحياة العلمية والأدبية التي شهدتها البلاد بعد توحدها في العقد الثالث من هذا القرن.

ولم تعرف هذه البلاد فن الطباعة إلا في عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) وذلك عندما أنشأت الحكومة العثمانية مطبعة الولاية في مكة المكرمة. وقد تأخر ظهور الصحافة عن ذلك حوالي ربع قرن، إذ صدرت جريدة «حجاز» الجريدة الرسمية لولاية الحجاز وأولى الصحف في هذه البلاد بمكة المكرمة عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م). وقد تتالى بعد ذلك ظهور الصحف، فصدرت في سنة ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) ست صحف أخرى بمكة والمدينة وجدة هي: شمس الحقيقة، وشمس حقيقت، والإصلاح الحجازي، وصفا الحجاز، والرقيب، والمدينة المنورة.

وحين انقضى الحكم التركي بمكة المكرمة وجدة في عام ١٣٣٤هـ (١٩١٦م) اختفى ما كان قد بقي من صحف العثمانيين، وحلت مكانها في هاتين المدينتين ثلاث جرائد هاشمية هي: القبلة والفلاح وبريد الحجاز، كما صدرت إلى جانب ذلك جريدة عثمانية بالمدينة المنورة هي جريدة «الحجاز». وكانت هذه الصحف صحفاً محلية لا تمثل من شبه الجزيرة العربية سوى بلدان الحجاز، ولكن عندما أصبح الحجاز جزءاً من المملكة العربية السعودية في عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) ظهرت بمكة والمدينة صحف ومجلات أخرى كانت أرحب مجالاً، وأكثر شمولاً من سابقتها، إذ كانت هذه الصحف والمجلات تمثل البلاد كلها، وإذ أصبح يشارك في الكتابة فيها كتاب وأدباء من أرجاء الوطن ومناطقه.

وقد صدرت حينئذ ثلاث جرائد هي: أم القرى وصوت الحجاز والمدينة المنورة، وثلاث مجلات هي: الإصلاح والمنهل والنداء الإسلامي. ولأن هذه الجرائد والمجلات قد رعت الأدب وخصته بعنايتها، فقد أقبل الكتاب على النشر، وانصرف النشء المثقف إلى الأدب وتعلقوا به.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وإلى جانب هذا النشاط الصحفي كان الأدباء والقراء في البلاد يطالعون الصحف والمجلات التي كانت ترد إليهم من مصر والشام وتركيا منذ بداية القرن، كما أنهم كانوا يقرأون بشوق وشغف ما كانت تصدره المطابع في هذه البلدان من كتب أدبية وثقافية.

وقد قامت المطابع الأهلية والحكومية التي تتابع إنشاؤها في هذه البلاد منذ مطلع القرن بدور مهم في إنعاش الحياة الثقافية، إذ مكنت من طبع العديد من المؤلفات، وأصبحت الدعامة التي اعتمدت عليها الحركة الصحفية. كما أن المكتبات الخاصة والعامة التي كانت مظهراً أساسياً من مظاهر الحياة العلمية والروحية في هذه البلاد قد أسهمت بنصيب وافر في سبيل التثقيف والحفاظ على التراث الفكري.

وشهدت البلاد في العقد الثالث من هذا القرن نهضة علمية شاملة، فقد نمت المراكز العلمية والمدارس القليلة التي كانت موجودة من قبل، وأسس في أنحاء البلاد عدد كبير من المدارس الحديثة التي جمعت بين موروث العلم وجديده. كما أرسلت البعوث العلمية إلى مصر وغيرها من البلاد العربية. ولم يأت العقد الرابع من هذا القرن إلا وقد بدأت هذه النهضة العلمية تؤتي ثمارها، فكثر المتعلمون، وأخذوا في تحبير المقالات الأدبية والاجتماعية. وإذا كانت الصحف في العهدين العثماني والهاشمي قد شكت من ندرة الأقلام المحلية، فإن الصحافة التي خلفتها قد حظيت بإسهام عدد كبير من الكتاب والأدباء. وكان من نتائج ذلك أن اصطبغت هذه الصحافة بالصبغة الأدبية، واتسم الإنتاج الأدبي الذي كان قليلاً عند مطلع القرن بالخصب والغزارة في هذه الحقبة.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الباب الأوّل

النثر الأدبي
في الربع الأول من القرن العشرين

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الفصل الأوّل
النثر التقليدي

كان معظم المشتغلين بالأدب في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ممن ينتمون إلى المراكز العلمية الدينية التي وجدت حينئذ في بعض أنحاء الجزيرة العربية. وبما أن اهتمام هؤلاء العلماء كان متجهاً إلى علوم الدين واللغة والتاريخ، فإنهم لم يولوا الأدب كثيراً من عنايتهم. وإذ كانوا مع هذا يؤثرون نظم الشعر على كتابة النثر فقد أصبَح ما أنتجوه من نثر أدبي شيئاً قليلاً.

وإن من الممكن أن يقسم النثر الأدبي الذي أنتج في البلاد خلال هذه الفترة إلى قسمين: قسم تقليدي أنشىء في نطاق الأنواع الأدبية المتوارثة، وقسم آخر نشر في الصحف على هيئة مقالات. أما النوع الأول فهو أقل من الثاني من حيث الكم، إذ يتألف من نصوص أدبية كانت تظهر بين حين وآخر. وأما النوع الثاني الذي لم يظهر إلا في عام ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) فيتسم بشيء من الجدة والحيوية، ويعالج مواضيع أوسع نطاقاً من تلك التي تناولها النثر التقليدي.

ولعل من المفيد في دراسة النثر التقليدي أن يرجع الباحث إلى مؤلفات العلماء وشروحهم، وذلك لما يوجد فيها أحياناً من نصوص تلقي الضوء على مفاهيم الأدب ومستوى الكتابة في ذلك الوقت. وقد كان

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ما أنتج حينئذ من نثر تقليدي عبارة عن نصوص قليلة كانت تؤلف بين وقت وآخر، ولذلك فإني لن أقتصر على النماذج التي أنشئت أول هذا القرن، بل سأتناول كذلك نماذج نثرية مختارة مما ظهر قبيل مطلع القرن، لكي تكون الصورة التاريخية أكثر شمولاً ووضوحاً.

□ الرسائل:

كان الكتّاب في هذه الحقبة كثيراً ما يلجأون إلى الرسائل الأدبية والإخوانية للتعبير عن مشاعرهم الذاتية وإظهار براعتهم الفنية، ولكن هذه الرسائل لم تكن تخرج من حيث الشكل عما استقر عليه فن الرسائل آنذاك من تقاليد أدبية معروفة.

ومن هذه الرسائل رسالة كتبها الشاعر المدني جعفر البيتي (١١١٠ ــ ١١٨٢ هـ) إلى الخطيب محمد أبي الخير المدني سنة ١١٤٠ هـ يصف له سوء مقامه في إحدى القرى الساحلية ويندب حظه حين أتعسته حرفة الأدب. ومما قاله في هذه الرسالة:

«. . . والخطيب الرئيس يعلم ما ثمَّ من تراكم الأشغال، وتشويش خاطر البال، ومع ذلك من وحشة الاغتراب وفقدان الأصحاب، ما يفت في عضد الاصطبار، ويقلب جنب القرار، على النار، في دار البوار. . . القرية الوخيم ماؤها، الوبيء هواؤها. . . أقذر من بيت الدجاج، وأهون من تبالة على الحجاج، قد وقع بها الرجز والعذاب، وتوطنها البرغوث والذباب، وأنواع من الحشرات، مجهولة الأسماء والصفات، فتلك خزانة العذاب الأليم، وسوق آفات الجحيم، قد جعلت في ذلك المكان، تتفرس في تمزيق الأبدان، فكم لها من تنبيت غريب، وكف وتضريب، ليس منه خلاص، ولا للجروح قصاص، فهي واحدة الأفراد، لتجمع الأضداد، قد خلا منها الجناب، وهاجر عنها العصفور والكلاب، لم نبرح بها في

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

حصار، مع كل طامر وطيار، في آناء الليل والنهار، ونحن مع ذلك الجهاد، ما زايلنا حانوت الفصاد، وعلى ذلك المقام، لم نخرج من بيت الحجام، ولم نأمن هجوم الغارات، من الست الجهات، في جميع الأوقات، نكاد في حال القيظ، نكسر أرعاظ النبل من الغيظ، ونستغيث بالسعير، في أوقات الزمهرير، وهلم من العذاب الأليم، ولا تسل عن أصحاب الجحيم، بين ريح متخالفة، وأنداء كالديم واكفة، وظلل من الضباب، كأنه أول يوم الحساب، في أيام أشأم من البسوس، وليال كطنب الخرقاء في البوس، كلما اتخذنا من الصبر ذريعة، أصبحت ولاكترس ابن أبي ربيعة، فويله من مكان وزمان، كأنه يوم بؤس النعمان.

منزلة ما خلتها يرضى بها لنفسه ذو أدب ولا حجا

فلو مكثت غير بعيد، وأجلبت بخيل المعتصم والوليد، واستعديت بذي القرنين، واستنفرت من وراء الصدفين، وأوجفت بجنود سليمان، وكبرت لثارات عثمان، ونشرت أبا مسلم الخراساني، وخرجت في رايات السفياني، وعمرت جميع الأقطار، من مكايد عمرو والمختار، وبعثت بالرياح العوافي، ورميت بثالثة الأثافي، وفتكت بيد البراض، وحملت كالإبل على الحياض... ثم رصدت عمل الكواكب، وميزت بين المغلوب والغالب. وزحفت في جنود صفين، وقاتلت إلى يوم الدين، لما ظفرت على حشراتها بالفتوح، ولو عمرت كعمر نوح...

وأخوك قد أساء الزمن إليه، وعرض خصلتي الضبع عليه، أتراني أعاف الإكرام لو وجدت الكرام، وأمل المقام، ولكن لو ترك القطا لنام.

لم الليالي التي أخنت على جدتي برقة الحال واعذرني ولا تلم

ثم أعود فأقول: ما أكسد الأدب الذي ذكرت، وأطنبت فيه بما قدرت، وليست سلسلة النسب، من حبائل النشب، ولا نسخ الأدب، من

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

فخوخ الذهب. وماذا حصل للخليل، بالبسيط والطويل. وهل أفطر على القصيد، من بحر المديد، وأشرف على المطالب، من فعول المتقارب، فليس من المفروض، علم العروض، ولا من المسنون، الاشتغال بهذه الفنون.

لا تطلبن بآلة لك رفعة قلم البليغ بغير حظ مغزل

فما أضعف قواعد الإعراب، عن ملي الجراب، وأضيع دلائل الاعجاز، في حانوت البزاز، وأقذر زهر الآداب، وآداب الكتاب، إذا ما عرضا على القصاب. ولم أسمع بأنساب قريش، أنه تلي في ترميق العيش، ولا أن كتاب الكامل، عمل في تحريك العوامل. وإذا طلبت البرهان، وشئت أن ترى العيان، فخذ أخبار الزمان، وقلائد العقيان، والسير والغزوات، وجميع كتب الطبقات، وشروح المعلقات، وهلم بالفلك المشحون، في القبايل والبطون، ومعها أجزاء الأغاني، وديوان ابن هاني، وما انتظم من هذه المعاني، ثم تفسح في المجالس، واجل من تلك العرايس، وأنت كسحبان وائل، وبيان عمرو وواصل، فإن توصلت إلى طفيف، من ثوب أو رغيف، فاصنع ما شئت، واهجرني ما حييت، فلست بالمميز، على عبد الله بن المعتز، حين أدركته حرفة الأدب، فوقع في العطب، ولا كشيخ ربيعة الفرس، وقد رمي بالهوس، فأهون في الزمان، بعلامة همدان، ومثله من الأعيان. وأي فضل في شعر، لا يوقد تحت القدر، ولا يقاوم ثمن الحبر، ولو كان من الحكمة والسحر.

لا خير في أدب فرداً بلا ذهب فليس ينفق في شيء من الزيت
فقل عن الكيس لا الأكياس كيف تشا واسأل عن الحظ لا تسأل عن البيتي

وطالما قمت في الأسحار، وصدرت الدعاء بالاستغفار، وأنا أسأل الكفاف، لأحوز العفاف، فلا أعرض حر الأديم، إلى لئيم، ولا أعمل

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

حيل الالتماس، لما في أيدي الناس، وإلى الآن ما أنجح الرجاء، ولا استجيب الدعاء، حتى كأنه دعاء أبي جعفر، حين سئم من أزهر، وقد سلمت القياد للأمر، وانتظرت الفرج بالصبر.

علماً بأن اصطباري معقب فرجا وأضيق الأمر إن فكرت أوسعه [1]

انتهى.

لقد التزم جعفر البيتي السجع في هذه الرسالة، ولكن عمق إحساسه بالتجربة الأليمة التي مر بها قد جعل هذا العنصر الموسيقي عاملاً من العوامل التي ساعدت في تصوير الألم الذي أمضه، والحزن الذي شعر به. كما أن الإشارات التاريخية التي حفلت بها الرسالة لم تكن مجرد تكديس للأحداث والأسماء التاريخية، بل إنها قد أسهمت في تصوير مأساته، ووصف خيبة أمله. وإذا كانت هذه الرسالة قد اتخذت أسلوب الرسائل الإخوانية وشكلها التقليدي، فإن هذا الشكل قد أصبح أمراً ثانوياً بالنسبة لما في الرسالة من مضمون جاد، وذاتية مبدعة.

وقد أضفت هذه الروح الحزينة الشاكية على رسائل البيتي شيئاً من الجمال الفني، وجعلتها تفيض بالعاطفة والانفعال. وتتضح هذه الحقيقة كذلك من رسالة أخرى بعث بها البيتي إلى صديقه أحمد بقاعي في عام ١١٧٠ هـ يشكو فيها الزمن وأحواله، ومما قاله فيها:

«... فمسألة السؤال عنكم دورية، وقضية الشوق إليكم تسلسلية، نسأل عن نحوكم كل عامل، بما فعل يفعل وهو فاعل، من محب مبني على الإخاء، منضم معكم على الوفاء، معرب بعدكم للأسقام، متحرك عن الملأ والملام، مضاف إليك بالتعلق، مجرور إليك بالتشوق،

---

(١) ديوان جعفر البيتي، مخطوط، ورقة ١١ ــ ١٥.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

يعرف من البديع، تفريع المدح والتوشيع، ويقرأ ضروب الالتفات، إلى تلك الجهات، وموجب هذا بعد أن شاب قذال التعـرف، وشحب جسم التألف، وكبرت سن الانفصال، وأكل الدهر عليـه وشربت الليـال، وتقوست صعدة الشباب، واستعار من البازي حلته الغراب، فما هو إلا أنه مات سداداً من عوز، وانكشف كسر المستمتع على العوج فغمز، وهبت نكباء الزمان، فصوحت بمروج الإخوان، وأجدب مربع الأحباب، ونضب معين الأتراب، فرجعنا نقلب الدفاتر، ونتصفح المآثر، إلى أن تحولت قبلة الحب شاماً، ومثلتم ثمة أماماً وإماماً، وأصبحت الروم، غاية كل مروم، فصرفنا عنان السرى، وآثرنا جاثم الكرى. . . وليس ذلك إلا الميل عن السوى، إلى جنابك الأعلى، ومقامك الأغلى.

فإن حصل التقبل، لهذا الاعتذار والتنصل، فتلك نعمة تمنها علي، ويد بيضاء تبعث ثمنها إليّ، وإلا فالجرم يقتضي العتاب، وعدم الإعتاب، وسد باب المتاب. ولولا العمل بالأقوى، وهو التوبة، عن تلك الكبيرة، والأخذ بالأحرى، وهو الإسراء إلى حسن السيرة، لشرحت مجمل الزمان، بتصريف الحدثان، وإشغال البصر عن لمحه، والدمع عن سفحه، والقذا عن نفيه، واللحظ عن مرماه ورميه، والعين عن البكا، والحلق عن الشجا، والنفس عن البث، والصدر عن النفث، وتضييق المكروب عن الملتجا، وجفاف اللسان عن العجة بالدعاء.

نعم كنا في نيابة لهو لكنها مع النوب، وولاية زهو غير أنها مع الكرب، ومنصب اشتغال لكنه في اختلال الحـال، سلطان لكنني مع السلط، وملك عال لكنه إلى الحطط. أمير وأي أمير لا أهب ولا أمير وما أراني أستكثر هذا القدر، من عمل هذا الدهر، فقد جئت من جهة شقه المفلوج، وطبعه المثلوج، ومن قبل ناظره الأعمى، وأذنه الصماء، وفي حيث ذهنه المختلط، ولسانه المرتبط، وسقطت على رجله الحنفاء، ويده

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الشلاء، وتظللت بجناحه المهيض، وتعدلت بمزاجه المريض، وإلا فلم نباني على الكسر، ولم يدخل جذري في الجبر، ويخرج مدي من الجزر. فأكون من نيله في نيل، ومن بحره في بسيط طويل، لكنه هذا عذره الواضح، لغدره الفاضح وإلا فهو عقرب الأحرار، أفعى الأخيار، تنين الأبرار، وعليهم البسوس والفجار، قد طبع فيهم على العداوة، وجبل لهم على القساوة. فإذن نسبة التقصير إليه، وعمدة القصور عليه، حيث أنا لا نضيق من همه، إلا إلى ذمه، ولا نخلص من نكايته إلا إلى شكايته. ولا نفلت من الافتراس، إلا إلى الحذر والاحتراس. فمتى تفرغ يد المناضلة إلى المكاتبة والمراسلة، وينشط من الكلال نضو الخبب والإرقال.

ومن العجب البكاء على ماضيه، وحسن الظن بمستقبله وآتيه. وهبني فرغت من هذه الآفات، وتفرغت في بعض الأوقات، فما أرفع إلى عدالتك إلا ذكر الماجريات، وكتاب الخصومة والمحاكمات، وأمد إليك نبضي، وأنا بأرضي، فتنظر في الشاهق والمنخفض، والمنبسط والمنقبض، ثم أسألك جذب السلاح، من عيون الجراح، وأستهديك المراهم، وأستوهبك الرقى والتمائم، وأستوصفك الترياق، وأستنجدك لضيق الخناق، فأشغلك هناك عن الملتحد، ووالد وما ولد، والنفاثات في العقد، فلا تجد عندك من الدواء إلا رواتب الدعاء، لحصول الشفاء، ويقع لك المقعد المقيم، لذلك الخطب الجسيم، بوليك الحميم، وأخي ودك القديم. لا والله لا أوثر توجعك، ولا أختار تفجعك، بل أشكر لك الزمان، وأمدح عندك الإخوان، فأقول هذا الورم شحم، وهذه الغدة لحم، وهذا القزل اختيال، وتلك الربضة احتيال، وهذه الزمانة إحمام، وعدم الحركة قلة اهتمام، بالشرب والطعام، فأتجلى وأتجلد، وأتحمى وأتحمد، وأنكر الجور وأجحد، وأقر بعدل الزمان وأشهد، فأقول إنه رشيد التصرف، مأمون التعسف، مؤتمن الكرام، أمين الأيتام، أتحمض معه وأتبغدد، وأتتبع عليه وأتجحد. وهو معي رضي الأفعال، مهذب الخصال، صاف كالزلال، صفي في كل

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الأحوال. . . فهذه هي منقبة المتحمل، وخلعة المتجمل، ومعراج الكمال والتمام، وبرزخ ما بين الخاص والعام، أعذار أصوغها، لغصص أسوغها. . .»[1]. انتهى.

لقد تميز أسلوب البيتي بجزالة التعبير، وسلامة التركيب، كما اتسم بالثراء اللغوي والقدرة على استنباط المعاني والصور. وكان من الممكن أن تكون الإشارات النحوية والعلمية الأخرى عاملاً من العوامل التي تحيل الرسالة إلى نوع من اللعب الكتابي، ولكن ما لدى الكاتب من نفس شجية، وروح باكية ساخرة قد غلب على الرسالة، وجعلها أثراً فنياً يفيض بالأحاسيس والانفعالات. ولا شك في أن الموهبة الشعرية قد هدت الكاتب إلى ألا يجعل رسالته مجرد قوالب تعبيرية تقليدية، بل أن يضفي عليها من ذاته ما يجعلها تنبض بالحياة وتحفل بالمتعة الفنية.

ولأنه لم يكن لدى الشيخ جعفر البرزنجي (ت ١١٧٧ هـ) أحد علماء المدينة المنورة ما كان لدى البيتي من شكاة أو مضمون جاد، فقد جاءت رسالته الإخوانية التي بعثها إلى السيد أحمد بن عمار مفتقرة إلى المتعة الفنية، خالية من التأثير النفسي. فقد أرسل إلى ابن عمار قصيدة نظمها أخوه علي البرزنجي على لسانه، ثم ذيلها الشيخ جعفر بالأسطر التالية:

«فدونكها سيدي هيفاء خرعوب، طفلة لعوب، وردية الخدود، مرنحة الأملود، مكحولة الأجفان بالسحر، تعبث بعيون المها بين الرصافة والجسر، زان شفاهها اللعس، وطاب وإن طال منها النفس. نشأت بين الخورنق والسدير، وجليت بين المنبر والقبر المنير، قد حلي منها المفرق والجيد، بوسائط من عقد مجدك النضيد، زارتك متلفعة في مروط الخجل، متعثرة في أذيال الوجل، مشفقة من البوار، معلنة بواضح

---

(١) المصدر نفسه، ورقة ٦٤ــ٦٦.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الاعتذار، عن تأخر زفافها إليك، وتعوق مثولها بين يديك، مستجيرة من الصد، مستعيذة من الإغضاء والرد، فبمن أنبع قريحتك باللؤلؤ المكنون حيث الأفكار ناضبة، وأنار فطنتك بلوامع البيان حيث البوارق خالبة، إلا ما أعرتها طرفاً، وأجريت لها طرفاً، وأعجمت لمهملها بنقط الغض حرفاً، وحاشيتها إعلالاً وإبدالاً وحذفاً، ومنحتها قبولاً يطوقها مناً، حيث يقال تقبلها قبولاً حسناً. . . إني ما أراني فيما توخيته إلا كمن يهدي الوردة إلى الروض المعطار، ويحمل القطرة إلى البحر الزخار. وأما خريدتك فوافتني موافاة الهاطل للروض الجديب، وواصلتني مواصلة الحبيب لمتيمه الكئيب، فأخذني عند ورودها ما يأخذ عذبات البان عند خوافق النسيم، وقلت سبحان من قدر المراتب لأهلها ذلك تقدير العزيز العليم»[1] انتهى.

ويشبه ما كتبه الشيخ عبد الله بن محمد الكردي (١١٣٠ ــ ١٢١١ هـ) أحد علماء الأحساء إلى شيخه عبيد الله بن صبغة بالعراق رسائل الشاعر جعفر البيتي من حيث اتخاذ فن الرسائل وسيلة لبث الشكوى والتعبير عن خلجات النفس. فقد أرسل الكردي إلى شيخه رسالة استهلها بديباجة شعرية نثرية، ثم أخذ يصور أحواله فقال:

«وبعد، فإني منذ طوحت بي طوائح الاغتراب، وأنأتني عن شرف تلك الأعتاب، لم يزل الدهر يرمقني شزراً، ويلحظني خزراً ويوسعني هجراً وهجراً، ويمطيني غارب كل هجين، وينيخ بي على كل وجين، لا أسري منه إلا في داج داجن، ولا أرد منه إلا على ماء آجن، يسومني خطة الأذى، ويقلاني قلى المقلة للقذى، لكنه يزاول مني فتى شديد الشكيمة أبيا، ويستمرىء مني دمعاً عصيا، لا يتعثر مني إلا بحد صارم قضيب، ولا يعجم

(١) «تحفة الدهر ونفحة الزهر في أعيان المدينة من أهل العصر»، تأليف عمر بن عبد السلام الداغستاني، مخطوط، ورقة ٧.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مني غير عود على ناب الزمان صليب، لم يحكمني ولله الحمد تصريفه لأحوالي، وإعلاله لآمالي، على ابتذالي بالتملق إلى والي، حياء من قولي الذي شرق به الركبان وغربوا، وأطرب أولي الألباب لما صعدوا النظر فيه وصوبوا.

لا تمـددن يداً يـوماً لأخـذ يد ولو أضرت بك اللأواء والنوب
فالصبر مر على مَنِّ الرجال وإن أربى على المن والسلوى الذي وهبوا

على أن التعفف كان دأبي، وأجمل ثيابي، قبل أن أطوي برد شبابي، فكيف وليل الشباب قد انقضى، وصبح المشيب أضا.

إذا الفتى ذم عيشـاً في شبيبته فما يقول إذا صبح المشيب أضا؟!

بل كنت مما شاهدت من تقلب الزمان بين قالبي البرد والحر وتبدله من الشر إلى الخير، ومن الخير إلى الشر، مغتبطاً بالعنا، اغتباط المثري بالغنى، وأجتني من غصون المنايا ثمار المنى، اقتفاء لأسلاف كان ذلك سيماهم وقليل ما هم، وإني في أثناء ذلك، جنب الله سيدي المهالك، وسلك به إلى رضوانه أحسن المسالك، لم آل في اقتناء علم الأدب، وتتبع خفايا كلام العرب، فخبطت من تلك الفنون الشجراء والمرداء، وطويت منها الآهل والبيداء، ولم أترك منها مورداً إلا وعرجت عليه، ولا طللاً إلا وحثثت ركابي إليه، حتى صار الأدب حشو إهابي، وملء جرابي، فطفقت أصوغ من الغزل والتشبيب ما تغني به الغواني في سهواتها، ومن الوعظ ما ترفض منه مآقي العباد في خلواتها، ومن المديح، ما تندى له صفاة الشحيح، ومن الهزل والمجون، ما يطرب له العاقل والمجنون. . .

ومن كثرة شغفي في البكر والأصائل، بارتشاف رضاب الطل من ثغور أقحوان تلك الخمائل ووفرة كلفي بالمقيل، في سجسج ظلها الظليل،

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

كنت أتنكب عن صحبة من لا يدأب اجتناء ثمرة الأدب، ولا يتعلق من أهدابه بهدب، ولو أناف في التصوف على الجنيد، وفي التقشف على عمرو بن عبيد، ظناً مني أنه من أمنع المعاقل للعاقل، وأوثق الوسائل للنائل اغتراراً مني بقول القائل:

لا تيأسن إذا ما كنت ذا أدب على خمولك أن ترقى إلى الفلك
أما ترى الذهب الإبريز مطرحاً في الترب إذ صار إكليلاً على الملك

بيد أني كلما زدت في ذلك ارتفاعاً، زاد حظي نقصاً واتضاعاً، كما قلت فيما بثثت فيه شجوني، قبل أن يطلع فجر المشيب من ليالي قروني:

حتى متى أرقى المعالي ولا أبرح من دهري في الهون
أعلو ورأسي في انتكاس إلى سفل كأني بيد مجنون

وأصبحت الليالي تشن علي الغارة بعد الغارة، وتتلاعب بي تلاعب السنور بالفارة، فأيقنت أن ذلك عقوبة ما كسبت يداي، وأنه من شؤم أدبي الذي كان غاية مبتغاي، فصار في زيادة أورثتني في العيون زهادة، وليتها كالزيادة في الآن، إن لم تكسبه تعريفاً فهو تنكيرها في أمان، بل كانت كياء التصغير، الكاسية ذويها ثوب التحقير، أو كياء صيارفة، التي صارت لها صارفة، والعرب تجاهر، بالدعاء على كل ماهر، فتقول للمقدام المطعان: ويل أمه ما أشجعه، وللشاعر المجيد: قاتله الله ما أبدعه. ولأمر ما ترعى الصعوة لطائف الأزهار، وترد ما أرادت من الأنهار، والهزار في ضيق قفصه، يشكو مضض غصصه، ورحم الله العالم العلامة التفتازاني، إذ يقول وازناً بصنجة ميزاني:

طويت بإحراز الفنون وكسبها رداء شبابي والجنون فنون
وحين تعاطيت الفنون ونلتها تبين لي أن الفنون جنون

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ومع ذلك لم ألتفت يمنة ولا يسرة إلا وأرى ما يزيدني حسرة من تقلب أغنياء أغبياء كالنعم، في بلهنية النعم، وتصرف البغاث المستنسرة، في الرياض النضرة، واختيال أهل القرى، بلبس نفائس الفرا، على أنهم يتيهون بالمال، على أهل الكمال، والدهر مع الأنام كالميزان، لا يرفع إلا صاحب النقصان، فلما لم تزد علي أنياب الزمان إلا حدة، ومخالب المصائب إلا شدة، ألجأتني الأيام الغبر، إلى مسالمة الدهر، فاستسلمت له استسلام العاجز، بعدما كانت قناتي لا تلين لغامز، وقلت للأدب: ارحل عني ركاب البين، واجعل بيني وبينك بعد المشرقين، تبا لك من صارم أكل حَدُّه جثمان غمده، وثمر عرض أشجاره، للرمي بالحجارة، وأصالة رأي ساقتني إلى الخطل، وحلية فضل شانتني لدى العطل:

وهبك كالشمس في حسن ألم ترنا نفر منها إذا مالت إلى الضرر

وأقدمت على الانتظام في سلك أغمار الناس، وطويت كشحي عن مداناة الأكياس، وجلبت دواوين الأدب، في سوق الكرب، واتخذت من التغابي جلباباً، وفتحت علي من الفهاهة أبواباً، وأريت الناس أني أرى الصواب خطأ والخطأ صوابا، اقتداء بأديب معرة النعمان أبي العلاء أحمد بن سليمان، حيث تقول وقد رشقته سهام الزمان:

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً تجاهلت حتى ظن أني جاهل
فوا عجباً كم يدعي الفضل ناقص ووا أسفاً كم يظهر النقص فاضل!

فكنت إذا سمعت معرباً في مجلس الألباء، يقول: زيد مجرور بالباء، أتباكى وأقول: ويح ذلك الفتى، إلى أين جر ومتى؟ وما الذي جر لأجله، وهل يجر الرجل إلا بيده أو رجله، ورأيت من يقول: عمرو مرفوع، أقول: لعل ذلك شيطان مرفوع إلى السلطان، وربما أخذني المعرب بحلمه،

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وأدناني ليفيدني من علمه، فعلمني معنى الرفع، وما يقصد به في ذلك الوضع، فأقول: فما بالنا لا نقرأ: (في بيوت أذن الله أن ترفع) بالرفع؟ وهل بعد إذن الله في رفعها من دفع؟ وهل بين الرفعين فارق؟ فيقول: نعم بينهما فارق قوي، ذاك اصطلاحي وهـذا لغوي، فقلت: لقد أطلت الهراش، وكثر الضباب على خراش، هلا كسرت الفاء من (فرق) وفتحت من (لغوي) اللام، لتسلم من حمة الملام؟ ألم تقرأ في الكتاب المستبين: (كل فرق كالطود العظيم)؟ و(إنك لغوي مبين) فتضحـك مني تلك الطلبة، ويقولون: لله أنت! ما أظرف جهلك وما أعذبه! وتالله إنك بطرق الجهالة، أعلم من الشافعي بمسائل الرسالة، وفي السلوك إلى الخطأ، أهدى من القطا، ودمت على هذا النهج، آتي أهل العصر من كل فج، أتقلب إليهم في أقاليب، وأتنكر عليهم في أساليب، حتى سكنت عني تلك الهزاهز والزعازع، وصافاني المنازع والمقازع، وهشت إلى الليـالي بعد اكفهرارها، وتوطأت لي الأيام بعد اشمخرارها، وانتبه طرف حظي بعد طول النعاس، ودرت عليّ أخلاف النعيم من غير إبساس، فصرت من يمن التغابي والتعامي لا تخطىء سهامي المرامي، فلا علي إذا أنشدت من حوك جناني، ووشي بناني:

ألجـأتني الأيـام للجهـل حتى غشيـتني وأهـل بـيتي الـتهـاني
فـأنا اليـوم في الأنـام أبـو جهـــل وعرسي من الهنا أم هاني . . .»[1]

انتهى.

ويلحظ القارىء أن الكردي قد حرص على أن يلتزم السجع في رسالته، وأن يوشيها بالجناس والطباق، ولكن ما فيها من روح شجية في

(١) «تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد» تأليف محمد بن عبـد الله آل عبد القادر، ج ٢، ص ٨٣ ــ ٨٧.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

البداية، وجو مرح أوجده الكاتب عند النهاية قد كاد يستأثر بمشاعر القارىء، ويجعل هذه المحسنات عوناً على إيجاد الجو الشاعري، ووصف الخلجات النفسية. فلئن احتذى في أسلوب رسالته طريق المنشئين، فإنه قد اتخذ هذا النوع الأدبي وسيلة للتعبير عن الأحاسيس الذاتية، وتصوير التجارب الخاصة، فأتت الرسالة حية في صورها، غنية بمشاعرها وتجاربها. وقد أبت الروح الأدبية المبدعة إلا أن تشق طريقها خلال حجب التقليد الشكلي، وأن تبرز جلية واضحة، فتهيىء للمضمون النفسي أن يسيطر على الرسالة، ويضفي عليها جواً فنياً مؤثراً. ولا شك في أن ما استخدمه الكاتب من لغة ثرة رشيقة قد أمد الرسالة بكثير مما اتسمت به من جمال فني. ولو صرف القارىء النظر عما في هذه الرسالة من ديباجة وختام، لأمكن أن تعد في المقالات الذاتية التي تتسم بالروح الفكهة الساخرة، وتحفل بالمتعة والإبداع.

وممن أسهم في كتابة الرسائل الإخوانية كذلك الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ (١٢٢٥ ـ ١٢٩٣) من علماء الرياض، ومن رسائله تلك الرسالة التي بعثها إلى الشيخ حمد بن عتيق قائلاً فيها:

«وبعد فإني أحمد إليك الله سبحانه على نعمه والخط وصل وصلك الله بما يقربك إليه وما أشرت إليه صار معلوماً، لا سيما الإشارة الخفية، والنكت الأدبية، التي منها تشبيه أخيك بالطير المبرقع، وإيراد المواعظ وأنت بمكان علو أرفع، وكنت حال وصوله قد قرأته بمرأى من أهل الأدب ومسمع، فمن قائل عند سماعه: هذا الرجل طبعه الغلظة والجمود، وآخر يقول كأنه لا يحسن الدعوة إلى ربنا المعبود، فقلت، كلا إنه ابن جلا، وله السبق في مضمار الديانة والعلى، لكن من عادته أن يتجاسر على أحبابه، ويزدري رتب أخدانه وأترابه، والمحب له الدلال والمرء يشرق بالزلال. . .

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

فمن أراد أن ينصب نفسه في مقام الدعوة فليتعلم أولاً، وليزاحم ركب العلماء قبل أن يرأس، فيدعو بحجة ودليل، ويدري كيف السير في ذلك السبيل، فإن الصبابة لا يعرفها إلا من يعانيها، والعلوم لا يدريها إلا من أخذها عن أهلها وصحب راويها:

ما كل من طلب المعالي نافذاً فيها ولا كل الرجال فحولا

وقد كنت أظن أنكم تحبون من هاجر إليكم، وتراعون حق أسلافه في المشيخة عليكم. ومكان العلم وتعليمه، وحق الشيخ وتكريمه، غير معتبر لدى الجمهور، قبل قصدهم المناصب والظهور. قال الشيخ وحدثنا، وجلس الأستاذ ونبأنا، هو غاية قصد الأكثرين، إلا عباد الله المخلصين، والسلام عليك وعلى من حضر من المسلمين لديك، وما بسطت لك الكلام، إلا محبة وإعلام، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم»[1].

لقد أراد الشيخ عبد اللطيف أن يعاتب بهذه الرسالة أحد زملائه من علماء الدين، ولكنه لم يتخذ لعتابه أسلوب الكتابة العلمية، كما لم يشأ أن ينسج رسالته على نمط تلك الرسائل الإخوانية التي تتسم باللعب اللفظي، والخواء المعنوي، لذلك اختار أسلوباً واءم فيه بين الشكل الفني، والمضمون الفكري، فأتت الرسالة مؤثرة معبرة، تدل على روحه الأدبية، وتشهد بقدرته الأسلوبية.

وإذ أدرك الشيخ عبد اللطيف ما للأسلوب الأدبي من تأثير قوي في النفوس، فإنه لم يقصر استخدام هذا الأسلوب على الرسائل الإخوانية، بل اتخذه كذلك في تلك الرسائل التي يناقش فيها القضايا الدينية، ويريد بها أن

(١) «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية»، ج ٣، ص ١٨٦ ـ ١٨٨.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

يعطف قلب المخاطب ويستميل مشاعره. ومن هذا النوع تلك الرسالة التي بعثها إلى الشيخ عثمان بن منصور قائلاً فيها:

«أما بعد فقد وصل إلينا منك خطابان فأولهما صادف حين الاشتغال بلقاء الأحبة والآل، وأما الثاني، فبعد أن ألقيت عصا الترحال، وارتاح من ألم شوقه القلب والبال، فبمجرد الوقوف على خطك ومطالعة نقشك ووشيك، بحثت عن الوجه الذي تدلي به علينا، وعن حقيقة المعنى الذي تشير به إلينا، وما هو اللائق في إجابة أمثالك، وهل يحسن بنا النسج على منوالك، أو نقتصر على موجب (وإذا حييتم بتحية) إذ ليس وراءها مزية دينية شرعية، لأكون على بصيرة من أمري، ومعرفة للحقائق قبل اقتداح زندي. فأخبرني الثقة بالجرح والتعديل، الخبير بما قد شاع عنك من القيل، أن صاحب الخط ينتمي إلى ممارسة العلوم، المنقول منها والمفهوم، غير أنه قد نسب عنه هفوات، إن صحت فهي من عظائم المعضلات، ولم نقف لها على تصحيح يعتمد، ولم نلتفت إلى البحث في متنها والسند، اكتفاء بإعراضه عن الابتهاج بهذه الدعوة لهذا الأصل والمذاكرة، واستغناء بعدم التفاته إلى المؤاخاة في الله والمؤازرة، بل كل الناس لديه إخوان، والضدان عنده يجتمعان، يصاحب أولياء الأوثان، كما يصاحب عابد الرحمن، ويأنس لمنقلب على عقبه كما يأنس بالثابت على الإيمان، مع أنه قد شرح التوحيد، وادعى الإتيان بكل معنى موجز سديد.

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق وبالـــــعذيب يوماً ويوماً بالخليصاء
وتارة تنتحي نجداً وآونة شعب الغوير وطوراً قصر تيماء

فهو إن انتسب إلى الحق، فقد والى من خرج عنه وعق.

فقلت إيه له من رجل لو استقام، وصارم لولا ما عراه من الانثلام، لكني أعلم أن للعلم بركات، وللملك لمات، فأرجو أن يقوده العلم إلى

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ثمراته، وأن يحول بينه وبين الشيطان وخطواته، (إعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) والقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن، كما رواه المحدثون من الأعيان، فلعل ميت رجائنا يحييه من يحيي عظام الميت وهي رميم، ولهذا أشرت إلى الشيخ الوالد أعز الله قدره، ورفع بوراثة النبيين مجده، بأن يرد لك الجواب، ويعلمك بالخطب أتى من أي باب، طمعاً لك في الأوبة والفلاح، وحرصاً على سلوك سبيل الهداية والصلاح، لئلا تتوهم غير ذلك من الأسباب، التي تنقل عنك من الاستطالة في الأعراض والاغتياب، إذ هي لا يلتفت إليها المؤمن العاقل، ولا يأخذ بها إلا غر مماحل، وهي باقية ليوم ترجعون فيه إلى الله، ويجزى كل قائل بما زوره وافتراه، ولعل الله أن يمن برجوعك إلى الحق بعد الشرود، ويقضي بصحبتك على توحيد ربنا المعبود، فإني أتأسف على تنكب أمثالك (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم»[1].

لقد أبدى الكاتب هنا قدرة على استنباط المعاني والأفكار، وميلاً إلى التفصيل والدقة في التعبير. كما أن الرسالة قد اتسمت بشيء مما تميزت به الرسائل في عصور العربية الأولى من نغمة جادة، وبيان منطقي، وروح سمحة تحاول الإقناع، وتحرص على إثارة المشاعر واستمالة القلوب. وإذا كانت الرسائل الإخوانية قد أصيبت في عصور الضعف الأدبي بالهزال الفكري، فإنه ليس في هذه الرسالة أثر للعب اللفظي، أو التفاهة المعنوية، إذ عالجت موضوعاً روحياً أخلص الكاتب في أن يلائم فيه بين جزالة اللفظ، وذاتية المشاعر والمضمون الجاد.

وإذا كان الجد في المضمون النفسي والفكري قد أنقذ معظم الرسائل السابقة من أن تقع ضحية للصنعة اللفظية، فإن هذه الصنعة قد طغت على

(١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

كثير من الرسائل التي افتقرت إلى مثل هذه الموضوعات الجادة، وذهبت بقيمتها الأدبية ومتعتها الفنية. ومن هذا النوع ما أنشأه الشيخ عبد العزيز بن عبد اللطيف آل مبارك (١٣١٠ ـ ١٣٤٣ هـ) أحد علماء الأحساء، حيث كتب إلى عمه رسالة ودية قال فيها:

«حضرة حديقة العلم الناضرة، وحدقة الفضل الناظرة، من له في الأدب قدم وقدم، وفي ابتناء المجد هم وهمم، من حل الصدور، وحلى الصدور، ولم يضق عليه الورود بعد الصدور، في جميع المقاصد، سيدنا العم الشيخ راشد. أبقاه الله لطالب يرشده، ولبيت مجد يشيده، ومنثور سنة ينضده، ومنظوم بدعة يبدده، وحق يؤيده، وحسود يكمده... ثم أنهي سلاماً أهنأ من تعاطي راح العتاب براح القبول، وثناء تفتر عن صدق الولاء ثغوره، وتفتق عن مثل اللآلىء زهوره، ودعاء لكل خير شامل، وسؤالاً في حلل الاحترام رافل، وأشعركم أن المملوك يحمد الله الملك الأعلى، في نعم لا يحيط بها الإملاء، فمن أعظمها ورود محرركم الأعطر، المؤرخ رمضان الأزهر، فأسرنا اعتدال ذلك المزاج الأنور، بلغه الله ما يرجو ووقاه ما يحذر، فللّه هذا الكتاب ما أورق عباراته، وأرق إشاراته، وأوضح صريحه، وأملح تلميحه، فبمهجتي فكرة نمقته، وأنامل رقمته.

شكر الله إحسانكم، وأعلى شأنكم، فلقد خلعتم علي حلة جمال لا تنفد، وصنعتم حلية بهاء تبلى الليالي وهي تتجدد، وقد تلي على جملة من الفضلاء فأجمع الجميع على أنه مدد سماوي، وأتي أتاوي، ومما زادهم عجباً أنه على ما فيه من جودة الترصيف، وحسن التصرف، لا يرى عليه أثر التكلف، ولا شك أن الطبع لا كالتطبع، وليس القول كالتقول، ولا الكحل كالتكحل.

أبقاكم الله لنا جمالاً، ورقاكم عزاً وجلالاً، ورزقنا اتباع سننكم،

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ورعاية فروضكم وسننكم، والأمل ألا يخرج المملوك المخفوض بإضافة المقصور من الضمير المرفوع بالابتداء في كل خير مأثور، والتشريف بما يخطر، والتنبيه على ما يجب ويحظر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

ومن الواضح أن الكاتب حين أراد أن ينشىء هذه الرسالة الودية لم يجد أمامه سوى المألوف من المعاني، والمعاد من الصور، فحاول أن يلجأ إلى الصنعة اللفظية، والمحسنات البديعية، علها تسمو برسالته عن مردد الأفكار والصور، ولكن إفراطه في استخدام هذه العناصر قد أثقل الرسالة، وحجب مشاعره عن أن تظهر للقارىء معبرة مؤثرة. ورغم هذا فإن مما يحمد للكاتب أنه استخدم أسلوباً فصيحاً مشرقاً يدل على مقدرة تعبيرية كان من الممكن أن تكون وسيلة جيدة لنقل أحاسيسه، وتصوير تجاربه الذاتية، لو لم يغرم بأسلوب الصنعة الذي قضى من قبل على كثير من رسائل الود في عصور الضعف الأدبي.

□ المفاخرة:

وقد مارس نفر من العلماء والكتاب حينئذ إنشاء المفاخرات والمقامات، إذ ألف الشيخ أبو بكر خوقير مفاخرة بعنوان «مسامرة الضيف بمفاخرة الشتاء والصيف»، كما ألف الشاعر ابراهيم الأسكوبي مفاخرة شعرية بين «وابور البحر ووابور البر» سنة ١٣٢٤ هـ. ولكن يبدو أن بعض ما أنتج في هذا الميدان ما زال بعيداً عن متناول الباحثين، وأن أخباره لا تعرف إلا من خلال الروايات التاريخية، ومثال ذلك ما أشار إليه محمد بن سعد بن حسين حين تحدث عن النثر الأدبي في نجد فقال بأنه

---

(١) «شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر»، جمع عبد الفتاح محمد الحلو، ص ١٦١ ـ ١٦٣.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ذكر له أن الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ قد كتب «جملة من المقامات» ولكنه لم يستطع العثور على شيء منها[1].

أما «مسامرة الضيف بمفاخرة الشتاء والصيف» التي ألفها الشيخ أبو بكر خوقير (١٢٨٤ ــ ١٣٤٩) سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨م) ونشرها عام ١٣٣٠ هـ (١٩١١ ــ ١٩١٢) فهي مفاخرة بين الشتاء والصيف اللذين يباهي كل منهما الآخر بفضائله، ويقلل من مزايا خصمه. وتتبع هذه المفاخرة الطريقة التقليدية من حيث التزام السجع، وتقديم خصمين يطلقان لنفسيهما العنان في جدل حاد لا ينهيه إلا تدخل المؤلف حين يقترح عليهما الرجوع إلى حكم هو في هذه المفاخرة الشيخ عبد الحفيظ القاري الذي ينجح في إقناعهما بأن كل واحد منهما عنصر ضروري من عناصر هذا الكون.

وتبدأ هذه المفاخرة بالمقدمة التالية:

«بينما أنا ذات ليلة في أرق، وضجر شديد وقلق، مما أقاسيه من حر السنبلة، وأتجرعه من حرارتها المقتلة، إذ تذكرت فضل البرد، وعيشه الهنيء وعرفه الورد، وتمنيت أني كنت فيه مشمولاً بشملة أو برد، وقلت مادحاً له:

نعم الشتاء وحبذا زمن الهنا والراحة

وبينا أنا في تلك الحال، وصرت بين اليقظة والنوم الحال، إذ جاءني طيف خيال، في صورة أسد مغتال، وقال: إني أنا الحر والقيظ والصيف الفعال، والضيف الحر في الفعال وأنتم إلى إمام فعال، أحوج منكم إلى إمام قوال، لا تثبتون على حال، ولا تعرفون قدر الرجال، ولله در من قال، وأحسن في المقال:

---

(١) «الأدب الحديث في نجد»، ص ٢١١.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

يتمنى المرء في الصيف الشتاء فـإذا جـاء الشـتـاء أنـكـره
ليس يرضى المرء حـالاً واحداً قـتـل الإنـسـان مـا أكـفـره

تضجرون من جيرتي، وتصيحون من حرارتي، وأنتم تجدون اللذة العريقة، إذا قابلتموني بالماء والثياب الرقيقة، ورقيتم لأجلي المواضع الرفيعة، وتفسحتم في الرياض البديعة، ولكن ستذكرون ما أقول لكم، وتعلمون رفقي بكم، وعدم تكليفي لكم، إذا جاءكم البرد، ولظاكم بناره، وسحقكم مبرده بالبرد، وجاءكم بجنوده، وصعق عليكم بالصواعق والرعد، وكلفكم ما لا طاقة لكم به من كثرة الطعام والفرش والملابس العظام...

فما أتم كلامه، وقضى مرامه، إلا وقد حضر طيف خيال ثانٍ، فقال أعوذ برب المثاني، من كل ظالم وشاني، ومن حسود لا يقدر شاني، وجاهل لا يعرف مكانتي ولا مكاني، ثم أنشد قائلاً:

وإذا مـا خـلا الجبـان بـأرض حـاول الـطعن وحـده والنـزالا

...ثم قال إني أنا الشتاء والقر والبرد، محاسني لا تحصى ولا تعد، إذا جاءت أيامي انتصبت أعلامي، وأضرمت نـاري، ورأيت الضيوف حولها في ليلي ونهاري في البيوت والصحاري، ورأيت الناس يهنون بعضهم في خروج عدوهم ووصولي إليهم، فهذا يتمثل، وهذا ينشد ويترسل. فرحت القلوب بوصولي، وامتلأت بشرا، وشرع الكرام يخرجون مدخرا، ويعطفون على الفقراء...»[1].

ويستمر الشتاء والصيف في جدلهما، فيعزز كل منهما آراءه بالاستشهاد بأحاديث نبـوية، وبعـدد كبير من الأشعـار التي يغلب عليها التكلف

(١) «مسامرة الضيف بمفاخرة الشتاء والصيف»، ص٣ ــ ٤.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

والصنعة. ورغم أن فتور بعض فقرات المفاخرة وكثرة الاستطراد فيها قد قلـلا من إمتاعها، وأضعفا من قيمتها القصصية، إلا أن المؤلف قد وفق ـ أحياناً ـ في خلق جو تمثيلي مرح كما في قوله: «فلما سمع الشتاء هذه المقالة، شمر وضم أذياله، وتنفس الصعداء وقال يا عدو السعداء، ما هذه الوقاحة، والمجازفة بالصراحة؟ رمتني بدائها وانسلت، يرى القذاة في عين أخيه، ولا يرى المسلة في عينه تدميه...»[1].

وتبدو حيوية الحوار والحركة كذلك في الأسطر التالية التي يرد فيها الصيف على الشتاء كائلاً له الصاع بصاعين: «فقام الصيف وقد تفصد عرقاً، وصوت سمومه فرقاً، وقال أيها الشتاء الخابط خبط عشواء، الراكب متن عمياء، والشائب وهو في العيب والعماء، أتفاخرني وأنت في الحضيض، وتناظرني وأنت الثقيل البغيض؟ تجعل المحاسن مساوياً وتمشي على المكر طاوياً...»[2].

ومع أن هذه المفاخرة قد أثقلت بالمحسنات البديعية، واتسمت بالصنعة والتكلف، إلا أن أسلوبها قد تميز بالوضوح والجزالة، والخلو من شوائب العامية والعجمة.

ويبدو أن مفهوم الأدب عند أبي بكر خوقير لم يكن يختلف عن ذلك المفهوم التقليدي التعليمي الذي تحجر في عصور الضعف الأدبي، فلقد عبر عن اتباعه لهذه التقاليد حين ذكر الأسس التي اهتدى بها في تأليف هذه المفاخرة فقال: «أما بعد، فقد جرت عادة الفضلاء في كل زمان، ومضت سنة النبلاء في كل مكان، بتحرير المقامات الأدبية، وتحبير المقالات العلمية، والمساجلات اللطيفة، في القوالب الظريفة، مع الاستشهاد

(١) المصدر نفسه، ص ١١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

بالأشعار الرائقة، وإيراد الأمثال الفائقة، والحكم الغريبة، والنوادر العجيبة، فيجتمع من ذلك حكايات مطربة، وقصص مرقصة معجبة، وقد يجرون ذلك على لسان الجمادات والحيوانات حتى على لسان العقلاء من السادات، تمثيلاً بأحوال مفروضة ومتخيلة، ومتضمنة لنصائح ومواعظ جزلة. . . »[1].

ولقد كان المؤلف مخلصاً لهذه التقاليد الأدبية، إذ أتت مفاخرته عبارة عن مساجلات تمتلىء بشواهد من الأشعار والأمثال والحكم والنوادر. ورغم أن المؤلف قد أشار إلى أن «التمرين للمبتدىء، والتدريب على الإنشاء والتأديب والتهذيب»[2] من بين الأهداف التي يرمي إليها هذا اللون من التأليف، فإنه لم يملأ مفاخرته هذه بالألفاظ الغريبة والمفردات اللغوية، ولم يحشها بالفوائد النحوية والبلاغية كما كان يتسم به فن المقامات في أخريات أيامه، بل جاءت سهلة في لغتها ممتعة من حيث طابعها.

لم يقصد أبو بكر خوقير في مفاخرته هذه إلى إمتاع القارىء، وتمرين المبتدىء فحسب، بل أراد كذلك أن يدعوا مواطنيه إلى إنتاج هذا النوع من الأدب، وأن يحثهم على الاحتفاء به إذ قال: «فمن أجل ذلك أردت أن أجرب نفسي، وأجر أبناء جنسي، على الدخول في هاتيك المسالك.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح»[3]

وفي الحقيقة إن نظرة الكاتب إلى الأدب لا تختلف عن تلك النظرة التقليدية التي أبداها من قبل كل من محمد نووي وبكري شطا[4]، ولكنه

(١) المصدر نفسه، ص ٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣.
(٤) انظر ما سيأتي من حديث عن الأنماط النثرية الأخرى التي أنشئت في هذه الفترة.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

زاد عليهما بأن دعا مواطنيه إلى كتابة المفاخرات والمقامات وشجعهم على الاهتمام بها في وقت كاد فيه هذا النوع الأدبي التقليدي يختفي من الأدب العربي، ولعل دعوته هذه من آخر ما ظهر في الأدب العربي من حث على ممارسة هذا اللون الأدبي الذي أصيب حينئذ بالتحجر والجمود. ومما يثير انتباه القارىء هو أن المؤلف قد كتب عن فن قصصي، ولكنه لـم يبد شاعراً بتلك الأنواع القصصية الحديثة التي كانت قد بدأت في الظهور حينئذ في ميدان الأدب العربي.

□ أنماط نثرية أخرى:

ولعل كتب التاريخ من أهم المؤلفات التي يمكن لدارس النثر الأدبي أن يجد فيها من النصوص ما يدل على مستوى الأسلوب الكتابي في هذه الحقبة، ذلك لأن هذه المؤلفات كانت تحرر حينئذ بأسلوب يشبه الأسلوب الأدبي من حيث استخدام السجع وإطلاق العنان أحياناً لسبحات الخيال والعواطف الذاتية.

ومن أمثلة ذلك ما كتبه الشيخ حسين بن غنام حين تحدث عما قام به أهل بلدة من بلدان نجد في عام ١١٩٥ هـ من محاولة للانقضاض على الحامية المجاورة لبلدتهم بعد أن لقوا من رجالها ما لا قبل لهم به من قوة البأس، وشدة المراس. قال المؤلف:

«واستمر عليهم [أهل البلدة] ذلك الحال، وتجرعوا منهم [جنود الحامية] غصص الوبال، وأقاموا في أكسف بال، لا يطعمون لذة المنام في دياجي الظلام، قد حاربوا الرقاد، وصالحوا السهاد، والحرب توقد عليهم غاية الاتقاد، فلما سقمت منهم الأجسام، وضاق عليهم في بلادهم المقام، وحالت وجوههم ذلك الزمان، وتغيرت منهم الألـوان، وضوت منهم الأبدان، وعميت عليهم مناهج الحيل، وسـدت عليهم مناهـج جميع

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

السبل، ولم يلفوا في إزالة ذلك القصر سبب، استعانوا في ذلك بأفكار العجم والعرب، حتى جاءهم شخص من تلك النواحي ممن تسمى بالمعرفة وانتسب، فشكوا له حالهم ومصابهم، وما نزل بساحتهم وأصابهم، فقال: ثكلتكم الأمهات، وعدمتم الترفهات، معشر الحمقى والسفاهات، وأرباب الجهل والترهات، لم تلدكم النساء للحروب، ومكافحات الخطوب، وإنما ولدتم للغي والهوى والبطالة، فلستم مساعير الحرب ولا رجاله، أغرتكم من هذا القصر أحزان، حتى ذهب منكم اللب والجنان، أغشيتكم منه الذلة والهوان، وتشبهتم بالغواني ذوات الأخدان، وتلفعتم بمروط النسوان؟ فقالوا سبحان الله يا أخا العربان، كيف ينطق بالتأنيب منك لسان، وتسرع إلينا بهذا الإغلاظ والهذيان، ونحن الكماة الشجعان؟ ولكن قد التقت حلقتا البطان، واحتنكت علينا الأوطان، فعسى أن يكون للراحة منك يدان... فقال آتوني بأقوى الأخشاب، حتى أصنع لكم ما بقي من الرصاص من الأبواب، وأجعلها مثل الصندوق، وأعلاه مطبوق، والرجال فيه مداريع، وبأيديهم المفاتيح والمصاريع، ويحمل ذلك الصندوق على عجل، وأهله فيه قعود على مهل، ويدفعونه أولئك القعود، فيسير بالدراريج غير مردود، ، فإذا وصل إلى السور يفتح ويحصل المراد، وينجح فيهدم السور وينقض، ويوهى أساسه وينفض، وترمى أحجاره، وتقتل بعد ذلك أنصاره، وتدخل فيه الأجناد، ولا يبقى فيه أحد من أولئك العباد، فلما أخبرهم بهذه الحيلة وفاه، أقبل منهم كل يقبل فاه، وقالوا: (إنك اليوم لدينا مكين) فاحكم بما تريد من أموالنا وتستكين، فقال: ذلك بعد ما يتم المراد، ويحصل لكم الإسعاد، فعجلوا إليّ بالأخشاب والأعواد، فأسرعوا في الاستعداد، وأتوه بما طلب وأراد، وشرعت الصناع تصنع في الحديد، وأقاموا على ذلك أياماً بلا تعديد، وهم في تعب شديد، حتى فرغ من أمره ذلك الشيطان، وأبرز كيده من غير توان، وقعد فيه أناس متدرعون، عتاة مردة، وأخذوا يدفعونه ويعطي مقوده، وهيأوه إلى السور ومرصده، فلما توسط في الطريق عند

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

القصر ومشهده، أبى إلا الوقوف، وكأنه عن المسير مصروف، فعجل الله لكثير من فيه الحتوف، وحاولوا في ذلك أعظم حيلة، فلم يكن إلى ما راموه وسيلة وقالوا قد زال الفرج، وجاء الترح، إن بقي هذا العجل في هذا المكان والمحل هبط من في القصر ونزل، فقادوه علينا وأوصلوه إلينا، فكنا كمن ألقى نفسه في الهلاك، ووضع لإتلافها حبائل وأشراك، وكان القوم الذين فيه لا يقدرون على رده، ومن جاء من الأحزاب قتل قبل أن يصل إلى حده، فحاروا وخاروا وخسروا وباروا، يوم تعدوا وجاروا، وبقوا ساعة وزمانا، يعانون هما وأحزاناً، وقد تسربلوا بلباس الإحجام، وأبت أن تسير إلى رده الأقدام، حتى جرى بينهم عتاب وملام، وتناوب وبكاء بدموع سجام، فانتدب له رجال، وناداه بعض منهم وقادوه قريب الحال، ثم بعد ذلك شبوا عليه النار، وقالوا لا تستطيع أن تشاهده منا الأبصار. . .»[1] انتهى.

ومن الواضح أن ابن غنام لم يكتف هنا بتسجيل الأحداث التاريخية، بل أراد أن يصور الخواطر النفسية، والصراع الإنساني. وإذ أباح لنفسه كذلك أن يفسر حوادث التاريخ تفسيراً ذاتياً، وأن يضيف إليها ما رأى أن من الممكن أن يقع حدوثه، فقد جاء أسلوبه التاريخي شبيها بالأسلوب الملحمي. وفي الحقيقة إن القارىء يكاد ينسى ما للحادثة من قيمة تاريخية، وينصرف إلى ما فيها من متعة قصصية، وقيمة أدبية. ورغم ما التزمه الكاتب من سجع عاق سلاسة الرواية، وقلل من حيويتها، إلا أن أسلوبه قد تميز بالوضوح، واتسم بالقدرة على تصوير المواقف المتأزمة، والصراع النفسي.

وكان عبد الله بن محمد عبد الشكور من المؤرخين الذين يستجيبون للنزعة الأدبية حين كتابة حوادث التاريخ. ومثال ذلك ما حكاه عن

---

(١) «تاريخ نجد»، ج ٢، ص ١٠٨ ــ ١١٠.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الشريف مسعود بن سعيد وابن أخيه من حادثة تاريخية حفلت بكثير من عناصر الفن الأدبي حيث قال بأن الشريف مسعوداً «أخبر مرة بعض جلسائه، من خواصه وأقربائه، أن أخي الشريف عبد الله حين قرب موته، ودنا فوته، وكان ابنه محمد غائباً بأرض اليمن، ولم يكن مثلي مقرب[1] عنده ومؤتمن، عزمت على أنه متى غمضت عينه، وحان حينه، جلست موضعه، قبل أن أشيعه، وتمكنت من الشرافة، وناديت لنفسي بالخلافة، فيستقر لي الملك، ويشرق سعدي في دجى الحلك، ولم أجد لي منازع، ويحق لي أن أنشد البيت الشائع:

خلا لك الجو فبيضي واصفري ونقري ما شئت أن تنقري

فلم أزل أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، ولسان حال ابنه يقول لن تستطيع معي صبراً، وكان لي صاحبان، كأنهما الفرقدان، لهما حدس وأفكار، يوافق القضاء والأقدار، ويستمد منهما التيار، ويحدي لهما برأيهما الحادي إذا سار، فبادرت بيت أحدهما وهو حسن البغدادي، لأخبره بما في مرادي، وأخبرته أن طوق أخي صار في قبضة المنية، ولي على الجلوس في مكانته عزم ونية، فما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، فأجابني لا أشير بها عليك، والأمر إليك، فطلبت منه دليلاً موضحاً يسكن خاطري إذا سكنت، وكيف أترك ملكاً منه تمكنت، ثم إني لست بعيي إذا وضحت لي ما أبهم علي، فخب في المجال، وبادر ارتجال، فقال اعلم أن أخاك ذو أموال ونقود، وعساكر وجنود، وابنه من دهاة الرجال، الصناديد الأبطال، فمتى بلغه موت أبيه بالتأكيد، جاءك يسعى على خيل البريد، فلا مال لك يقاومه، ولا رجال تصادمه، فيخرجك منها كيف أحب، كما خرج موسى خائفاً يترقب، فلم يؤيك غير الجبال، وتصير مثلاً من الأمثال، فلا ملكاً

(١) هكذا في الأصل، وسيرد فيما يأتي من هذا النص والنص الذي يليه عدد من الأخطاء النحوية والتعبيرات العامية التي وردت في الأصل.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

حويت، ولا بدارك استقريت، قلت له فما الرأي قال تنادي بالملك لابنه محمد، وأنت وكيله وصارمه المهند، وقم مقامه حتى يحضر، وانه بطريق الوكالة وأمر، فإذا حضر وأجلسته محل أبيه، حزت عنده مكاناً ترتضيه، فصير نفسك من نصحائه، وأعظم أخصائه، ثم اجتهد في تبديد ما معه من المال، وعاد بينه وبين الرجال، فإذا أفلس وصفرت راحته، وتعب وقلت راحته، افرقه ونب، واطلب ما يجب، ولا تحتجب، ففعلت ما به أشار، وجعلت عليه المدار، وطلبت منه كتماني، وغدوت لصاحبي الثاني، وكان رجل رأيه موافق للصواب، وهو حسن الكتاب، فأخبرته بما ناب، وعن وجه أسراري رفعت له النقاب، فلما قصصت عليه السيرة، وما أعلمته بأني أخبرت بها غيره، قال لي دع المجال، في طلب المحال، وأنشد فقال:

دعها سماوية تأتي على قدر لا تعترضها بشيء منك تنخرم

فإن الأشياء مرهونة بأوقاتها، وإذا جاءت ظهرت عرائسها من مخدراتها، فاترك الرأي المسكين قبل التمكين، واعلم أن أخاك خلف أموالاً لا تحصى ولا تعد، وخلف ابنه النجيب محمد، ومتى تحقق موت أبيه، جاءك للملك يبتغيه، فلا يقر لك قرار، وهيهات إن تمكنت من الفرار، فإن المال سلم للآمال، والمال المبذول، مصرعة للعقول، صاحبه مخدوم، وطير السعد عليه يحوم، فالرأي السديد والقول المفيد، أن تشيد الملك لابنه، وتتمسك بردنه، فإذا تمكنت من الخدع وتشتت ماله تم لك الدست، وطاب لك الجلوس على الدست، فخرجت من عنده غنياً بطوله، راضياً بقوله، وعجبت من توارد الخواطر، وكيف وقع الحافر على الحافر، ثم لما توفي أخي ناديت باسم الغائب، وحمدت رأيهما الصائب، فلما وصل الشريف محمد في غاية القعدة سنة ١١٤٣ أجلسته على سريره، وكنت ولي أمره في تدبيره، وحزت عنده القدح المعلى، ولساني كالسيف الذي لا يعتريه فلا، فشرعت أفرق أمواله شذراً مذراً، وربيت رجالاً

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

يحمد بهم السرى، واستخصيت بجانب من الأشراف، واتخذت من عمد أهل تلك الأطراف، حتى صاروا يدي ولساني، وأطوع لي من بناني، ثم شرعت أعادي بينه وبين أقاربه وأخصائه، حتى أقصاهم بأعظم استقصائه، وعاديت بينه وبين الكماة الضياغم، الذين يجرعون معاديهم سم الأراقم، ولما نويت ما عليه نويت، أفرقته وادعيت، وأرسلت كتاباً للنب، ودقيت زير الحرب. . .» انتهى[1].

ورغم أن أسلوب الكاتب قد شابه شيء من العامية وعدم مراعاة القواعد النحوية، وأن النص قد أثقل بالتزام السجع، إلا أنه قد توافر العنصر القصصي في هذه الحكاية، وسيطرت الروح التخيلية على رواية الحادثة، فصارت إلى الأدب أقرب منها إلى التاريخ. ولا شك في أن قارىء التاريخ سيكون في ريب من أمر هذه الرواية، ولكن دارس الأدب سيجد فيها شيئاً مما يرضي ميوله، ويمتع نفسه.

ويبدو أن ما كان لدى عبد الله عبد الشكور من ميل قوي نحو التعبير الأدبي قد جعله ينتهز ما يتيحه مجال التاريخ أحياناً من مواقف أدبية، فيلجأ إليها لكي يرضي حاجة فنية في نفسه، ومن ذلك ما كتبه حين ذكر أحداث عام ١٢١٧ هـ، حيث وصف جمال الطبيعة بالطائف في هذه السنة قائلاً: «. . . وهرع غالب أهل مكة إلى الطايف في هذا العام، كما شاهدوا فيه هذه السنة من زيادة الأنس والسرور التام، وفاضت الخيرات فيه واتصل الرخا، ورأى الناس في نفوسهم أزيد مما يعهدونه من المودة بينهم والإخاء، وابتهج الطايف في هذا العام ابتهاجاً ظهر للناس بالمسرة وتبين، وأخذ زخرفه وتزين، وكان عامها جميع الثمار صالحة، لم يعتريها آفة سماوية ولا جانحة، والأزهار بطيب أرجها نافحة، والسنابل قائمة على أقدامها تشق جيوبها كالنائحة، والناس أفواجاً أفواجاً يهرعون إلى المثنى ويعتنقون قدود

(١) «تاريخ مكة المكرمة»، مخطوط، ورقة ٤ ــ ٥.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أغصانها فرادى ومثنى، والنسيم العليل الذي تصح به الأبدان تخفق راياته، وتهدي من طيب رياضه للندمان جهاته، وأصوات الأطيار تغرد على أغصانها، وتجلب الأنس لسكانها، ومقامات الآلات بأوتارها عوابث، والنفوس ترقص فرحاً من ربات المثاني والمثالث، حتى مضى نصف هذا العام، وهم بهذا السرور التام، فنزلوا من الطايف وتركوه على هذا الحال، والسرور مستديم بالنعيم والإفضال»[1].

ولم يشغل المؤلفون أنفسهم حينئذ بمناقشة القضايا الأدبية، ولكن بعضاً منهم قد تعرض لموضوع الأدب، وأشار إلى أحواله إشارة عابرة. ومن هؤلاء الشيخ عمر بن عبد السلام الداغستاني الذي تحدث عام ١٢٠١ هـ في مقدمة كتابه المخطوط «تحفة الدهر ونفحة الزهر في أعيان المدينة من أهل العصر» عن محاسن الأدب، وشكا ما لقيه هذا الفن في عصره من هجران فقال:

«. . . وبعد، فإن الأدب من قديم الأزمان، من أحسن ما يتحلى به الإنسان، وأبهى ما يتشح به اللبيب، وأزهى ما يقترح به كل أديب، فإنه ولو كسد سوقه وأضحت بضاعته مزجاة، له حلاوة طلاوة مستعذبة تذوقها الطباع السليمة لا الأفواه، وتشرب راحها الأرواح بكؤوس المسامع، فتدب نشوتها من القلوب في المجامع، وتنشق أرجها النفوس، وتقول لا عطر بعد عروس، نعم عرفه كالعبير ضايع، لكن مقداره في النفير ضايع:

مضى الزمن الذي قد كان فيه ... لأهل الشعر عز وارتفاع
فإن الشعر في ذا العصر علم ... قليل الحظ ملفوظ مضاع

---

(١) المصدر نفسه، ورقة ١٢٦ ــ ١٢٧.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ولئن هجر الأدب مليا، وأصبح نسياً منسيا، فإن لزنده وريا يلتمع سقطه، ولمزنه ودقاً يستدر نقطه، والمرتدي بفاخر مطارفه بين الأخدان والأقران، يشار إلى مجده وبيانه بالسلام والبنان، خصوصاً إن نظم في سلك التحايف زبرجده، وسلك في قالب الظرايف عسجده. . .»[1].

ورغم ما في إشارة الداغستاني إلى طبيعة الذوق الأدبي من صحة وسلامة، إلا أن من الواضح أنه لم يدر بخلده أن يشكو مما أصيب به الأدب حينئذ من جمود وتكلف وتقليد، ذلك أنه قد صاغ هذه الشكاية بأسلوب مصطنع مسجوع، وأطرى بعد ذلك في كتابه عدداً من النصوص الأدبية التي تفتقر إلى الروح الأدبية، والموهبة الفنية. ويبدو أن شكاته لم تكن إلا استجابة لروح الحنين إلى الماضي، هذه الروح التي تميل إلى تمجيد الماضي، والزهد بالحاضر.

وكانت كتابة الشروح من أبرز مظاهر التأليف عند العلماء في هذه البلاد، وممن مارس هذا اللون من التأليف الشيخان محمد نووي (١٢٣٠ ــ ١٣١٤) وبكري شطا (١٢٦٦ ــ ١٣١٠) اللذان شرح كل منهما منظومة زين الدين المليباري «هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء» فاتبع الطريقة التقليدية في شرح معاني الكلمات وإعرابها. ورغم ما لشرحيهما من قيمة أدبية ضئيلة، فإن من المهم أن ينظر الباحث في كيفية معالجتهما لقضية تعريف الأنواع الأدبية، ذلك أن الشيخ نووي قد شرح إشارة المليباري العابرة إلى الأدب، فقال بأن النثر هو إنشاء «الرسائل والخطب» وأن الشعر هو «الإتيان بالكلام الموزون المقفى»[2]. وعندما علق الشيخ بكري شطا على ما ورد في منظومة المليباري حول هذا الموضوع قال بأن النثر

(١) «تحفة الدهر ونفحة الزهر في أعيان المدينة من أهل العصر»، ورقة ٣.

(٢) «سلام الفضلاء على المنظومة المسماة هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء»، ص ٤٢.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

هو «الإتيان بكلام مسجع في الخطب والرسائل» وأن الشعر هو «الإتيان بكلام مقفى موزون»[1]. ويبدو أنهما متفقان في تعريف الشعر، ولكن بينهما شيئاً من الاختلاف في تعريف النثر، إذ أن نووي لا يجعل السجع أساساً من أسس فن النثر. ومهما يكن، فإن من الواضح أن اهتمامهما بشكل الأنواع الأدبية أعظم من اهتمامهما بمضمون الأدب نفسه. ولقد كانا يستوحيان في هذا وفي تعريفهما للأدب، تلك التقاليد الأدبية التي استقرت في عصور الضعف الأدبي. ومما يثير الانتباه هو أنهما لم يبدوا شاعرين ــ رغم كونهما يؤلفان في أواخر القرن التاسع عشر ــ بتلك الأنواع الأدبية الجديدة التي كانت قد بدأت تظهر آنذاك في الأدب العربي على أثر اتصاله بالأدب الغربي.

وممن عنوا كذلك بكتابة الشروح الشيخ جعفر لبني (١٢٨٢ ــ ١٣٤٢) الذي تناول «الرسالة الجدية» لابن زيدون بالشرح والتعليق. وتعود أهمية هذا الشرح إلى أمرين اثنين، أولهما أنه يبين الطريقة التي يحلل بها الكاتب هذا الأثر الأدبي، وثانيهما تلك المقدمة التي أتت بين يدي هذا الشرح.

ويبدأ المؤلف شرحه بتفسير قول ابن زيدون «يا مولاي» الذي ورد في مطلع رسالته، فيورد مختلف المعاني لكلمة «مولى» في صفحتين مشيراً إلى معانيها في عدد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ثم ينتقل بعد ذلك إلى الكلمة الثانية في الرسالة: «سيد» فيناقشها بهذه الطريقة، وهكذا حتى نهاية الرسالة. إن طريقته في الشرح لتتكون من تفسير معاني الكلمات ــ وأحياناً الجمل ــ تفسيراً مفصلاً، وإعراب هذه الكلمات والجمل، والحرص على الاستطراد كلما آتته الفرصة. لقد عمل المؤلف هذا كله،

---

(١) «كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء على المنظومة المسماة بهداية الأذكياء إلى طريق الأولياء»، ص ٩٥.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ولكنه لم يتناول الرسالة تناولاً أدبياً، ولم ينظر إليها من وجهة فنية جمالية.

وتمتاز المقدمة على الشرح نفسه من حيث القيمة الأدبية، فهي ذات صبغة ذاتية، تصور شعور المؤلف بالحزن والكآبة عندما وجد نفسه في قرية نائية من قرى تهامة على أثر تعيينه نائباً للقضاء هناك. ولعله قد حرص على شرح هذه الرسالة لما كان بين حاله وحال ابن زيدون من شبه كبير، فقد أنشأ ابن زيدون رسالته حينما كان سجيناً في قرطبة، أما اللبني فقد وجد العزاء في شرحها حين أقام في قرية الليث التي كان يعتبرها منفى له، وقد أسى اللبني لحال هذه القرية الموحشة، وأطلق العنان لمشاعر الحنين إلى موطنه الأصلي مكة فقال:

«كان الليث فيما مضى، مما يرمق بعين الرضا، ويعد خصباً وريفاً، وظلاً متفيأ وريفاً، لكن تتابع الإحن، من فتن عسير واليمن، أودت ببهجته، وألوت من مطريه عنان لهجته، فتقلصت ثروة تجاره، وشردت بأبراره قبل فجاره، فأصبح خاوياً أو كالخاوي... ولما حللت فيه، وتمعنت في ظاهره وخافيه، رأيتني حوتاً في بيداء، أو شعرة بيضاء في لمة سوداء، أجول في حوماته بين يعافير وبخت، فأتحقق قول أبي الفتح علي بن محمد شاعر بست، شعر:

وما غربة الإنسان في شقة النوى ولكنها والله في عدم الشكل

فظلت تارة أشكو مرارة الثوى، وآونة أبكي لحرارة النوى، وأرجع باللوم على نفسي طوراً، وأعود إلى التفويض على المقادير فوراً، دخلت علي هموم ما كان لها من ولوج فلذا أتمثل، شعر:

دخول المرء في الشركات سهل ولكن التفكر في الخروج[1]

(١) «الحديث شجون: شرح الرسالة الجدية لابن زيدون»، مخطوط ألف سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م)، ورقة ٤.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وقد التزم اللبني السجع في هذا النص، أما الجناس فقد كان يستخدمه بين حين وآخر كمثل قوله: «وارفا»، و«ريفا»، و«بهجته»، و«لهجته»، و«تجاره»، و«فجاره»، و«الثوى»، و«النوى». وبالرغم من وجود كل هذه المحسنات البديعية، فإن النص وما فيه من جو كئيب قد رسم صورة مؤثرة للكاتب وهو يجوب سهول الليث المقفرة الموحشة حيث لا تقع عينه إلا على اليعافير «أولاد بقر الوحش» والبخت «الإبل». ولقد استخدم المؤلف هنا هاتين الكلمتين المهجورتين، ولكن استعماله هذا لم يقلل من قيمة النص الفنية، بل إنه قد زاد من سحره وإبداعه في تصوير كآبة البيداء ووحشتها.

ويتميز أسلوب المؤلف في مقدمته هذه بأنه أسلوب مشرق معبر. كما أن استخدامه السجع والجناس كان أقرب إلى الأساليب العربية الفصيحة منه إلى أساليب العصور المتأخرة التي ضعفت فيها قدرة الكتاب على الملاءمة بين الشكل والمضمون، فأصبحت المحسنات البديعية لديهم هدفاً في ذاتها. إن صوره لتفيض بالحيوية كما أن أسلوبه ذا النغم الحزين قد نجح في نقل تجربته ومشاعره. فلم يكن النص مجرد قوالب تعبيرية تقليدية بل كان أثراً فنياً اتسم بالإبداع والأصالة.

ويبدو مما اختير في الصفحات السابقة من نماذج النثر التقليدي أن شأن الكتاب في هذه البلاد ولا سيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان كشأن معاصريهم في البلاد العربية الأخرى من حيث اتباع التقاليد الأدبية التي استقرت في عصور الضعف الأدبي. ولكن هذه النماذج قد شهدت بما احتفظ به هؤلاء الكتاب من جزالة لغوية سلمت من شوائب العامية والعجمة، كما أن بعضها قد اتسم بشيء من الجمال الفني، والمتعة الأدبية.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الفصل الثاني

المقـالــة

المقالة الصحفية من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٦:

ظل النثر الأدبي في هذه البلاد مقصوراً على الأنواع النثرية التقليدية حتى عام ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) حيث صدرت جريدة «حجاز»[١] بمكة المكرمة فظهر نوع أدبي جديد في ميدان النثر الأدبي يختلف في شكله ومضمونه عن تلك الأنواع الأدبية التقليدية. ولكن هذا النثر الجديد الذي ظهر بظهور الصحافة لم يوجد إلا في المنطقة الغربية التي كانت ــ بفضل الحرمين الشريفين ــ أكثر أجزاء الجزيرة العربية صلة بالثقافة والتعليم حينذاك. وبما أن الصحافة لم توجد خلال الفترة التي تبدأ بعام ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) وتنتهي بعام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) إلا في المنطقة الغربية، فإن الحديث سيقتصر في هذا الفصل على ما أنتج بهذه المنطقة من نثر صحفي.

حين أصدرت الحكومة العثمانية جريدة «حجاز» بمكة المكرمة لتكون جريدة رسمية لولاية الحجاز ظهرت المقالة الصحفية لأول مرة في تاريخ النثر الأدبي في هذه البلاد، وأخذت هذه الجريدة وما تلاها من جرائد

---

(١) للاطلاع على المزيد من التفصيل حول هذه الجريدة وحول الجرائد والمجلات الأخرى التي صدرت في مكة والمدينة وجدة فيما بين عام ١٩٠٨ وعام ١٩٥٠، انظر: ما أورده المؤلف في كتابه: «نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية».

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أخرى تنشر العديد من المقالات التي تعالج الشؤون الاجتماعية والسياسية والأدبية بطريقة تختلف عما ألفه كتاب الرسائل والمفاخرات والتاريخ. ومما يمثل هذا النوع من النثر مقالة قصيرة كتبت تعليقاً على قصيدة حافظ إبراهيم التي قالها بمناسبة العام الهجري الجديد، وقد نشرت المقالة في الصفحة الأدبية من جريدة «حجاز»، هذه الصفحة التي كانت تظهر ما بين حين وآخر. وترجع أهمية هذه المقالة إلى ما جاء فيها من آراء أدبية جديدة بالنسبة للأدب في هذه البلاد، وإلى ما في أسلوبها من جمال وجزالة. قال الكاتب:

«أصيب الإسلام بداء التأخر في الماديات والمعنويات والحاجيات والكماليات وأصيب في الجملة في البيان العربي، ذلك البيان الذي كان أظهر آياته، وأكبر معجزاته، على عهد ظهوره، وإشراق نوره. جمد المسلمون كاتبهم وشاعرهم وعالمهم على ما ورثوه من الأولين، فنقلوه للآخرين كما هو ثم نسجوا على ذلك المنوال مع انحطاط في الطبيعة، ودثور في السليقة، حتى قال قائلهم من أئمة العصر العشرين:

عود السرى يا أخي العود والناب أنساك وعثاء أخباب وأغباب

هذا وهو يرى البخار يسير، والسيارات تطير، والبرق يخفق، والجماد ينطق، وضاق بالقوم الماء، وظهر الغبراء، فتسلقوا الهواء، وحلقوا في الفضاء، وزاحموا طير السماء، أنكروا الساعات واستطالوا الدقائق، فحاسبوا على اللحظات والثواني، فهل تسمع بينهم من يقول:

متى تقول القلص الرواسما يحملن أم قاسم وقاسما

ألا قد تقلصت تلك القلص، ودرست رسوم تلك الرواسم، وأصبح عهد أم قاسم وقاسم على جناح طائر، لا كما ظن ذلك الحائر.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

على أن بشائر روح جديدة في البيان أخذت تدب في أرض مصر، وظهر فيها أخيراً نفر كالسبعة الشهب يلتهبون غيرة وبياناً، وقد حمل لواءهم شوقي شاعر الأمير، وتلاه حافظ شاعر الأمة»[1].

وربما كان هذا المقال، وتلك الأبيات التي أثنى فيها محمد برادة على الشاعر المدني إبراهيم الأسكوبي لسبقه في وصف المخترعات الحديثة[2]، أول ما ظهر في هذه البلاد من نصوص تشيد بالتجديد الأدبي وتدعو إليه، وتهاجم المقلدين الذين يغمضون أعينهم عن واقعهم وعما يحيط بهم. ولكن هذا الهجوم هادىء، وتلك الدعوة ليست دعوة إلى تجديد جذري، لأن كاتب هذا المقال ومحمد برادة يتخذان من عمل حافظ[3] والأسكوبي مثالاً للتجديد الأدبي. وفي الحقيقة إن هذين الشاعرين لا يختلفان كثيراً عن الشعراء الأقدمين. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذه المقالة التي كتبت بأسلوب خطابي مسجوع تدل على أن كاتبها لم يلتزم بالتجديد، ولم يدع إلى مذهب حديث، بل كان يحمل وجهة نظر أدبية معتدلة.

وليس في هذه المقالة من المحسنات البديعية سوى السجع، ولكن مزيداً من هذه المحسنات قد أتى في مقالة مماثلة نشرت بعد ذلك في الصفحة الأدبية من جريدة «حجاز» مقدمة لقصيدة شوقي في آيا صوفيا[4].

---

(١) العدد ١٦ (١٣٢٧/٢/٥ هـ = ١٩٠٨/٢/٢٦ م) لم تذكر الجريدة اسم كاتب المقال.

(٢) انظر: عبد الله عبد الجبار، «التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية»، ص ١٣٩. لم يحدد المؤلف زمن تأليف هذه الأبيات، ولكنه ذكر أن برادة كان معاصراً للأسكوبي (١٨٤٨ ــ ١٩١٣ م).

(٣) يقول عبد الحميد الجندي في كتابه «حافظ إبراهيم شاعر النيل» (ص ٢٢٩) بأن حافظ إبراهيم لم ينجح في محاولة «الابتكار والتجديد».

(٤) لم تذكر الجريدة ــ كذلك ــ اسم كاتب المقال، ولكن يبدو أن كاتب هذا المقال والمقال الذي سبقه واحد، وذلك لما بين المقالين من تشابه كبير في الأسلوب والأفكار.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وقد بدأ الكاتب مقاله بالثناء على بلاغة شوقي، وذكر ما لقيه من تحد فقال:

«لله أبوه ما أسحر بيانه، وأطلق لسانه، وأصدق جنانه، وأرق وجدانه، وأدق إمعانه، نشأ شوقي والبيان يماشيه، والأدب يناجيه، والفصاحة تناديه، والبلاغة تدانيه، نظم وهو صبي لم يبلغ الحلم فاتهمه أهل الأدب يومئذ قاطبة، وقالوا إنما يعلمه معلم، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين...»[1].

فإلى جانب التزام السجع هنا، فإن الكاتب يستخدم الجناس كما في قوله «تناديه» و«تدانيه»، و«حوافيه» و«خوافيه»[2] ويقتبس جزءاً من آية من آيات القرآن الكريم في آخر هذه الفقرة، ويقلد الأسلوب القرآني حين يقول في مقالته: «وقد صدع شوقي بما أمر. حتى حصحص الحق وهم يعجبون. إنما يعلمه معلم. حتى يتبين لهم السبيل. أن يتدبروا القول».

وبعد أن أشار الكاتب إلى ما وهب شوقي من أصالة وعبقرية، أشاد بنجاحه في تطعيم الأدب العربي بعناصر أدبية غربية ودعا رجال الأدب إلى إمعان النظر في قصيدة شوقي هذه، لكي يتبين لهم النهج الأدبي السوي:

«وقد صدع شوقي بما أمر، حيث لم تمض إلا أعوام معدودات حتى رأيناه نسيج وحده، يغترف من بحر الطبيعة اغترافاً، سلك في نظمه طريقاً أفاده مزجه بين الأدبين الشرقي والغربي، فجاء بالعجب العجاب... ونحن اليوم موردون جانباً من منظومته في آيا صوفيا مثالاً على ما نقول. وإنما نطالب ذوي النظر من أهل الأدب أن يتدبروا القول بيتاً بيتاً، وجملة جملة، ولفظاً لفظاً، وأن يعيدوا النظر ويكرروه حتى يتبين لهم السبيل».

---

(١) العدد ١٨ (١٣٣٧/٢/١٩ هـ = ١٩٠٩/٣/١٢ م).

(٢) وردت الكلمتان «حوافيه» و«خوافيه» في الفقرة الثالثة التي لم يستشهد بها هنا.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ولعل الإشارة إلى الأدب الغربي هنا أول ما نشر في هذه البلاد من نصوص ترحب بالتأثير الغربي على الأدب العربي، وتدعو رجال الأدب إلى اتباع طريق شوقي في «مزجه بين الأدبين الشرقي والغربي». ورغم أن الكاتب لم يبين نوع هذا المزج الذي يدعو إليه، إلا أن من الواضح أنه يقصد ذلك الأسلوب الذي جمع فيه شوقي بين اقتفاء آثار شعراء العربية القدامى والتأثر بالثقافة الأوروبية[1]. وربما كان في إعجاب الكاتب بهذه الطريقة المحافظة ما يفسر دعوته المتحمسة للتجديد في الوقت الذي كان يكتب فيه هذه الدعوة بأسلوب تقليدي مسجوع.

ويبدو أن هذين المقالين أول إسهام حقيقي صدر في هذه البلاد حول قضية كانت حينئذ من أهم القضايا الأدبية، تلك هي موقف الأديب العربي المعاصر من الأدبين العربي القديم والغربي الحديث. لقد نادى الأديب المدني محمد برادة ــ في أبياته التي أشير إليها سابقاً ــ بأن يحمل الشعر العربي الحديث طابع الحياة المعاصرة، ولكنه لم يقصد بذلك إلا أن يصف الشاعر القطار ــ مثلاً ــ بدلاً من الجمل. إنه لم يذهب إلى الحد الذي ذهب إليه الناقد الأدبي لجريدة «حجاز» في دعوته إلى تطعيم الأدب العربي التقليدي بعناصر أدبية أوروبية.

ولم يكن لهذين المقالين أثر مذكور في إيجاد نقاش أدبي مفيد، إذ لم ينشر بعد ذلك عن موضوع الأدب سوى بضع مقالات كانت ــ من حيث القيمة الأدبية ــ تقل كثيراً عن هاتين المقالتين. ومن أمثلة ذلك مقالة ركيكة نشرها محمد صادق رئيس محكمة بداية جدة بعنوان «الأسلوب» وقال فيها:

«الأسلوب بعين الإفادة إنسان وبوجه تعريف بلاغته لكل منشىء

---

(١) انظر شوقي ضيف، «الأدب العربي المعاصر في مصر»، ص ٩٩.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مسلك مختص به يكسي الأفكار والمعاني. فهذا التخالف هي مرتبته كذلك في المحرر الذي ينشىء مقالات في عين الموضوع في أزمان وأمكنة مختلفة وما البشاشة والمرارة التي تبديان في محيا الشخص إلا وتضمن ذلك التخالف. تتعين أهمية الفكر والإفادة في ثلاثة أقسام الكتابة البسيطة والمتوسطة والعليا فأي أسلوب كان يختار اختير يشترط أن يكسى بزي يقتضي مطابقته للحال.

يعني أن الملابس التي تكسو بها أبكار المعاني مجزوم تناسبها بالموضوع. لأن إذا باحثنا رجل بسيط الفكر بالبديع والبيان نكون قد أزعجنا مخاطبنا ومثل ذلك إذا أبدينا آثار المسرة لشخص من أبناء جنسنا في حين تكدر خاطره نكون قد أجرينا حركة منافية للأدب ومغايرة للأخلاق، حيث يلزمنا المسارعة إلى تسلية ذلك المكدر، وتخفيف آلامه، فبناء عليه الأسلوب الذي هو بعينه إنسان يلزم أن يكون لباسه بمقتضى الحال، وأن يكون التحرير مبرءاً من النواقص الأدبية كالتعقيد وتنافر الحروف وتتابع الإضافات وجامع لخصائصه المشروطة مثل الوضوح والسلاسة والنقاحة.

فالأسلوب الذي هو عروس الكلام يشترط أن يكون بسيط كما أفدنا أو مزين قسمًا بأزهار الربيع أو يبرز بشكل بديع يحير الألباب، فالأسلوب إذا كان بسيطاً يحافظ على بساطة، وإذا كان متوسطاً أو مزيناً فهو يصعد أحياناً إلى المعالي بزي البساطة، ويرجع إلى زيه الأصلي. وإذا كان الأسلوب عالياً، فهو دائمًا يتزين بالمعالي فيجمع غروس شعر الربيع من شواهق الجبال وتلال الأودية وأطراف الأنهار، ويظهر لوحة غراء بشكل مهيب محير بما اكتسبه من انعطاف أنظار التدقيق في الكائنات وما لقاه من حسن التفكر أثناء إجالة نظرة تأمله في أعماق الأبحار»[1] انتهى.

---

(١) «حجاز» عدد ١٥٨ (١٣٣٢/٧/٢٢ هـ / ١٩١٤/٦/١٦ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

لقد حاول الكاتب أن يبين صفات الأسلوب البليغ وعناصر جودته، ولكن مقالته قد فقدت أهم عنصر من هذه العناصر وهو الوضوح، ولم يكن لذلك من سبب إلا أن أسلوبه أعجمي عامي لم يلتزم فيه بقواعد اللغة العربية. وإذا كان من الغريب أن تنشر هذه المقالة في الصفحة الأدبية، وأن تختار كلمة «الأسلوب» عنواناً لها، فإن مما زاد الأمر غرابة أن اتسمت بركاكة الأسلوب وضحالة الفكر.

ولم تتغلب الصبغة النقدية على المقالات التي نشرت في جريدة «حجاز»، بل كان معظمها يتسم بالحث على الرقي والتمدن، والدعاية لجمعية الاتحاد والترقي التي كانت مسيطرة حينئذ على الحكم في الدولة العثمانية. وقد نادى الكتاب المواطنين إلى أن يغيروا من حياتهم التقليدية التي ألفوها من قبل، وأن يتطلعوا إلى حياة المدنية والرقي. وممن كتب في هذا الموضوع أبو الثريا سامي[1] أمين السر في ولاية الحجاز، الذي ندد بتأخر الأمة، وانحطاط مستوى التعليم، وناشد سكان الأماكن المقدسة أن يعيدوا ماضيهم المجيد فقال:

«عباد الله، إننا قد استبدلنا الحياء بالوقاحة، والعفة بالدناءة، والشرف بالخسة، حتى طوتنا يد الأيام من سجل المدنية إلى سجل الأنعام، ويا ليتنا اعتبرنا بما كان، وما كان ربك بظلام للعبيد. عباد الله، هلموا نتساءل ألا نزال نستطرد السير على هذا السياق، ألا نزال نسترشد الجهل والتعصب؟

إذا كان الغراب دليل قوم يمر بهم على جيف الكلاب

ألا نزال نرضى على أنفسنا البداوة إلى ما شاء الله؟ يا قوم لنفتكر على أية أرض نحن هنا، ولننظر في صفحات تاريخ الأمة، إن صرفنا النظر عن

(١) كتب هذا المقال أصلاً باللغة التركية، فترجمه أحمد عزمي إلى اللغة العربية.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

التاريخ العمومي، لننظر في ذلك ولنفتكر، وإن تكن حصتنا منه الخزي والعار»[1].

وتختلف هذه المقالة من حيث الأسلوب عن مقالة محمد صادق السابقة اختلافاً كبيراً، إذ أن أسلوبها الجزل الواضح قد جعلها أقرب ما تكون إلى المقالتين السابقتين اللتين نشرهما الناقد الأدبي لجريدة «حجاز» ورغم جمال الأسلوب، فإنه يبدو أن الكاتب لم يراع الأسس الشكلية للمقال الصحفي، إذ أن مقاله يبدأ بمخاطبة «القراء» ولكنه سرعان ما يتخذ شكل الخطبة الوعظية، ويتبع أسلوبها. وإن استخدام مثل هذا الأسلوب الخطابي في مقالة صحفية لمهم لمن يبحث في تطور أساليب الصحافة في هذه البلاد، كما أنه مهم من حيث أن هذه المقالة قد اشتركت مع عدد من المقالات السابقة في دعوتها الحماسية إلى أن يحيا المواطنون حياة عصرية جديدة، على حين أنها قد كتبت بأسلوب تقليدي يعد أمارة من أمارات الميل إلى المحافظة.

وقد كتب أحمد عزمي مترجم المقالة السابقة مقالة بعنوان «حديث مع علمائنا الكرام»[2] ندد فيها بالأحوال الاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة حينذاك في المنطقة الغربية، ولكنه اختتم المقال متفائلاً بما سيأتي به المستقبل من إصلاح وتطور. وتعد هذه المقالة بما فيها من أسلوب عربي جزل، وجمل موسيقية قصيرة، وتعبيرات بيانية من أحسن ما نشر في جريدة «حجاز» من مقالات. ويشبه هذه المقالة من حيث جمال الأسلوب، وإشراق الديباجة ما نشر في جريدة «الإصلاح الحجازي»[3] من مقالات سياسية واجتماعية اتسمت بالوضوح وجزالة التعبير[4].

---

(١) «حجاز»، عدد٣ (١٣٢٦/١٠/٢٩ هـ/ ١٩٠٨/١١/٢٤ م).

(٢) انظر «حجاز»، عدد٧ (١٣٢٦/١١/٢٨ هـ/ ١٩٠٨/١٢/٢٢ م).

(٣) صدرت هذه الجريدة بجدة في ١٣٢٧/٤/٢٦ هـ «١٩٠٩/٥/١٧ م».

(٤) انظر «الإصلاح الحجازي» عدد ١.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وقد آلم عبد الملك خطيب ما كان في وطنه حينئذ من تأخر اجتماعي وثقافي فكتب مقالة عنوانها «دعا داعي الوطن فهل من مجيب؟» نادى فيها مواطنيه بحماس وإخلاص إلى إنشاء المدارس، وإصدار الجرائد، وتأسيس اقتصاد البلاد على أسس حديثة لكي يخلقوا وطناً جديداً يحذو حذو المجتمعات الغربية المتقدمة. وسأورد فيما يلي عدة أسطر من هذه المقالة، لتتبين تلك الروح التي دفعت هذا الكاتب الشاب إلى أن يعالج موضوعاً حيوياً كهذا، على حين كان بعض شيوخ الأدب في بلاده مشغولين بكتابة الشروح، وإنشاء المفاخرات وما أشبه ذلك من ألوان الكتابة التقليدية. قال يخاطب مواطنيه:

«سادتي، إن أول خطة يدفعنا إليها العقل بصفة كونه حاكمًا مرشداً أن نسعى لندرك أمهات وسائل السعادة في الحياتين، الحركة والصناعة للحياة الدنيا، والعلم والعمل للحياة الآخرة، غير أنه لا يمكننا أن نشيد بنيانها إلا بعد تأسيس أركانها الأربع: الاجتماع والاتحاد والتعاون والتشارك، لما أن الإنسان من حيث هو إنسان مفتقر في نيل حاجاته، وقضاء لباناته، إلى أفراد إخوته في الإنسانية، بحيث لا يمكنه أن يقوم بمفرده في كل ما يلزم له حتى في أنواع المطعم والمشرب والملبس... فما بالنا لا ندخل في طور المدنية فنعلي شاهقات قصور العمران على هاتيك الوسائل، وتلك الأركان، ونحن أبناء دولة واحدة، وندين بدين واحد في وطن واحد، ما بالنا لا نتخذها آلة لإرجاع مجدنا وإعادة سؤددنا، ونستعملها معراجاً نعرج عليه إلى سماء العلم فنطلع على كواكب دقائق المعارف، ونشاهد أفلاك المدنية، ونجوم الحضارة، ونستضيء بنيري قمر الثروة وشمس التجارة؟ لم لا نتفانى في طلبها لنتمكن بها من فتح ما أغلق دوننا من أبواب أسباب المعيشة، وشق ما حال بيننا وبين الصنايع من ستار الكسل والتسويف؟

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم»[1]

وتشبه مقالته الثانية التي نشرها في العدد الثالث من جريدة «حجاز» هذه المقالة من حيث أن الكاتب قد حث فيها مواطنيه على أن يسعوا جاهدين لكي يصبحوا أمة راقية متمدنة كتلك الأمم الغربية التي أبدى إعجابه الشديد بحضارتها وثقافتها.

ويتميز أسلوب الكاتب في مقالتيه هاتين بكثرة استخدام الاستعارات الحديثة التي تصطبغ بالصبغة السياسية والعسكرية والجغرافية والفلكية. وفيما يلي نماذج مما ورد في مقالتيه من استعارات: «أطلس فلك السياسة. بولاد الاستعباد. قذائف الظلم. محور كرة البلاغة والحماسة. سماء العلم. كواكب دقائق المعارف. أفلاك المدنية. نجوم الحضارة، قمر الثروة. شمس التجارة».

ولعل إسراف الكاتب في استخدام مثل هذه الاستعارات يعود إلى رغبته المتحمسة في إبراز أفكاره الإصلاحية في ثوب عصري، وتعبير حديث، ولكن عمله هذا لا يمكن أن ينسب إلا إلى التكلف والتظاهر بالتجديد. ويبدو أنه قد وجد حينئذ عند بعض أدباء هذه المنطقة اتجاه إلى التجديد في التعبير وميل قوي نحو معالجة الموضوعات المعاصرة، فقد ذكر عبد الله عبد الجبار في حديثه عن الشعر في هذه المنطقة خلال هذه الفترة، بأن الشاعر إبراهيم الأسكوبي كان «أسبق الحجازيين إلى وصف المخترعات الحديثة». وأن معاصريه قد عدوا مفاخرته الشعرية بين الباخرة والقطار «فتحاً جديداً في الأدب الحجازي»[1]، ثم أورد أبيات محمد برادة التي أشادت بإبداع الأسكوبي وتجديده، وعرَّضت بأولئك الشعراء المعاصرين

---

(١) «حجاز» عدد ٥ (١٣٢٦/١١/١٨ هـ/ ١٩٠٨/١٢/١٢ م).

(٢) انظر كتابه السابق، ص ١٣٨ ــ ١٣٩.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الذين استمروا في معالجة الموضوعات التقليدية القديمة. ومهما يكن، فإنه من الصعب أن تعتبر محاولة الأسكوبي ودعوة برادة تجديداً حقيقياً في الأدب، ذلك لأن نظرتهما إلى التجديد الأدبي لا تعدو أن تكون نظرة سطحية، فهما يعتقدان بأن التجديد والأصالة في الأدب إنما يتحققان بمجرد وصف الأشياء الحديثة بدلاً من الأشياء التقليدية القديمة. ويظهر أن ما صنعه عبد الملك خطيب هنا من استخدام للاستعارات الجديدة شبيه بتجربة الأسكوبي ونظرة برادة، وإنه لمن المحتمل كذلك أن يكون حماس هؤلاء الأدباء الثلاثة للتجديد نابعاً من رغبتهم في أن يسهموا في الحركة الأدبية الجديدة، حتى ولو كان ذلك بإنشاء استعارة جديدة، أو وصف آلة حديثة.

وقد خلا أسلوب عبد الملك خطيب من الكلمات العامية والتعبيرات الأعجمية، ولكنه اتسم بالصنعة المتكلفة، وعدم الدقة في التعبير، كما أنه اتصف بالاسهاب وكثرة استخدام المترادفات. وما الأسطر القليلة التالية التي يستعمل الكاتب فيها جناس الاشتقاق خمس مرات سوى مثال واضح للصنعة المتكلفة:

«. . . ونؤسس أساس الثروة والتجارة بغرس غراس الشركات حتى نجني ثمارها ونتلذذ بلذيذ نتايجها، . . . أصلح الله فساد قلوبنا، ونور بنور العلم عقولنا، وهذب بتهذيب التقوى أخلاقنا. . .»[1].

ورغم شغف الكاتب باستخدام التعبيرات الحديثة والاستعارات الجديدة، فإنه اختتم مقالتيه بعبارات الدعاء التي يؤتى بها ــ عادة ــ في الخطب الوعظية، وربما كان جمعه بين عناصر أسلوبية حديثة، وعناصر تقليدية، يعود إلى تأرجحه بين ثقافته العربية التقليدية وميله القوي إلى التجديد.

---

(١) «حجاز»، عدد ٥، لقد استخدم الكاتب كذلك هذا اللون البديعي في أول هذه المقالة حيث قال: «ألطف ألطاف اللطيف الصمدانية».

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

لقد عجب أحمد أبو بكر إبراهيم من أن أدب الحجاز في الفترة التي تلت عام ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) مباشرة، لم يتأثر بالأحداث السياسية التي كانت دائرة آنذاك إلا تأثراً طفيفاً[١]. والحقيقة أن المرء لا يملك إلا أن يشك في أن هذا الكاتب قد اطلع اطلاعاً واسعاً على ما أنتج في هذه الفترة من أدب، ذلك أن جزءاً كبيراً من النثر الأدبي في هذه الحقبة ليس إلا انعكاساً للأحوال السياسية التي عاشها الحجاز في ذلك الوقت، ونتيجة من نتائجها. ولقد شغل الكتاب حينئذ بمعالجة الموضوعات الاجتماعية والسياسية التي أثارتها أحداث عام ١٩٠٨، وانصرفوا إلى الدعوة الحارة إلى الرقي والإصلاح إلى حد أنهم قد أهملوا الموضوعات الأخرى، وما أعمدة «حجاز» و«شمس الحقيقة»[٢] و«الإصلاح الحجازي» سوى دليل قوي يؤيد هذه الحقيقة.

لقد نشرت الصحف في هذه الحقبة كثيراً من المقالات الاجتماعية والسياسية، ولكن بعض المقالات التي نشرت في جريدتي «حجاز» و«شمس الحقيقة» كانت ذات قيمة أدبية ضئيلة بسبب ما اتسمت به من ركاكة في التعبير وضعف في التركيب اللغوي. ومن أمثلة ذلك مقالة الضابط حافظ محجوب الذي أراد أن يدعو زملاءه لكي يبذلوا الجهد في التمرين العسكري فكتب بأسلوب عامي أعجمي مسجوع قائلاً:

«أيها الإخوان إن السلك الجليل العسكري الذي نحن خادميه سلك جليل له صفة مقدسة، فلنبذل الجهد بحق في معرفة كنه هذه الصفة. فللّه الحمد لم يتصور في هذه الدنيا إنسان كما لم يكن يتمنى الترقي والتعالي، ومع ذلك لنعرف بأن ليس لنا وقوف على علم يتناسب بدرجات صنعتنا، ولكن

---

(١) انظر «الأدب الحجازي في النهضة الحديثة»، ص ٣٠.

(٢) صدرت جريدة «شمس الحقيقة» بمكة المكرمة في ١٣٢٧/١/٢٥ هـ (١٩٠٩/٢/١٦ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ينبغي لنا أن نفر وننفر من الذين كانوا سداً حائلاً ومنعونا من اقتطاف ثمار التحصيل، والورود إلى مناهل المعارف وعطلوا علينا كل التعطيل، مع أننا الحمد لله شبان قابلين للتحصيل في كل آن، نقرأ فنفهم ما قرأناه، ولنا اقتدار في التقرير على مقتضاه. . .»[1].

ويشبه هذا الأسلوب أسلوب مقالة أخرى بعنوان «الاجتماع» حلل فيها كاتبها الذي رمز لنفسه بالحرفين م. ر وظيفة التعاون، وعزا تفوق الإنسان على سائر الحيوانات إلى استعداده الفطري للتعاون مع بني جنسه. ويبدو المقال مهمًا من حيث المضمون، ولكن يتسم بالغموض والتعقيد لما فيه من تعبيرات متفلسفة غير واضحة، وتركيب لغوي غير سليم. وما الفقرة القصيرة التالية التي يكثر فيها الكاتب من استخدام التعبيرات المتفلسفة سوى مثال لذلك:

«أيها الإنسان المالك للفاعلية العظيمة الموهوبة انظر لنفسك المتشكلة من القوة المجسمة ترى أنك مقتدر لحل المشكلات الصعبة، وحائز لقوة تكون واسطة إجراء كافة الأمور المرئية، وترى أنك مالك لحاكمية كبيرة على الموجودات المخلوقة إذ لم تكن شيء متحصل من هذا الاجتماع، وأتيت إلى الميدان بتركيب العناصر فماذا تكون أنت؟ انظر إلى هذه الحكمة البارعة الإلهية، خلقك تكون درساً للاكتمال، وعرفك بنفسك، وأتى بك للميدان لتفهم وظائفك واحتياجاتك، فأنت محتاج لهذا الاجتماع لأجل الحياة، فإن كان تريد الحياة فتكون مجبوراً بإرادة الحرص والتهالك لهذا الاجتماع، فلأجل ذلك أقول: أمدد يدك إلى يدي، ولف وجودك بوجودي لنمزج أرواحنا ببعضها ولنذهب إلى منزل الكمال المقصود»[2].

---

(١) «حجاز»، عدد ١ (١٣٢٦/١٠/٨ هـ/ ١٩٠٨/١١/٣ م).

(٢) المصدر نفسه، عدد ٥٢ (١٣٢٨/٣/٢١ هـ/ ١٩١٠/٥/٢ م). رمز لكاتب المقال بالحرفين «م. ر» اللذين ربما كانا اختصاراً لاسم «م. راغب» الذي كتب في العدد ١٢٩ (١٣٣١/٦/١٦ هـ/ ١٩١٣/٥/٢٣ م) من جريدة «حجاز» مقالا يشبه هذا المقال من حيث الأسلوب.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وكما أصر محجوب على التزام السجع في مقالته السابقة، فإن هذا الكاتب قد لجأ كذلك إلى طريقة من تلك الطرق التقليدية، فاستخدم طريقة الحساب بالأحرف الأبجدية، حين اختتم مقالته بالجملة التالية: «الأحرار العثمانيون مسعودين» التي قصد بها في الحقيقة الإشارة إلى عام ١٣٢٦ هـ عام إعلان الدستور العثماني، وإبانة أن «لسان التاريخ» قد كان لسان فأل وبركة بالنسبة لجمعية الاتحاد والترقي. وإلى جانب ذلك فقد حرص الكاتب على أن يأتي في مقالته ببعض التعبيرات البيانية كمثل الاستعارة «فم الاحترام» التي وردت في قوله «فلأجل هذا واجب علينا أن تمدوا بعضكم يد التعاون اللايقة تقبيلها بفم الاحترام»، ولكن رداءة أسلوبه قد جعلت هذه التعبيرات خالية من عنصر الجمال. ومهما يكن، فإن عدم نجاحه في مثل هذا التعبير البلاغي أقل من خطئه في عدم مراعاة قواعد اللغة العربية كما في قوله: «في العثمانيون» و«الأحرار العثمانيون مسعودين». ومن كل هذا يتضح أن أسلوب المقال ركيك يغلب عليه طابع التعقيد والغموض، وأنه قد اصطبغ بصبغة العامية والعجمة.

ورغم ما في المقالين السابقين من أخطاء تعبيرية، فإنهما لا يخلوان ــ من حيث المضمون ــ من أهمية، ولا سيما إذا ما نظر إليهما بحسب زمنهما الذي كتبا فيه، فلقد حاول الكاتبان بث روح الإصلاح وفكرة التجديد وبذلك ساهما في توسيع ميدان النثر في هذه البلاد. إنه يحسن ألا ينظر إلى مثل هذه المقالات نظرة ازدراء بسبب رداءة أساليبها، ذلك أنها قد أنشئت في وقت كان فيه مجال النثر التقليدي ــ كما ذكر سابقاً ــ محدوداً جداً.

وقد نشرت صحيفة «شمس الحقيقة» عدداً من المقالات الاجتماعية السياسية التي تشبه هاتين المقالتين من حيث الأسلوب. ومن أمثلة ذلك مقالة بعنوان «ماذا يقول المؤيد اليوم؟» اتهم فيها الكاتب جريدة «المؤيد» المصرية بالتعصب ضد جمعية الاتحاد والترقي، وهاجمها حين بشرت بقرب

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

عودة عزت العابد ـ الذي عزله الاتحاديون ـ إلى استانبول ظافراً. وقد ندد الكاتب بعزت العابد، وتحيز «المؤيد» نحوه قائلاً:

«. . . فانظروا أيها القراء إلى إظهار عبوديته لعزة العابد، أما يستحي من هذا الكلام التي يخجل القلم أن يكتبه، بل تخجل العين أن تبصره، بل تخجل الأذن أن تسمعه؟

يا سعادة المؤيد، أكانت الأمة العثمانية بأسرها عمياء لا تبصرتها تلك الخدمة التي هي أشرف الخدم وأنت بصر، أكانت الأمة العثمانية لا ترى تلك الآثار الشريفة التي هي من أعماله وأنت رأيتها؟ يا سعادة المؤيد، هل حوكم عزت العابد بالمحاكم الشرعية والنظامية وثبتت براءة ساحته، ولم تعلم تلك المحاكمة الأمة العثمانية بل سكان البسيطة وأنت علمتها؟ أما يكفيك أنك أفتنت بين المصريين وحكومتهم، حتى أردت أن ترقي مرقى صعب، وترمي بأغراضك الشخصية إلى الحكومة العثمانية؟ فما يكفيك من عزة العابد تلك الرتب والنياشين التي نلتيها في الزمن الغابر، وبيع نصيف الأسهم عليه، فما تريد منه بعد ذلك؟ يا هل ترى أوعد بالممتاز المرصع، أو بالوزارة السامية؟ فياليته وصل الآستانة قبل الفتح الثاني لكنت رأيته مصلوباً مع إخوانه وأرحت نفسك من الزور»[1].

ولا يستطيع القارىء إلا أن يصف أسلوب هذا المقال بالرداءة وعدم التزام قواعد اللغة العربية. فلم يراع الكاتب هذه القواعد حين استعمل ـ مثلاً ـ الاسم الموصول «التي» بدلاً من «الذي» وعندما لم يعرب الصفة إعراب الموصوف في قوله «. . . أن ترقي مرقى صعب».

ولم تكن الكتابة النقدية في «شمس الحقيقة» مقصورة على الموضوعات

---

(١) «شمس الحقيقة» عدد١٢ (١٣٢٧/٤/١٤ هـ/ ١٩٠٩/٥/٥ م). رمز كاتب المقال لنفسه بالحرفين «ح. ب» وقد وصفته الجريدة بأنه أحد مشتركي جريدة «المؤيد» بمكة.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

السياسية بل إنها لتشمل كذلك بعض الشؤون المحلية كما في تلك المقالة التي تحدث فيها أحد كتابها عن بعض المواطنين الذين لا يعملون لمصلحة وطنهم، ولا يساهمون في مشاريعه الضرورية كمشاريع التعليم والماء، وقارن موقفهم بموقف الجالية الأوروبية في جدة التي ساهمت في مشروع الماء بسخاء. وقد أشاد الكاتب بشهامة الأوروبيين ووطنيتهم، واعتبرهم أمثلة للمواطنين الصالحين. ويذكر هذا الإطراء بما سبق أن أشير إليه في عدد من مقالات صحيفة «حجاز» من إعجاب بالأوروبيين وحضارتهم.

ويبدو المضمون هنا مهمًا من الناحية الاجتماعية، ولكن الأسلوب أقل قيمة بسبب ركاكة التعبير، وضعف التركيب اللغوي، كما في قوله:

«إن أشرف ما تتوج به جريدتكم الغراء... كلمة: حب الوطن من الإيمان. هذه كلمة دينية حكمية سياسية عرفوها المؤمنون وأهملوها، وحفظوها الأجنبيون فأيدوها. جعلوها شعارهم ودثارهم يحفظون بها أوطانهم ونحن أحق بهذا منهم. أما معنى الدينية منها، وهو ما يجب شرعاً أن يبر الإنسان وطنه وأهله، ويدافع عنهم بالروح والمال. ألا إنما المؤمنون إخوة لسلامة الوطن ورصافته ومتانته، إلى نهاية ما يكون وما يمكن الإنسان من حياته. وأما الأمور الحكمية وحكمة الأمور السياسية فكل إنسان لا يرضى أن ينسب إلى وطنه أو يصف أهله بالخمول والتحقير أو التقصير أو الكسل أو الفتور أو الوحشية، أو عدم التنبه بأهله لئلا ينسبوا تلك الأغنياء المتمولين به إلى عدم الغيرة والحمية،وهو ما يسقط شرفهم بين الأمم الراقية، لأنهم ألفوا تلك الطباع. إن الأوربيين والمتمدنين استورثوها، وسرت تأثيراتها فيهم بروحها الوطنية، وعلموا بابها فقصدوه، ومفتاحها بيد المتمولين ففتحوه، علموا سعادة البلاد وشرفها وراحة البلاد وترقيها، فتعاهدوا على المدنية، وخرجوا من الخمول إلى الهمة الحقيقية، والحياة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المعنوية. هذا شأنهم واضح لنا عياناً وهم ممن أفدوا الوطن بالأرواح والمهج. . .»[1].

ويشبه هذا النقد الاجتماعي ما ورد في مقال لأحمد رأفت الاسكندراني[2] كتبه عن حادثة قتل فيها ثلاثة من العمال الذين كانوا يعملون داخل الأرض في مشروع الماء بجدة. وقد عزا ما حدث إلى جهل المشرفين على المشروع وإهمالهم، وطالب بتعويض أسر المفقودين تعويضاً عادلاً[3]. وإن تبني قضية إنسانية كقضية أسر هؤلاء المفقودين لعمل نبيل، وجرأة محمودة، يحمدان للكاتب وللصحيفة التي فتحت أعمدتها لمثل هذه الموضوعات. ولكن أسلوب المقال لا يلقى ما لقيه المضمون من ثناء ذلك لأنه يتسم بالغموض وعدم مراعاة قواعد اللغة العربية.

□ ظهور الأدب الحديث في البلاد:

لقد تحدث أحمد العربي عن الأدب الحديث في المنطقة الغربية فحدد عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م)، بداية له، أما ما أنتج في هذه المنطقة من نثر قبيل هذا التاريخ فقد وصفه بعبارات قاسية حيث قال عنه بأنه لم يكن سوى «كتابات سقيمة المعنى، واهية السبك، ملتوية الأسلوب. .»[4]، وكذلك فعل عبد الله عبد الجبار الذي وصف النثر في الجزيرة العربية خلال هذه الحقبة بأنه «ركيك مسجوع»[5]. ورغم صعوبة تحديد تاريخ معين

---

(١) المصدر نفسه، عدد ١٢. رمزت الجريدة لكاتب المقال بالأحرف التالية: «م. ع. ر».

(٢) في عام ١٩٠٩ أسس الاسكندراني جريدة «صفا الحجاز» التي لم تعمر طويلاً.

(٣) انظر مقالة «أفعال العباد»، (شمس الحقيقة)، عدد ١٢.

(٤) مقالة «الأدب الحديث في الحجاز»، في كتاب «وحي الصحراء: صفحة من الأدب العصري في الحجاز»، جمع محمد سعيد عبد المقصود وعبد الله عمر بلخير، ص ٨٥.

(٥) «النهضة الأدبية في السعودية»، جريدة «المدينة المنورة»، عدد ٢٥٢، ١٣٨٤/٨/٢٩ هـ (١٩٦٥/١/٢ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

لبدء ظاهرة أدبية جديدة، فإن من الواضح ــ كما يبدو من المقالات التي درست في الصفحات السابقة ــ أنه من الممكن أن يعود المرء إلى الوراء قليلاً فيقترح سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م)، عام صدور جريدة «حجاز» بداية للأدب الحديث في هذه البلاد. وربما كان هذا التاريخ أكثر ملاءمة، إذ أن الفترة الهاشمية التي بدأت بعام ١٣٣٤ هـ ــ ليست من حيث حياتها الأدبية ــ سوى تطوّر واستمرار لما سبقها من نشاط أدبي وثقافي. أما عن النثر الأدبي الذي ظهر قبيل عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م) فإنه لا ينكر أن نقد العربي وعبد الله عبد الجبار ــ رغم ما فيه من تعميم وافتقار إلى الشواهد والأدلة ــ ينطبق على بعض ما أنتج في هذه الحقبة، ولكن من الجور في النقد أن يصدر مثل هذا الحكم العام على فترة أنشئت فيها آثار أدبية ذات جودة وأصالة كرسائل البيتي والكردي والشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ ومقدمة اللبني، وبعض المقالات التي نشرت في جريدتي «حجاز» و«الإصلاح الحجازي». إنه لا يجوز تجاهل مثل هذا الانتاج الأدبي، ونبذه مع غيره من نصوص أدبية ليست بذات قيمة فنية، بل يجب أن يقدر هذا الانتاج الجيد بحسب قيمته، وأن يكون الحكم عليه معتمداً على دراسة علمية لنصوصه. ومهما يكن، فربما كان العربي وعبد الله عبد الجبار غير شاعرين بوجود مثل هذا الانتاج الأدبي القيّم عندما أطلقا أحكامهما العامة الجارفة.

وتلخيصاً لما سبق، فإنه من الممكن أن يقال بأن بعض نصوص النثر التقليدي لا تخلو من قيم فنية مهمة، ولكن معظم هذا النثر ليس سوى استمرار لتقاليد النثر في عصور الضعف الأدبي. وبما أن كتّاب هذا اللون من النثر لم يكونوا ميّالين إلى نظريات الأدب الحديث، فقد اتجهوا إلى الأدب القديم يستوحون نماذجه ويحتذونها. أما النثر الأدبي الذي ظهر بظهور الصحافة، فإنما يمثله فن المقال الذي كان جديداً بالنسبة لأدب هذه البلاد في تلك الفترة. وإن المحاولات الأولى التي قام بها الكتّاب في إنشاء

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المقالة لتدل على تأرجحهم بين التقاليد الأدبية القديمة، والمفاهيم الأدبية الحديثة، ذلك لأنهم كانوا يستخدمون أساليب تقليدية تحفل بالسجع والمحسنات البديعية والتعبيرات الخطابية على حين كانوا يجربون فناً أدبياً جديداً ويعالجون مواضيع حديثة.

ورغم كون المقالة في هذه الفترة ذات موضوع محدود، فإنها تعتبر بداية عهد جديد في تاريخ الأدب في هذه البلاد ذلك أنه بينما كان محمد نووي وبكري شطا يعرفان الأدب بحسب نظريات عصور الضعف الأدبي، كان كتّاب المقالة يهاجمون هذه المفاهيم، ويتبنون أفكاراً عصرية جديدة، وبينما كان أبوبكر خوقير يحث الكتّاب على تأليف المقامات والمفاخرات كان كتّاب المقالة يعالجون الشؤون الاجتماعية والتعليمية، ويحاولون أن يشربوا قراءهم حب حضارة هذا العصر وأدبه. إن كتاب الطائفة الأولى يمثلون التقاليد الأدبية التي انحدرت إليهم عبر القرون، أما كتّاب الطائفة الثانية فقد حاولوا أن يطوّروا هذه التقاليد، وجهدوا في أن ينعشوا الأدب في بلادهم، وأن يطعموه بالأفكار العصرية، والنظريات الحديثة.

□ المقالة الصحفية من عام ١٩١٦ حتى عام ١٩٢٤:

لم يكن النثر الذي أنتج في المنطقة الغربية خلال العهد الهاشمي سوى انعكاس للأحوال السياسية المضطربة التي عاشت هذه المنطقة حينئذ في ظلها، ولا سيما أن معظمه قد نشر في صحف كانت مشغولة آنذاك بعدد من القضايا السياسية المهمة. ورغم أن سماته الفنية لم تكن واضحة، وأن الطابع الصحفي السياسي قد غلب عليه، فإنه كان عاملاً من العوامل التي أثرت في الحركة الأدبية التي برزت بعد أقل من عقدين من الزمن، كما أنه يمثل الجزء الأكبر من الانتاج الفكري في هذه الحقبة.

لقد كان معظم المحررين في صحف العهد الهاشمي ــ عدا جريدة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

«بريد الحجاز» التي لم تعش طويلاً ــ كتّاباً عرباً من غير أبناء الجزيرة العربية، وفي الحقيقة إن ما أسهم به هؤلاء المحررون يؤلف جزءاً كبيراً من الانتاج النثري في هذه الفترة. وربما قال قائل بأن هؤلاء الكتّاب الذين عاشوا في مكة والمدينة مدة معينة وكتبوا في صحفها كفؤاد الخطيب ومحب الدين الخطيب وأحمد شاكر الكرمي وعمر شاكر وبدر الدين النعساني لم يكونوا إلّا كتّاباً سوريين ولبنانيين، وأن ليس من حق البلاد المقدسة أن تعتبر إنتاجهم هذا جزءاً من أدبها. وقد يبدو هذا القول معقولاً، ولكن إذا ما تذكر المرء أن هؤلاء الكتّاب إنما كانوا يعالجون شؤون هذه المنطقة ويحررون صحفها، وأن النشء الجديد في مكة والمدينة وجدة قد تأثر بطرقهم في التعبير والتفكير[1]، فسيجد أن إنتاجهم إن لم يكن جزءاً من نثر هذه المنطقة، فإنه ذو صلة وثيقة بتراثها الأدبي.

ولم يزدهر من أنواع الأدب في هذه الفترة المضطربة سوى فن المقال الذي سيطر على أعمدة الصحف الهاشمية، وما كان هذا المقال ذاتياً، بل كان سياسياً حماسياً. ولعل أبرز الخصائص التي اتسمت بها المقالة الهاشمية تتمثل في تلك المقالات التي حفلت بها جريدة «القبلة» أهم الصحف في هذه الحقبة.

لقد افتتح محرر جريدة «القبلة» العدد الأول من صحيفته بمقالة عنوانها «كلمة للجريدة»[2]، وحاول أن يوضح فيها الأسباب التي دعت الشريف حسيناً إلى الخروج على جمعية الاتحاد والترقي التركية، ولكنه كان

---

(١) لتقدير مدى هذا التأثر انظر عبد الله عبد الجبار، كتابه السابق، ص١٣٦؛ وأحمد علي، مقالة «من تاريخ الصحافة السعودية» مجلة الحج، عدد ٥ (ذو القعدة ١٣٨٣ هـ/ مارس ١٩٦٤ م). ومحمد عمر عرب، مقالة «التطورات التي سبقت نشوء الأدب في الحجاز»، مجلة المنهل، مارس ١٩٤٦.

(٢) انظر جريدة «القبلة»، عدد ١ (١٣٣٤/١٠/١٥ هـ/ ١٩١٦/٨/١٥م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

يعلن في الحقيقة ظهور المقال السياسي في شكله الحماسي الحربي الجديد الذي قدر له أن يسود المسرح الأدبي خلال الأعوام الثمانية التالية. لقد اختار المحرر لمقالته هذه أسلوب الخطبة التقليدي، حيث بدأ بمقدمة خطابية مسجوعة، ثم انتقل إلى موضوع الحديث مستخدماً تلك الصيغة الخطابية «أما بعد». وقد كانت مخاطبته لعواطف القراء أكثر مما خاطب به عقولهم، كما أن اهتمامه بالمحسنات الأسلوبية قد فاق عنايته بإيضاح وجهة نظره.

ولكي يستأثر المحرر بعواطف القراء فقد لجأ في مقالته هذه إلى المبالغة في تصوير خطر الخصوم، واستخدام أساليب التهويل كما في الجمل والعبارات التالية: «طوارق الحدثان. بوائق الزمان. لهوات الموت. مخالب البوار. تباح محارمهم. تباع أمصارهم. تجدع أنوفهم. سددوا خناجرهم إلى نحر كل ناصح. شهروا سيوفهم في وجه كل صالح. اضطرب حبل الأمن وماج تيار الضلالة».

كما أنه أكثر من استخدام الكلمات والتعبيرات الشاعرية الخطابية الرنانة مثل: «قد. إن. لعمري. ولكن مهلاً فلا صبر اليوم. وآأسفاه. فوالله. أجل. أما والله. ولكنهم لا در درهم. فسلام عليه يوم يسود ويوم يرد على الإسلام مجده».

ويتسم أسلوب هذه المقالة بالإطناب والتكرار، ذلك أن كل جملة قد أتبعت في الغالب بجملة أخرى تعبّر عن معناها. ولأن الكاتب قد مال إلى الاعتماد على سحر الكلمة وتأثير الزخرف اللفظي، فقد جنح إلى استخدام السجع، وحرص على أن يوجد توازناً موسيقياً بين العبارات والجمل.

ورغم أن أمارة الصنعة والتكلف قد بدت على ما في هذه الافتتاحية من مهارة أسلوبية، فإن الافتتاحية قد احتفظت بشيء من الرونق والبهاء، ذلك أن أسلوبها الحماسي المشرق الجزل جاء ملائمًا لموضوعها الجدلي

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الجاد. وقد تأثر أسلوب المقالة كثيراً بأسلوب القرآن الكريم، وأساليب الأدب العربي العريق، إذ استخدم الكاتب الاقتباس ولجأ في كثير من الأحيان إلى تقليد أسلوب بعض الآيات الكريمة مثل قوله:

«أخذتها العزة بالإثم. وتلك كتبهم شاهدة عليهم. وزرعوا بينهم العداوة والإحن. أعداؤهم من خلفهم ومن بين أيديهم. فسلام عليه يوم يسود ويوم يرد على الإسلام مجده».

كما أن الكاتب كان يقتبس أحياناً بعض الأمثال والتعبيرات الخطابية القديمة مثل قوله: «اختلط الحابل بالنابل. لا در درهم. مهلاً فلا صبر اليوم. لعمري. أما والله».

ويبدو أن محرر جريدة «القبلة» لم يستخدم في افتتاحيته هذه أسلوباً صحفياً موضوعياً، بل لجأ إلى الأسلوب الخطابي الأدبي العاطفي، كما أنه لم يول مضمون المقالة ما أولى أسلوبها من زخرفة وتحبير.

ولعل من الممكن أن يقال بأن جريدة «القبلة» لسان حال الشريف حسين كانت تعبّر عن مشاعره الخاصة نحو الأحداث السياسية التي تلت صراعه مع الأتراك. فعندما كان جنوده يتابعون سيرهم شمالاً نحو الشام أخذت جريدة «القبلة» تصوّر آمالهم، وتبشر بانتصارهم، وحينما دخلوا دمشق ظافرين، ونصبوا فيصل بن الحسين حاكمًا على الشام راحت الجريدة تنشر الكلمات التي تعبّر عن فرحها وبهجتها. وما تلك المقالة الافتتاحية «ظلال الآمال» التي نشرت خلال الأشهر الأولى من عهد الهاشميين القصير في سوريا سوى إطراء للنفس، وتمجيد للعرب ولغتهم، وفخر بماضيهم العريق، وتبشير بمستقبلهم الزاهر. ولقد كان في نغمة الكاتب شيء من الكبرياء والرضا عن النفس يشبه ما يبديه الجندي المنتصر الذي لا يجد إبان نشوته ما يعبّر به عن فرحته سوى الفخر بأعماله، والاستبشار بمستقبل بلاده الذي يراه في لحظة تفاؤل له مشرقاً زاهراً.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ورغم أن كاتب الافتتاحية قد تغنّى بالنصر، إلّا أنه لم يستخدم الأسلوب الحماسي الذي سيطر على أعمدة الأعداد الأولى من جريدة «القبلة»، ولعل احتفالات النصر قد ملأت نفسه بالنشوة، فأتى أسلوبه متسمًا بالنغم الموسيقي، والتصوير الشاعري. وربما كان في الفقرة التالية ما يوضح الأسلوب الأدبي التخيلي الذي اختاره المحرر لهذه المقالة الافتتاحية حيث قال:

«إذا اعتلى العربي اليوم نشزاً من الأرض عالياً، أو أطل من ذؤابة علم أو قنة جبل ثم أخذ ينشد الكون الصامت قصيدة مجده البراق العتيق، ويتلو على الوجود الساكن صفحة غراء من كتاب فخره العريق، أصغت لأناشيده الكائنات، كما كانت الخلائق تصغي لمزامير داود، وأنصتت له الموجودات كما ينصت الجوي الملتاع لسماع عبقري التغريد. ذلك لأن صحيفة تاريخ العربي أنقى من وجنة الشمس، ليس فيها إلّا روائع تقصر دونها الأفهام، وبدائع تحار فيها الألباب والأحلام، تستهوي أفئدة السامع وتستأثر بإعجابه، وتملأ فراغ نفسه ومواطن إطرابه. فلا والله ما هاروت ينفث السحر بأبرع منها وأقدر على اصطياد قلوب المنصفين، وامتلاك مشاعر نصراء الحق والعدل بين الناس أجمعين»[1].

ولم يكن السجع أبرز الخصائص الأسلوبية في هذه المقالة، ولكن كانت الاستعارة أبرزها وأشدها وضوحاً. ولكي يتبيّن شغف المحرر باستخدام الاستعارة، فسأقتبس الفقرة القصيرة التالية التي صيغت كلها بتعبيرات مجازية، حيث قال: «لقد طلع فجر الآمال، وسالت أضواؤه في شعاب النفوس، وانبثق نور الأماني، وفاض لألاؤه على مسالك الأفئدة وثنايا القلوب، وطفح البشر على الوجوه وجال فيها ملؤه الرقراق، فيا له من زمن بسمت فيه الأيام، وضحك سن الليال...».

---

(١) المصدر نفسه، عدد ٢٧٠، (١٣٣٧/٧/٢ هـ = ١٩١٩/٤/٣ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وربما كان شغف الكاتب باستخدام الاستعارة نابعاً من ميله القوي إلى إبداع الصور الكلية التخيلية، ولا سيما أن الاستعارات التي يصوغها لا توجد علاقة المشابهة بين أشياء مفردة فحسب، ولكنها تحاول تصوير معان مجردة مفصّلة، وذلك كمثل قوله حينما شبه صمود العرب إزاء الأحداث بالصخرة الصماء أمام الأمواج العاتية:

«لقد بقيت الأمة العربية تحت عوامل الاستبداد زمناً طويلاً، ولكن ذلك لم يكن ليضير جوهرها أو يحيل حقيقتها. وما كانت أعوام الاستبداد ــ على مرارتها ــ لتؤثر في خصائص القوم النجيب، اللهم إلّا كما يؤثر الموج المصطخب في الصفا الصلد، يجمع قوته، ويؤلف متفرقها، ثم يندفع في سبيله ويضرب ضربته، فلا يلبث أن يرفض ويتمزق، ويعود ذليلاً خجلاً يكسو وجهه برقع من بياض الزبد الطافي حتى يتوارى في أعماق المحيط. أما الصخرة الشماء فتزيد لألاء وإشراقاً، وتظل شامخة الرأس، عالية الأنف، تهزأ بالآذي، وتزري به».

ولم تمض عدة أشهر على دخول فيصل بن الحسين دمشق حتى بدأ الشقاق بين الحسين بن علي وبعض الهيئات السورية. فعندما عرضت القضية السورية على مؤتمر الصلح في فرساي أبدى بعض السوريين امتعاضهم من أن تربط ديارهم ببلاد الحجاز التي اعتبروها بلداً قبلياً يقل تقدماً عن وطنهم[1]. ولم يورث هذا الجدل الخيبة في نفس الحسين فحسب، بل أثر في جريدة «القبلة» كذلك فصارت ذات نظرة إقليمية محدودة، وأصبحت تميل إلى استخدام أسلوب المفاخرة والمجادلة الذي اتخذه المنشقون من قبل.

(١) انظر: جريدة «القبلة»، عدد ٢٨٠ (١٣٣٧/٨/٨ هـ = ١٩١٩/٥/٩ م). وانظر كذلك عبد الكريم الأشتر، «النثر المهجري: المضمون وصورة التعبير»، ص ١٤٥ ــ ١٤٨.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وقد بدأت جريدة «القبلة» بعد هذا تعير الشؤون المحلية قسطاً كبيراً من اهتمامها، وأصبحت تفاخر بنقاء أصول أبناء الجزيرة العربية. وقد يخيل للقارىء أن الافتتاحية التي نشرتها الجريدة حينئذ بعنوان «الحضارة أم البداوة» ليست إلّا حديثاً عن لونين من ألوان الحياة، ولكن إذا ما تذكر المرء أن فئة من السوريين قد أبت الارتباط بالحجاز وعرضت ببداوته، فإنه سيجد أن هذه المقالة جزء من جدل سياسي كتب دفاعاً عن النفس إزاء تنقص المتنقصين. ومما يعزز هذه النظرة أن الافتتاحية قد عمدت إلى إبراز محاسن البداوة، وإظهار مساوىء الحضارة، ولعل تلك العبارة التي اختتم بها الكاتب مقالته حين قال: «إن الشر كل الشر في التمدين والحضارة، وإن الخير كل الخير في البداوة» تلخص رأيه في الموضوع، وتصور وجهة نظره المتشائمة، وتعبر عن شعور عميق بالخيبة. ولكي تتبين الطريقة العاطفية الجدلية التي عالج بها المحرر هذا الموضوع، فإني سأورد فيما يلي بضع فقرات من هذه الافتتاحية:

«إذا أجلنا النظر في البادية وسكانها وصحة أجسامها وكرم أخلاقها ومحافظة أنسابها واجتنابها عن الذل والهوان وما يشين سمعتها اعترفنا لها بتلك المزايا وظهر لنا مكانتها في مستوى عالم المجموع البشري التي لا يمكن لأحد أن ينكرها.

قال المسعودي: رأت العرب أن جولان الأرض وتخير البقاع على الأيام أشبه بأولي العز، وأليق بذوي الأنفة... فآثرت العرب سكنى البوادي، والحلول بالبيداء، فهم أقوى الناس همًا، وأشدهم أحلاماً، وأصحهم أجساماً، وأعزهم جاراً، وأحماهم ذماراً، وأفضلهم جوداً، وأجودهم فطناً لما أكسبها صفاء الجو ونقاء الفضاء، لأن البدن تحتمي أجزاؤها على متكاثف الأكدار، لما يرتفع إليه ويتلاطم في عرصاته، ولما وافقه من جمع المستحيلات والمستنقعات من المياه، ففي أكنافه جميع

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ما يتصعد إليه، ولذلك تراكبت الأقذاء والأدواء والعاهات في أهل المدن، وتركبت في أجسامهم، وتضعفت في أشعارهم وأبصارهم. ففضلت العرب على سائر من عداها من بوادي الأمم المتفرقة بما ذكرنا من تخيرها الأماكن، وارتيادها المواطن.

هذه الحقائق التي ذكرها المسعودي نراها كافية وافية لإثبات مزايا البداوة، ولا نظن أن من كان له مسكة من العقل يرتاب فيها.

كما اعترفنا بهذا نعترف أيضاً بمزية الحضارة وما لها من بدائع المخترعات والتفنن في سائر العلوم والصناعات، لأنها تظهر ما خوله الله تعالى للنوع الإنساني من المزايا والكمالات. لكن بشرط أن يستفيد المجموع من تلك البدائع والمخترعات، لا لأجل أن يتضرر منها ضرراً بليغاً لا يمكن تلافيها إلّا بعد مضي عدة من السنوات كما وقع في إبان هذه الحرب الضروس من الأمة الألمانية، فإنها بذلت كل مجهوداتها في استعمال جميع ما أنتجته الحضارة من الآلات الأثيرية والمخترعات الميكانيكية والجوية في إرهاق عشرات الملايين من النفوس قتلاً وجرحاً وتعطيلاً وأسراً...

إذا كانت نتائج الحضارة والمدنية الحديثة هذه الفظائع والكوارث، فلا حاجة لنا بها وبقصورها الشامخة ومعالمها الباذخة، فيجدر بنا أن نقول: إن الشر كل الشر في التمدين والحضارة، وإن الخير كل الخير في البداوة، ونتمثل بقول القائل:

لبيت تخفق الأرياح فيه أحب إلي من قصر مشيد»[1]

ورغم أن هذه المقالات التي تناولها البحث في الصفحات السابقة وعدداً آخر غيرها من افتتاحيات جريدة «القبلة»[2] قد أنشئت لغرض

(١) «القبلة»، عدد ٣٣٢، (١٣٣٨/٢/٢٣ هـ = ١٩١٩/١١/١٧ م).

(٢) انظر مثلاً افتتاحيات الأعداد التالية: ٢ و٣ و٥ و٤٦ و٢٨٠ و٣٠٨ و٤٩٧ و٧٥٤.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

سياسي مباشر، فإنها لم تكن سجلاً للأحداث الجارية، أو تعليقاً عليها فحسب، بل إن فيها ما يصور النفس البشرية وقد نشيت من الآمال، أو أصيبت بالفشل وخيبة الأحلام. فإذا كانت هذه المقالات نتاجاً مباشراً لحاجة سياسية، فإن ما تلونت به من لون ذاتي، وما شاع بين أسطرها من عنصر عاطفي قد جعل لها شيئاً من القيمة الأدبية، وصيّرها ذات وحدة موضوعية نفسية تشبه تلك التي توجد في الأثر الأدبي الواحد.

وتعتبر جريدة «القبلة» أهم مصدر لهذا اللون من النثر السياسي الحماسي، ولكن كانت هناك صحف أخرى تعكس كذلك روح هذه الفترة المضطربة مثل جريدة «الحجاز» التي أصدرتها السلطات التركية في المدينة المنورة عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م)، والتي كانت تمثل الجبهة المناوئة للهاشميين في الحجاز. وبما أن جريدة «الحجاز» قد ظهرت في مدينة محاصرة، فإن من الواضح أن موضوع الحرب كان أهم ما ناقشته من موضوعات، وأنها قد تبنت وجهة نظر تخالف تلك التي تبنتها جريدة «القبلة». فإذا كانت صحيفة «القبلة» قد أشادت بالحلفاء الغربيين خلال الحرب العالمية الأولى. وهاجمت أعداءهم، فإن جريدة «الحجاز» قد فعلت عكس ذلك. وما تلك المقالة الافتتاحية التي نشرت بعنوان «نحن والعالم»[1] سوى مثال للمقالات الدعائية التي دأبت جريدة «الحجاز» على نشرها، والتي تصوّر ألمانيا وحلفاءها بصورة أناس مسالمين فرضت عليهم الحرب فرضاً. ولعل ما اتسمت به هذه المقالة من نغمة شاكية أثر من آثار ذلك القلق الذي أحس به الكاتب عندما انضم الأميركيون إلى الحلفاء الغربيين، حيث أصبحت ألمانيا تجابه معظم أمم الأرض.

وليست القضية التي يتناولها الكاتب هنا قضية تخص أهل المدينة

(١) وقعت الافتتاحية بتوقيع «بدر الدين» الذي يبدو أنه الاسم الأول لبدر الدين النعساني الذي كان حينئذ محرراً في جريدة «الحجاز».

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المنورة، ولكنها قضية الحرب عامة، ولذلك فإنه لم يتحدث بلسان الأتراك فحسب، بل تحدث كذلك بلسان الألمان وحلفائهم، ودافع عن قضيتهم دفاعاً حاراً. ولقد كان ما أبداه الكاتب من حماس عاطفي في دفاعه وهجومه عاملاً من العوامل التي أضفت على المقالة مسحة ذاتية، وجعلتها ذات صبغة أدبية. وربما كان في الفقرة التالية ما يبيّن هذه الخصائص الأسلوبية والموضوعية، حيث قال المحرر:

«ليفعل الإنكليز ما شاؤا، وليؤلبوا علينا من الأمم من استطاعوا جلبه إليهم، فقد أعددنا للقائهم من سلاح ماض وعزيمة قوية، وعقيدة راسخة، ونفوس أبيه، ما لا يزيده طول الحرب، واشتداد اليأس، واستحكام الضيق إلاّ مضاء وقوة ورسوخاً وإباء. ثم إنا لنرجو من مساعدة الإله العادل الذي تكفل بنصرة المظلومين، والدفاع عن المهضومين، ما نرجو لهم ضده من خذلان، وقهر وتدمير لأنهم ظالمون غاصبون.

إذا كان الإنكيز وأحلافهم لا يريدون أن تضع الحرب أوزارها إلاّ على ألا يبقى للأسطول الألماني، ولا للوحدة الجرمانية اسم، ولا للوحدة السياسية في النمسا ذكر، وإلاّ على أن تكون الأمة البلغارية تحت سيطرة صربيا وقهر الجبليين، وإلاّ على إخراج الدولة العثمانية من دار الخلافة الإسلامية، وسحق الجامعة الإسلامية، وأخذ مفاتيح الكعبة لتبقى في يد القساوسة والرهبان، لا في يد أهل التوحيد والإيمان، فنحن لا نريد أن تطوى صحيفة هذه الحرب إلاّ بعد تحطيم شوكة الائتلافيين، وأخذ الضمانات الكافية على الاعتراف لنا بحقوقنا وعدم التعرّض لشيء من شؤوننا الداخلية والخارجية. والله ولي الصابرين»[1].

ومن الواضح أنه لو لم تتسم هذه المقالة بشيء من جمال الأسلوب،

(١) «الحجاز»، عدد ١٠٥ (١٣٣٥/٦/١ هـ = ١٩١٧/٣/٢٥ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وبلاغة التعبير، لاعتبرت مقالة دعائية في موضوع كثر ترداده، وطالت معالجته. ولعل هذه الحقيقة قد دعت المحرر إلى استخدام الأسلوب الأدبي في مجال التحرير الصحفي. ولقد أفاد الكاتب كثيراً مما أمده به قاموس اللغة العربية الثري في ميدان الأدب الحماسي والخصومات الأدبية.

وإلى جانب جريدتي «القبلة» و«الحجاز» وجدت صحيفة ثالثة كانت أعمدتها ميداناً للمقالات السياسية الحماسية، تلك هي جريدة «الفلاح» التي أصدرها الصحفي السوري عمر شاكر بعد هجرته إلى مكة المكرمة عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠م). وكانت هذه الصحيفة مشغولة حينئذ بقضية احتلال فرنسا لسوريا، كما أنها كانت في الحقيقة أداة للتعبير عن مشاعر محررها الذي عاش في الغربة منذ أن حكم عليه الفرنسيون بالإعدام. ولقد اتسمت مقالاتها بالحماسة والاستثارة العاطفية، كما تميز أسلوبها بالإشراق والوضوح والتأثر القوي بطرق التعبير الأدبية الجزلة[1].

أما وقد نوقش في الصفحات السابقة عدد من المقالات الصحفية التي نشرت في جرائد الفترة الهاشمية، فإن باستطاعة المرء أن يقول بأن بعضها لم يكن مقالات دعائية تزول بزوال ظروفها، ولكنها كانت ذات قيمة فنية أنقذتها من أن تضيع في عالم النسيان، وجعلتها مصدر متعة أدبية. إن عدداً من هذه المقالات الصحفية جزء من التراث الأدبي ما دامت تعبر عن مشاعر من أنشأوها، وتصور أحاسيس من كتبت عنهم، وما دام أن أسلوبها لم يكن أسلوباً صحفياً موضوعياً، بل كان أدبياً ذاتياً. لقد صورت هذه المقالات النفس البشرية في حالي البهجة والحزن، واستطاعت أن تثير مشاعر القارىء وتحرك عواطفه.

---

(١) انظر مثلاً مقالة «الحجاز وسوريا»، جريدة «الفلاح»، عدد ١ (١٣٣٨/١٢/٢٤ هـ، ١٩٢٠/٩/٨م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

□ المقالة الأدبية:

ورغم أن المقالة السياسية قد سيطرت ــ إلى حد كبير ــ على مسرح النثر الأدبي في هذه الحقبة، فإن الموضوعات الأخرى قد شغلت حينئذ جزءاً من أعمدة الصحف، ولكن لا عجب إن اصطبغت هذه المقالات الأدبية ــ إبان الحرب ــ بالصبغة السياسية، واتسمت بشيء من سماتها. فعندما كتب فؤاد الخطيب ــ الذي حرر عدداً من الافتتاحيات السياسية في جريدة «القبلة» ــ مقالة نقدية عن «اللغة العربية والعرب»[1] لم يتخلص في الحقيقة من تلك النزعة السياسية الحماسية التي تميز بها هذا الجيل من الكتاب، ولا سيما أنه قد كتب هذه المقالة افتتاحية لجريدة «القبلة»، ونشرها في وقت قام فيه الصراع على أشده بين الشريف حسين والسلطات التركية.

ومع أن الشاعر الكاتب فؤاد الخطيب ــ الذي نشأ نشأته الأولى في لبنان ــ ليس في الحقيقة مقياساً للمستوى الذي بلغته الكتابة الأدبية في مكة وجدة والمدينة حينئذ، إلا أن إنتاجه الأدبي الرائع الذي أنشأه في مكة قد أثر تأثيراً كبيراً من حيث طريقة التعبير ووجهة النظر الأدبية في شباب هذه البلاد الذين برزوا على المسرح الأدبي فيما بعد. كما أن في مقالته هذه ما يلقي الضوء على المفاهيم الأدبية التي حاولت جريدة «القبلة» بثها والدعوة إليها.

لقد حرص فؤاد الخطيب على أن يشيد في مقالته هذه بفصحاء العرب القدامى، وحاول أن يستنهض همم أحفادهم كي يقتفوا آثارهم، ويحافظوا على لغتهم. ومن الواضح أنه لم يأت بجديد في هذا الموضوع الذي أكثر الكتاب حينئذ من معالجته، ولكن الإبداع قد تجلى في الطريقة

---

(١) جريدة «القبلة» عدد ١٤ (١/١٢/١٣٣٤ هـ، ٢٩/٩/١٩١٦م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

البارعة التي عبر بها الكاتب عن أفكاره، والأسلوب التخيلي التصويري الذي استخدمه لإقناع القارىء بوجهة نظره. ورغم أنه قد انساق في تعداد محاسن اللغة العربية، وأكد تميزها على سائر اللغات السامية، وباهى اللغات العالمية الحديثة بسعة انتشارها، فإنه لم يبدُ متعصباً في تبيان آرائه، ذلك أن جمال الأسلوب قد أضفى على المقالة جواً من السماحة والهدوء، وجعلها قادرة على الإقناع العاطفي. فحينما قارن ما امتلكته اللغات الحديثة من وسائل الاتصال القوية وطرق الانتشار البارعة بتلك الوسائل البسيطة الناجحة التي اتخذتها اللغة العربية قال:

«أجل إن السيف الباتر والجبروت القاهر والمكاتب المتماوجة بالزحام والمدارس المكتظة بالطلاب والصحف الذائعة في الآفاق والوفود الضاربة في الأصقاع لم تحول لغة عن أصلها، ولم تجذب أمة بحبلها، فأين ذلك مما وقع للعربية مع تلك الشراذم البدوية، فإنها لم تنهب الأرض في قطار ولم تجزع الفضاء في منطاد ولم تمخر البحار بالبخار، بل جابت المسارح ورادت المكامن وطافت المجامع، فولجت كل مصر وسكنت كل نفس وقالت لكل شيء: حسبك فإنك عربي منذ اليوم».

ويستمر الكاتب في استخدام أسلوب المقارنة، واتخاذ تلك النغمة التي تعبر عن الحنين إلى الماضي، حينما يقارن فصاحة العرب القدامى بأساليب أحفادهم الكسالى فيقول:

«اللهم سبحانك، أينطق العربي بالحكمة الناصعة ويهتف بالقافية الرائعة، فتكاد لحلاوة أبياتها تقبل أفواه رواتها، وهو في ذلك المنقطع من الأرض يهيم في ظلمات بعضها فوق بعض. إذا مشت عيونه ففي صميم القفر، وإذا وقفت به فعلى أديم الصخر، فلا يزال في الوجود كالمثل الشرود، تتلقفه الأقطار وتتخطفه الأسفار. فمن هضاب يحوم فيها كالعقبان إلى بطاح يعمل فيها كالسيدان، ومن مجالدة زعزع نكباء تنسف التلال، إلى

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مكابدة هاجرة سجراء تأكل الظلال. فما ثم مرتع شائق فيستمد من جماله البيان، وما ثم مورد رائق فيمتح من عذبه اللسان، وإنما هي أرجاء عابسة وبيداء طامسة، تجول فيها الأفكار فتكل، وتدور فيها الأبصار فتضل.

فسلام على تلك الجزيرة الجرداء، ومرحى لتلك المجاهل الخلاء، فوالله ما تعوزها الرياض مبثوثة الزرابي والأنماط، ولا الحقول مبسوطة البرود والرياط، ولا النمير يترقرق على حصباء تتألق. فقد نبتت فيها حسنات الزمان، وتفجرت منها ينابيع العرفان، فغنيت بنضرة الآداب عن بهجة الأعشاب، وبكمال السكان عن جمال المكان. بل كانت مسبح الروح الأمين، وموئل الدنيا والدين فتبارك الله أحسن الخالقين. فأي نياط لا يتقطع، وأي مهجة لا تتصدع، فقد أودى أولئك الكرام، وتنكرت تلك الأيام، حتى تبازى الرهام واستنسر الحمام، ولم يبق غير أمة مكسال لا تتحرك إلا بزلزال، ولا تقطع من أشواط الدهر إلا مسافة العمر من القبر. فأين بنو قحطان وفتيان عدنان، فيهبوا بالنفوس من غمرتها وينهضوا باللغة من كبوتها؟ فتلك مفاخر بلادهم ومآثر أجدادهم ملء الأنجاد والأغوار وطلاع الدفاتر والأسفار. وإنها لتطوي بالمرء مراحل العصور والأجيال وتطل به على عالم الحقائق من ملكوت الخيال».

ولعل هذه الأسطر التي تصور شعراء العربية الأوائل وهم يبدعون الآثار الأدبية الرائعة في ظل صحرائهم الجرداء الموحشة من أجمل الصور التي حاولت وصف إبداع هؤلاء الفصحاء. وتدين هذه الفقرات بما فيها من سحر ومتعة إلى ذلك الأسلوب الشجي الجميل الذي صور به الكاتب حبه لأجداده، وحنينه إلى الماضي. ولقد أبدى مهارة فنية في انتقاء أكثر المشاهد الطبيعية قدرة على التأثير والإيحاء. وقد التزم الكاتب استخدام السجع في مقالته هذه، ولكن ما يحمد له أنه استعمل هذا العنصر الموسيقي ببراعة أبعدت المقالة عن الرتابة التي يحدثها ــ عادة ــ ذلك النوع المتكلف من السجع.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وقد حفلت المقالة بالصور المبدعة التي أضفت على الموقف جمالاً فنياً أخذ يشع بين السطور، وذلك كمثل تصويره لما كابده العرب الأوائل في صحرائهم من «هاجرة سجراء تأكل الظلال»، ومثل قوله ساخراً من عرب اليوم الخاملين: «. . . ولم يبق غير أمة مكسال، لا تتحرك إلا بزلزال، ولا تقطع من أشواط الدهر إلا مسافة العمر من القبر».

إن من الواضح أن فؤاد الخطيب قد ألحت عليه الرغبة هنا في أن يدافع عن اللغة العربية، ويدعو إلى إحيائها، ولكن لأنه قد آلمه ما وصلت إليه هذه اللغة من انحدار على أيدي أبنائها، فقد استجاب لميوله الأدبية، وخص النصف الأول من مقالته للتعبير عن خواطره التأملية وحنينه إلى الماضي، ولم ينظر إلى الماضي القريب حيث كان العرب مستضعفين، ولكنه أخذ يرنو إلى الماضي البعيد أيام كانوا في قمة مجدهم، وناشد الأدباء أن يحيوا هذه الحقبة قائلاً: «ألا وإنه لمن البر بالأدب والغيرة الصادقة على العرب، أن ينسج المتأدب على منوال الفصحاء، ويطبع على غرار البلغاء، فذلك تاريخ آبائنا يصيح بنا من ورائنا، وكله دموع تترى لا ألفاظ تتلى».

وإن كل سطر من أسطر هذه المقالة لدليل على إيمان فؤاد الخطيب بتقاليد الأدب العربي القديم، ولكنه لم يكن داعية تقليد وجمود، بل كان أديباً مبدعاً يخلع على النظرات النقدية القديمة لباس الجدة، ويبرز جمالها ويوسع من آفاقها كمثل قوله:

«أما والله لولا تنطس بعض المتزمتين وسدهم على اللغة أبواب التعريب والاشتقاق فحجروها في الحواشي وأقبعوها في المتون، لما ازور الطلاب عنها وامتلأوا نفوراً منها . وكأن العلم كل العلم أن يمضغ المرء كلام غيره ويلوك أقوال سواه، فيتشدق بالمذاهب العقيمة ويتبجح بالأمثال السقيمة، وإن قعد به العجز في إنشاء فقرة وتصوير فكرة، ولم يغن عنه سواد الحدود والمصطلحات، وما افتن فيه من الشواهد والنكات. ولا بدع

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

فإن الأصول وسيلة والإنشاء غاية، وشد ما بينهما من شاسع الفرق وواسع البون، وكم بين الماء والسراب والقشور واللباب. وأما من رزق قريحة وقادة وبصيرة نقادة وإحاطة بما لا مندوحة عنه من قواعد اللغة وأصول العربية، ثم راض نفسه على مزاولة أساليب العرب ومناحيهم وتوفر على مطالعة تراكيبهم ومراميهم فقد اكتسب من ملكتهم ما أخرجه إلى لهجتهم، فبات وما يعترضه عي ولا ترتهنه لكنة، ولا تتحيف بيانه عجمة. وهل البلاغة لعمري إلا بصقال الديباجة ومتانة الأسلوب وحلاوة الأداء، لتكون المعاني أعلق بالخواطر وأسرع في السمع وأفعل في النفس. أرأيتك وقد ثقفت الألفاظ المتخيرة وعرفت أين تضع يدك في سبكها وتأليفها، كيف تهز القلوب وتخلب الألباب وتملك قياد الأهواء».

ورغم أن فؤاد الخطيب قد عرض هذه المفاهيم الأدبية التقليدية عرضاً شيقاً، وحاول أن يضفي عليها شيئاً من الرونق والحيوية، فإنه لم يذهب بعيداً عن تلك المناقشة النقدية المحدودة التي دارت قديماً حول «اللفظ والمعنى»، والتي شغلت حيزاً كبيراً في سفر النقد العربي القديم. ولقد بلغ من شغف الكاتب بنظريات النقد العربي القديم أن استخدم مصطلحاته، وعزز وجهة نظره بالاستشهاد بأقوال أعلام هذا النقد مثل أبي هلال العسكري وابن الأثير، كما أنه قد تجاهل تلك الأنواع والنظريات الأدبية التي جدت في ميدان الأدب العربي الحديث عقب اتصاله بأدب الغرب. ومع أنه قد وقف موقفاً منصفاً حين أنكر على أساليب الكتابة الحديثة ما اتسمت به من لحن وعجمة، وعاب ــ في الوقت نفسه ــ ما اتصف به بعض أنصار القديم من جمود وتعصب، فقد نظر إلى طريقة التعبير الأدبي نظرة محددة، فلم يسمح للكاتب الحديث أن يتخذ من المفاهيم الأدبية ما يروقه، أو يستخدم من طرق التعبير ما يميل إليه، ولكنه رأى أن من واجب الكاتب العربي ألا يسلك سوى طريق واحد، ذلك هو طريق الأقدمين.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

واتسم أسلوب الخطيب في النقد بالجزم والتعميم، وتميز نقاشه بالتزام وجهة نظر واحدة، ولكن القارىء لا يملك إلا أن يقدر إخلاصه للمفاهيم التي ينادي بها، ويسلم بصحة بعض النظرات التي يسوقها كمثل قوله: «وليت شعري ماذا يضر المعاني إذا أجيدت لها المباني فكانت شرعاً في المتانة، وسواء في الصياغة». ورغم أن نظرته النقدية تقليدية، إلا أن إنتاجه الأدبي قد تميز بالأصالة الفنية. ويبدو أنه قد شعر بهذه القدرة الأدبية، فلجأ في بداية المقالة النقدية إلى تصوير موقف تأمل فيه الماضي، وأبدى حنينه إليه، وذلك لكي يؤثر في نفس القارىء، ويجعله أكثر ميلاً إلى تقبل نظرته النقدية.

لقد اصطبغت معظم الموضوعات التي نشرت حينئذ بالصبغة السياسية كما ذكر من قبل، ولكن كان بعض الكتاب يطلقون لميولهم الأدبية العنان أثناء تناول هذه الموضوعات السياسية والاجتماعية، ويوشون ما يكتبونه بفقرات تأملية تخيلية. ومن هؤلاء الكاتب المكي محمد بن سعيد الفتة الذي نشر في جريدة «القبلة» مقالة إصلاحية قصيرة بعنوان «نظرات». ولأنه لم يوهب مثل ما وهبه فؤاد الخطيب من مهارة أدبية، وحصافة تحد من فيض اللغة وجموح الخيال، فقد اتسمت مقدمته التخيلية التي أتى بها في مقالته هذه بالضعف والفتور.

وقد أراد محمد الفتة بهذه المقالة القصيرة ــ التي هي أول حلقة من مقالات وعد بنشرها ــ أن تبحث في «الأسباب التي تقف حجر عثرة في سبيل العاملين»، وأن تكون محاولة لبث روح الإخلاص والتفاني في نفوس العلماء. وخصص الكاتب معظم هذا العمود الصحفي لوصف ما رأى في الصباح الباكر، حيث رأى شبحين هما «خواطر الأوهام وسوانح الأفهام»، وقد ألقى الكاتب السمع لما دار بين الشبحين من حديث عاب فيه أحدهما داء «اللغط والجدال والتعامي»، واقترح نشر «نظرات» تعالج هذا

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الموضوع. وإذ تأثر الكاتب بما بدا في حديثهما من إخلاص، فقد شارك في النقاش، ووعد بأن يكون الإصلاح رائده في كل ما يكتب من موضوعات.

وكان من الممكن أن يمده هذا الشكل التخيلي بوسيلة تمكنه من إبراز قدرته الفنية، ولكنه شغل بإظهار براعته في إيراد العبارات المألوفة والاستعارات المكررة. وحينما أتى على وصف منظر الطبيعة في الصباح أخذ في تكديس صفات الحسن والجمال، ونسي سياق الحديث مما جعل سرده للحادثة فاتراً، وتصويره للمنظر الطبيعي بعيداً عن الإيحاء والتأثير. ورغم أن هذا اللون من الكتابة الصحفية يقتضي الإيجاز والتركيز، فإن هذا العمود الإصلاحي قد اتسم بالإسهاب، وأثقل بفاتر السجع والجناس. ولا يحتاج المرء للتدليل على ذلك إلا أن يشير إلى الفقرة الافتتاحية التي يقول الكاتب فيها:

«انبثق الصباح، وأسفر عن فارس بيده سمهري معتدل قد شق به كبد السماء، وهو أرق من الهواء، وأشف من الماء، وأدق من الهباء، وقد تساقط الطل عن متون السوابق، وبساط الكلأ، فلا تسمع سوى خرير الماء، وحفيف الورق يتخلل تلك الأشجار، والمناظر التي يعندل عليها العندليب والشحرور، ويترنم الهزار والعصفور.

هبّ الصبا، وجفّ الندى، واعتدل النسيم وطاب الصبوح، وصفا العيش، وأرسلت الشمس أشعتها الذهبية على هذه المشاهد الرائقة والمناظر الطبيعية، وأنا أتعاطى كؤوس التذكار ومدامة الأفكار، وأجتني من يانعات العلم والمعارف ما طار بي نحو هذا الفضاء الواسع، والربيع الشاسع، فوقفت حيث انتهى بي الجد والسير، وأنا سارح في مسارح الخواطر والنظرات، ومرابع الخطابات والسانحات، إذ لاح لي من خلال سجوف تلك الأشجار شبحان قد أخذا مكانهما تحت دوحة محدقة بالأنوار، فأرسلت

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الطرف نحوهما رسولاً، فإذا هما ضالتي المنشودة، وغايتي المقصودة فضيلة الأدب، وعين حقيقة الأرب، خواطر الأوهام وسوانح الأفهام»[1].

ورغم أن الكتابة القصصية تكاد تكون غير موجودة في هذه الفترة، فإن المحاولة الساذجة التي قام بها محمد الفتة قد تعتبر خطوة تجريبية في مجال الكتابة التخيلية. ويشبه هذه المحاولة ما كتبه عثمان حسن عن محاكمة تخيلية للجنرال الفرنسي غورو حاكم سوريا آنذاك، حيث رفعت «سوريا بنت قحطان» الدعوى ضده. وقد انتهت المحاكمة بالحكم على الجنرال بالطرد من سوريا[2]. وقد جمع الكاتب ــ الذي وصفته جريدة «القبلة» بأنه أحد «ناشئة هذه البلاد» ــ في مقالته هذه بين السجع والتعبيرات الفقهية والمصطلحات القانونية، ولكنه لم يدّع بأن مقالته عمل أدبي، ذلك لأنه حررها من أجل مسابقة أجريت للفوز بوظيفة كاتب في المحكمة الشرعية بجدة. ومهما يكن فإن هذه المقالة لا تخلو من أهمية، ذلك أنها توضح كيف سيطرت الروح السياسية على ميدان الكتابة، وغزت عالم الخيال.

ولم تول صحف العهد الهاشمي ــ التي كانت حينئذ أهم وسيلة لنشر الإنتاج الأدبي ــ القضايا الأدبية شيئاً كبيراً من اهتمامها، ولذلك أصبحت المواد الأدبية التي أنتجت في تلك الفترة قليلة نادرة. ولكن في الملاحظات

---

(١) «القبلة» عدد ٣ (١٣٣٤/١٠/٢٢ هـ، ١٩١٦/٨/٢٢م). قد يبدو للقارىء أن للكاتب شيئاً من العذر في اتخاذ مثل هذا الأسلوب المسهب في مقالة تعتبر افتتاحاً لسلسلة من المقالات، ولكن يظهر أن هذا الأسلوب يمثل وجهة نظره في طريقة كتابة المقال، ذلك لأن مقالته التالية التي نشرها بعنوان «القدوة والتربية» في جريدة «القبلة» عدد ٦ (١٣٣٤/١١/٣ هـ، ١٩١٦/٩/٢م) قد كتبت بأسلوب مثل هذا الأسلوب، وقدم لها بمقدمة حكت ما رآه الكاتب في المنام حين لقي «خواطر الأوهام وسوانح الأفهام» مرة أخرى.

(٢) المصدر نفسه، عدد ٤٩٨ (١٣٣٩/١١/١ هـ، ١٩٢١/٧/٧م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الأدبية المتفرقة التي نشرت في جريدة «القبلة» ما يلقي بعض الضوء على المفاهيم الأدبية التي تبناها محررو هذه الصحيفة، ويصور جانباً من جوانب الحياة الأدبية في هذه الحقبة.

وقف عدد من أدباء المهجر الأميركي إلى جانب الشريف حسين في صراعه مع الأتراك. وقد قدرت جريدة «القبلة» موقفهم هذا، وأخذت تنشر شيئاً من إنتاجهم الأدبي. وربما تبادر إلى الذهن أن هذا الوفاق بين جريدة «القبلة» والمهجريين الذين كانوا حملة راية التجديد في الأدب العربي دليل على تأييد الجريدة لدعوتهم الأدبية، ولكنها لم تنشر في الحقيقة من شعرهم ونثرهم إلا ما كان ذا صبغة سياسية، كما أنها لم تقتبس شيئاً من إنتاجهم الذي يبدو فيه تجديدهم الأدبي.

وقد بلغ من رضا جريدة «القبلة» عن المهجريين أن فضلت ما قاله جبران وعدد من مواطنيه بمناسبة المولد النبوي على شعر زملائهم المسلمين[1]. ولكن من الواضح أن هذا كان ذا صلة بحرص الجريدة على استمالة هؤلاء الكتاب اللبنانيين السوريين. ومهما يكن، فإن أمد الصفاء لم يدم، ذلك أن عدداً من المهجريين قد أبدوا في عام ١٣٣٧ هـ (١٩١٨م) عدم رغبتهم في أن تربط سوريا بحكومة الشريف حسين، فما كان من الجريدة إلا أن كفت عن نشر إنتاجهم وتجنبت ذكر أي شيء يتصل بأدبهم.

وفي الحقيقة إن محرري جريدة «القبلة» لم يكونوا ممن تروقهم دعوة التجديد المهجرية، ذلك لأن روحهم الأدبية روح تميل إلى التمسك بالتقاليد الأدبية العريقة والمحافظة عليها. وقد تجلى هذا في دعوة جريدة «القبلة» إلى إحياء اللغة العربية وتراثها، وفي تخصيص أعمدتها لتلك

---

(١) انظر: عدد ٥٢ (١٩/٤/١٣٣٥ هـ، ١٢/٢/١٩١٧م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المقالات والقصائد التي تترسم خطى التقاليد العريقة. وقد أعلنت الجريدة انتصارها لهذه التقاليد عندما أشارت إلى معلقة الحارث بن حلزة، فمدحت ما في مضمونها من إبداع جعلها مناسبة لأحداث هذا الزمان، وقدمت لها بمقدمة تعتبر تحدياً للأدباء المعاصرين حيث قالت: «فهل يستطيع عظماء القرن العشرين وفلاسفته وأساطين مدنيته ومعارفه أن يأتوا بمثل ذلك الأسلوب المتين، وهاتيك الأفكار العالية؟»[1].

ولا شك في أن هذه المعلقة التي تعتبر إحدى عيون الشعر العربي تستحق كثيراً من صفات المديح التي أضفاها المحرر عليها، ولكن القارىء حينما يقارن هذا الإطراء بما نشرته الجريدة من تعليقات أدبية يجد أن الثناء لا يقتصر دائمًا على مثل هذه القصيدة الرائعة، بل يضفى أحياناً على منظومات غير جيدة، مثل تخميس الشاعر حسين روحي الذي قدم له المحرر بقوله:

«واليوم نحلي جيد القبلة بتخميس لها [لقصيدة نشرت من قبل] بديع، جادت به قريحة صاحب التوقيع. وترى القبلة أنها في غنى عن تقريظ ناسج برده، بعد أن زينت صحائفها مراراً كثيرة بمنظوماته الفائقة، وأشعاره الرائقة. ولو لم يكن له إلا تخميسه الذي ننشره اليوم لكفى لإلحاقه بفحول الشعراء وعده في مقدمة النبغاء. وها نحن نزف إلى القراء الكرام ذلك التخميس البليغ، ونشنف به أسماعهم»[2].

ولم يكن هذا التخميس سوى بقية من بقايا ذلك النوع الشعري الذي ازدهر في العصور التي ضعف فيها الأدب العربي، حين انصرف الشعراء إلى تقليد النماذج الأدبية المصطنعة، وشغفوا باستخدام اللعب

(١) المصدر نفسه، عدد ٥٩٨ (١٣٤٠/١١/٤ هـ، ١٩٢٢/٦/٢٩م).
(٢) المصدر نفسه، عدد ٢٣١ (١٣٣٧/٢/١٣ هـ، ١٩١٨/١١/١٨م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

اللفظية المتكلفة. ولقد خلت هذه القصيدة من أي قيمة شعرية، ولم يتوفر لها شيء من المزايا التي نسبها المحرر إليها. وإذا كان التعليق على قصيدة الحارث بن حلزة قد حوى شيئاً من الحقيقة، ودل على ذوق نقدي رفيع في تقدير الشعر، فليس في تقريظ المحرر لهذا التخميس شيء من الصدق، وإنما هو أثر من آثار تلك الحقبة التي تحول فيها النقد الأدبي إلى قوالب تعبيرية مرددة. وتقريظات خاوية مجاملة. ويبدو كذلك أن بعض صفات المديح التي وردت في التعليق لم تأت لأن المحرر رأى أن القصيدة جديرة بها، ولكنها جاءت لأن مناسبة السجع قد اقتضتها.

وربما كان من الممكن بعد ذلك أن يلقي هذان التعليقان الضوء على وجهة النظر الأدبية التي تبنتها جريدة «القبلة» هذه الجريدة التي كانت آنذاك أقوى وسيلة من وسائل التأثير الفكري في مكة المكرمة وجدة، وإنهما ليبينان كذلك مدى انتصار الجريدة لما حسبه محرروها تقاليد أدبية عريقة، ولكن من الواضح أنها لم تفرق بين أسس الشعر الأصيلة، ونظرات الأدب المقلدة، كما أنها لم تميز بين القصيدة التي اتسمت بالإبداع الشعري، وتلك الأبيات المنظومة المصطنعة. ولعل ظروف الدعاية السياسية كانت مسؤولة عن هذا التقريظ، وعن الإقدام على نشر هذا التخميس وما أشبهه من منظومات المديح مثل تشطير عبد الله نديم الطرابلسي[1] وقصيدتي اسماعيل شاكر[2] وعبد المحسن الصحاف[3] اللتين تحويان التاريخ الشعري.

وفي آخر هذه الحقبة ظهر لون جديد من ألوان النثر الأدبي، يشبه المقالة الصحفية الهاشمية من حيث غلبة روح الحماسة على أسلوبه، ولكنه

---

(١) المصدر نفسه، عدد ٢٦٦ (١٣٣٧/٦/١٨ هـ، ١٩١٩/٣/٢١م).
(٢) المصدر نفسه، عدد ٣٦ (١٣٣٥/٢/٢٢ هـ، ١٩١٦/١١/١٨م).
(٣) المصدر نفسه، عدد ١٢٢ (١٣٣٦/١/٥ هـ، ١٩١٧/١٠/٢١م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

يختلف عنها في أن هذا الحماس كان مقصوراً على معالجة القضايا الأدبية. ولم تجد هذه النغمة طريقها إلى الظهور من خلال أعمدة الصحف في هذه الفترة، ولكنها برزت في تلك المقدمة التي كتبها محمد حسن عواد لديوانه المخطوط «روح الشعر العربي» في عام ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤م). كان العواد حينئذ في أوائل العقد الثالث من عمره، أما قصائد الديوان فقد وصفها الشاعر وصفاً متواضعاً حين قال بأنها: «خليط من ألاعيب الصبا ونزق الشباب»[١]. وكانت من حيث الموضوع «عبارة عما يسطره الناظم من خيالاته وتصوراته الاجتماعية والأدبية والسياسية»[٢].

وفي الحقيقة إنه ليس للديوان من الناحية الشعرية حظ من الإبداع. ولكن أهميته تكمن في مقدمته النثرية التي تشير إلى ظهور مرحلة جديدة في تاريخ الأدب في هذه البلاد، ذلك أنها تبدو كأول صوت يصدره أديب من أدباء الأماكن المقدسة استجابة لتلك الحركة الأدبية الجديدة التي دعا إليها بعض أدباء مصر والمهجر مثل العقاد وجبران وميخائيل نعيمة.

ويبدو أن محمد حسن عواد قد اعتقد بأن له رسالة أدبية لا بد من تحقيقها، وأن لديه أفكاراً جديدة يحسن بمواطنيه أن يعوها، ولذلك فقد أخذ على عاتقه بادىء ذي بدء مهمة تحديد ماهية الشعر الذي هو عنده «روح منطبعة في الأنفس الحية، كامنة فيها كمون النار في الزناد، بل معنى سلسال تظهره العواطف في أشكال متباينة، وقوالب متغايرة، كالألفاظ والنغمات، والأنوار والظلمات، وسكون الطبيعة الهادىء، وحنين الإبل إلى معاطنها، وتأوهات العاشقين، وتنفسات المحزونين»[٣] ثم أوضح بعد

(١) «روح الشعر العربي»، ورقة ١.
(٢) المصدر نفسه، ورقة ١.
(٣) المصدر نفسه، ورقة ٢.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ذلك أن الشعر إذا ما تجسد في هذه الأشكال فإنه يتسرب إلى النفوس «تسرب الماء الرقراق في العيدان والأوراق، فيملك عليها شعورها ووجدانها، فتسبح في فلوات الخيال، وتشرف على ملكوت الجمال. فأنت ترى أن من الشعر صامتاً وناطقاً، فناطقه مظهر الحسن، وصامته مظهر التجلي»[1].

لقد استطاع العواد ــ مثل كثير ممن بحثوا في نظرية الشعر ــ أن يعبر عن انطباعاته الوجدانية حول عالم الشعر، وينقل إلى القارىء مفهومه الخاص عن ماهية هذا الفن، ولكنه لم يوفق كثيراً في توضيح جوهر الشعر وطبيعته، إذ ظل عالم الشعر بعد كل هذا مجهولاً لم تكشف كل أسراره. ولعل السبب في ذلك هو أن المرء يستطيع أن يتصور ماهية الشعر، ويتذوق جماله، ولكنه يعجز عن أن يصفه وصفاً دقيقاً أو يعرفه تعريفاً محدداً. وبما أن العواد اعتمد في تعريفه هذا على الصورة المجردة، فقد اتسم حديثه بالغموض والتعقيد، وافتقر إلى سلاسة الأسلوب الأدبي ووضوحه. كما أنه لم يقصر تعريفه على جوهر الشعر، بل أخذ في مناقشة الناحية التعبيرية في هذا الفن، وتحدث عن الانفعالات التي يحدثها الشعر في نفوس قرائه. ويبدو أن الكاتب قد أحس بما في تعريفه من تجريد وغموض، فاستعان على توضيح فكرته بالإشارة إلى بعض مظاهر الشعر المحسوسة مثل «تأوهات العاشقين وتنفسات المحزونين».

ومن الممكن أن يرجع الباحث قول العواد بأن الشعر صناعة «روحية» إلى ما يشبهه من أقوال الناقد العربي عبد القاهر الجرجاني[2]. ولكن من الصعب على المرء أن ينسب ما قام به العواد من تطوير وتفصيل

(١) المصدر نفسه، ورقة ٢.

(٢) انظر: «أسرار البلاغة»، ص ٣١٨.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

لهذه الفكرة إلى نظريات النقد العربي القديم، تلك النظريات التي كانت تميل إلى تعريف الشعر بواسطة أحد مظاهره الشكلية كالوزن والقافية. ومهما يكن فإن هذه النظرة التجريدية التي ترى أن الشعر عبارة عن «معنى» تجسده العواطف. ويبرز من خلال الطبيعة وتأوهات العاشقين، ونفثات المحزونين قريبة الشبه بتلك النظرة الرومانتيكية التي نظر بها ميخائيل نعيمة إلى الشعر[1] كما أنها تبدو متأثرة ببعض نظريات الشعر الغربي الرومانتيكي، فقد أشاد العواد في مقدمته هذه بفكتور هوجو رائد الرومانتيكية الفرنسية واقتبس عبارتين من أقواله المشهورة[2]، كما أن تعريف العواد للشعر قد أتى مشابهاً لما قاله بعض نقاد القرن التاسع عشر مثل جون ستيوارت مل الذي قال: «ما الشعر سوى الخواطر والكلمات التي تجسد بها العواطف نفسها بطريقة عفوية»[3]، ومثل توماس كارليل الذي وصف الشعر بأنه عبارة عن «خاطرة موسيقية»[4] وقال بأن أفئدة الناس جميعاً تنبض بشيء من روح الشعر[5]. إن هذه الأمثلة لتشير بوضوح إلى تأثر العواد ــ إما بطريق غير مباشر أو مباشر ــ بنظرات الشعر الغربي، ولا سيما نظرات النصف الأول من القرن التاسع عشر الذي سيطرت الروح الرومانتيكية على نقده الشعري. ومهما يكن المصدر الأدبي الذي استوحاه العواد، فإنه يحسن بالباحث ألا يضن عليه بالثناء لتبني مثل هذه المفاهيم الأدبية الجديدة، ودعوته إليها في وقت كان مواطنوه يعجبون بالأشكال الشعرية المتكلفة كالتشطير والتخميس.

ويشبه تعريف العواد للشعر من حيث الأهمية ما قام به في مقدمة

---

(١) انظر: كتابه «الغربال» ص ٧٦ ــ ٧٧.

(٢) انظر: روح الشعر العربي»، ورقة ٢.

(٣) (Dissertations and Discussions, vol. 1, p. 79).

(٤) (On Heroes, Hero-Worship and the Heroic in History, p. 135).

(٥) (Ibid, p. 132).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الديوان من هجوم على أولئك النظامين الذين اتخذوا صناعة الشعر لهوا ولعباً بالقريض. فقد ساءه أن يهمل الشعر الإبداعي بين مواطنيه، وبلغ من انفعاله حداً جعله يصف هؤلاء النظامين بأنهم «مردة» و«بوم» و «غربان» حيث قال:

«وليس في شيء من الشعر تلك التفعيلات والمفاعلات والمستفعلات والمفعولات. وما هذه إلا هوس ووسواس، قل أعوذ برب الناس، من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس. . .

ومن نكبات الدهر لهذه الصناعة الروحية، أن قيض لها مردة من الإنس، فانتهبوها، منقضين عليها انقضاض البوم والغربان، فألقوا دلاءهم واردين نهراً لم يكن لهم الحق في وروده، واهمين أن سيملأونها من ذلك السلسبيل الصافي، ولكن تقطعت آمالهم، وتهدمت أركان أوهامهم، فصعدت دلاؤهم أشلاء ممزقة، تحمل حمأة سوداء، وصخوراً صماء هي أشبه بطبعهم الكثيف:

فقل لكثيف الطبع ويحك ليس ذا بعشك فادرج سالماً غير غانم»[1]

ولم يكن العواد من أوائل الكتاب المحدثين الذين هاجموا شعراء العربية المقلدين، وسخروا من أولئك الذين حولوا الشعر إلى لعب بالألفاظ، فقد سبق بآخرين مثل عباس محمود العقاد[2] وميخائيل نعيمة[3] ممن استخدموا الأسلوب التهجمي التهكمي في مجال النقد الأدبي. وإن لم يكن العواد سباقاً في هذا الميدان، فإن هذا لا يقلل من قيمته، فهو أول

(١) «روح الشعر العربي» ورقة ٢.
(٢) انظر: «الفصول» ص ١١٦ ــ ١١٧.
(٣) انظر: كتابه السابق ص ١٢٠ ــ ١٢١.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أديب من أدباء هذه البلاد سجل استجابته للحركة الأدبية العربية الجديدة، وحاول استخدام مفاهيمها في تقويم الإنتاج الأدبي الذي أنشأه مواطنوه[1].

• • •

ويتضح مما سبق أن المقالة السياسية قد سيطرت على الجو الأدبي في الفترة الهاشمية، أما الأنواع النثرية الأخرى فما كان لها من وجود. وقد طورت الصحف الهاشمية فن المقال الذي ورثته من صحف العهد العثماني على حين كان ذا صورة بدائية، وأسلوب ركيك. ورغم أن معظم كتاب المقالة الهاشميين قد اتخذوا الأسلوب التقليدي في كتابة مقالاتهم، إلا أن مما يحمد لهم أنهم لم يستوحوا نماذج فترة الضعف، بل نظروا إلى ما أنتج في عصور العربية المجيدة. إنهم ليسوا بمجددين، كما لم يكونوا ممن يقلد تقليداً غير بصير. لقد حرصوا على إحياء تقاليد الأدب العربي العريق، ونجحوا في أن يضفوا على مقالاتهم الصحفية ثوباً أدبياً مشرقاً.

ورغم ما بين مقالات الفترتين العثمانية والهاشمية من اختلاف كبير في الأسلوب، فإن موضوعاتها متشابهة، ذلك أنها جميعها تعالج الشؤون السياسية والاجتماعية. ويتفق كتاب الفترتين كذلك في عدم الاهتمام بالمقالة الذاتية، ولكن الكتاب الهاشميين قد جعلوا لمقالاتهم السياسية والاجتماعية مسحة أدبية ذاتية.

ولأن المقالة الهاشمية قد افتقرت إلى التنوع في المضمون وطريقة

(١) ستعالج بعض مقالات العواد النقدية بطريقة أكثر تفصيلاً عندما يأتي الحديث عن النثر الأدبي في الربع الثاني من القرن العشرين، ذلك لأن نقده الهجومي اللاذع قد أصبح حينذاك أكثر وضوحاً، وأشد تأثيراً.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المعالجة، فقد بدا فيها الترداد، وغلبت عليها روح الجد والوقار. وربما كان سبب ذلك هو أن الظروف السياسية المضطربة في هذه الفترة لم تجعل للكتاب ــ الذين كان معظمهم موظفين حكوميين أو محرري صحف رسمية وشبه رسمية ــ خياراً في أن يكتبوا إلا ما أملته عليهم هـذه الظروف والأحوال.

ومع أن صحف العهد الهاشمي التي تمثل المصدر الرئيسي للإنتاج الأدبي في هذه الحقبة لم تعش سوى مدة قصيرة شغلت خلالها بقضايا السياسة انشغالاً لم يدع لها مجالاً للاهتمام بفنون الأدب، إلا أنه يبدو من التعليقات النقدية المتفرقة والإشارات الأدبية التي نشرتها جريدة «القبلة» ــ أطول هذه الصحف حياة ــ أن هذه الجريدة كانت تميل إلى الأدب العربي العريق، ولكنها لم تكن تفرق في الحقيقة بينه وبين أدب التقليد المصطنع، إذ لم تنظر إلى تشطير الشعر وتخميسه وما أشبه ذلك نظرة تسامح فحسب، بل شجعت هذه الأنماط الشعرية وأثنت عليها.

لقد وجدت في ميدان الأدب العربي الحديث حينئذ عدة قضايا أدبية تمس مصير هذ الأدب، وتحدد موقفه من حضارة القرن العشرين، ولكن كتاب جريدة «القبلة» والجرائد الهاشمية الأخرى لم يولوا هذا الجانب شيئاً من اهتمامهم. وعندما تحدث فؤاد الخطيب في إحدى مقالاته الافتتاحية عن حاضر اللغة العربية تجنب ذكر أي اتجاه من الاتجاهات الأدبية الحديثة، وناشد الكتاب أن يقتفوا آثار فصحاء العربية الأقدمين. ولقد كان الناقد الأدبي لجريدة «حجاز» ــ الجريدة الرسمية لولاية الحجاز ــ أقرب إلى معالجة مثل هذه القضايا الأدبية المعاصرة حيث حاول من قبل أن يقدم اقتراحات عملية في هذا المجال، فدعا إلى تطعيم الأدب العربي بمفاهيم الأدب الغربي ــ ومهما يكن فإنه لم يذهب بعيداً في دعوته إلى التجديد. ذلك أنه قد نادى الأدباء أن يفعلوا مثل ما فعله أحمد شوقي الذي لم يكن ذا

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

حظ كبير في ميدان التجديد. ويبدو أن هذين الموقفين المختلفين اللذين وقفهما كل من فؤاد الخطيب وناقد جريدة «حجاز» يتفقان مع ميولهما السياسية، فكاتب جريدة «حجاز» العثمانية يرى أن ينعش أدب العرب في القرن العشرين بعناصر أدبية أجنبية، ولكن فؤاد الخطيب الأديب العربي المحافظ يناشد الكتاب المحدثين أن يحرصوا على صفاء لغتهم الأم، وأن يستمدوا الوحي من تلك الآثار الأدبية التي أنتجها أسلافهم العظام.

وقد ترعرع في هذه الحقبة عدد من الشبان الذين قدر لهم أن يبرزوا على مسرح الحياة الأدبية في العقد التالي، كما شهدت هذه الفترة بوادر حركة أدبية جديدة بشر بها محمد حسن عواد الذي لم يكن له من صلة بالناقد الأدبي لجريدة «حجاز»، كما لم يكن من أتباع فؤاد الخطيب، ولكنه كان من مؤيدي تلك الحركة الأدبية العربية الجديدة التي أعجبت بأدب الغرب، وتأثرت بمفاهيمه.

إن ما أسهم به كتّاب الأماكن المقدسة المحليون في هذه الفترة قليل إذا ما قورن بإنتاج زملائهم الوافدين من البلاد العربية الأخرى. وربما كان سبب ذلك أن الصحف الهاشمية التي غلبت عليها الصبغة السياسية قد أدركت أن من الصعب عليها أن تجد بين أهالي مكة والمدينة وجدة صحفيين مجربين، وذلك لأنه لم يكن لهم من وجود في هذه البلاد آنذاك. ومهما يكن، فقد كان ما نشره فؤاد الخطيب وزملاؤه من الأدباء والصحفيين الوافدين في الجرائد الهاشمية مصدراً من المصادر التي أثرت في ثقافة الجيل الناشىء، وأوحت له بالتعلق بالأدب. ولا شك في أن الحجاز الذي تأخر في صحوته الأدبية عن معظم البلدان العربية المجاورة قد أفاد من مقدم هؤلاء المفكرين الذين كان أكثرهم أدباء بارزين، فلقد سد هؤلاء الكتاب ما وجد في تاريخ الأدب الحديث بهذه البلاد من فراغ أحدثته فترة الصمت التي سادت حينما سكت الكتاب المحليون خلال هذه الحقبة.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وفي الحقيقة إن الكتاب الهاشميين لم يختلفوا اختلافاً جوهرياً من حيث وجهة النظر الأدبية عن كتاب الحقبة السابقة، كما أن الأحداث السياسية التي وجدت حينئذ لم تأت معها بأي تجديد أدبي جذري، فلقد شغل الكتاب عن معالجة الموضوعات الأدبية التي لم تملها ظروف السياسة ودوافعها. ورغم هذا فإن المقال الصحفي قد تطور في هذه الحقبة، كما أن الأقلام والصحف التي شابتها الركاكة والعجمة في الفترة السابقة قد اصطبغت حينئذ بالصبغة العربية، واتسمت بجزالة التعبير وإشراق اللغة. ولعل أهم ما أحدثته هذه الفترة من أثر أدبي هو أنها قد أسهمت في زرع بعض البذور الأدبية التي قدر لها أن تنبت وتستوي على سوقها في السنوات التالية.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الباب الثاني

النثر الأدبي
في الربع الثاني من القرن العشرين

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الفصل الأوّل

المقـــالة

لقد أشير فيما سبق من حديث عن أدب المقالة بالمنطقة الغربية في العهد الهاشمي إلى أن المقالة الصحفية قد شغلت حينئذ بقضايا السياسة، وأن الأحوال المضطربة التي عاش الحجاز آنذاك في ظلها قد جعلتها ذات أسلوب حماسي خطابي. وحينما بدأ العهد السعودي في الحجاز عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) تمتعت هذه المنطقة بحكم مستقر قوي، ساد في ظله الهدوء، وخيم السلام. وقد كان من نتائج ذلك أن اختفى عدد من تلك العوامل التي هيأت من قبل لهيمنة المقالة السياسيةالحماسية. وليس معنى هذا أن المقالة السياسية قد اختفت حينئذ من الصحف السعودية، ولكنها لم تعد تحتل ذلك الحيز الكبير من صفحاتها، ولم تصطبغ بالحماس الذي اتسمت به في الفترة الهاشمية كما أن أولئك الكتاب الذين برزوا على المسرح الأدبي في العهد الهاشمي قد أخلوا الميدان للجيل الناشىء الذي صادف تخرجه في المدارس الدينية العربية ــ ولا سيما مدرستي الفلاح بمكة وجدة ــ بداية العهد السعودي في الحجاز.

وبما أن معظم هذا الجيل الجديد من الأدباء قد أدركوا في أولى مراحل نشأتهم الفترة الهاشمية التي سادها جو من الاضطراب السياسي، فإنه يبدو أنهم قد تأثروا بروح هذه الحقبة، وتعلموا كيف تستخدم الأقلام في ميدان الجدل والعراك. ولذلك أصبح من الواضح عندما نشروا أول

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

إنتاجهم في مطلع العهد السعودي أنهم قد ورثوا تلك النغمة الحماسية التي سيطرت على المقالة الهاشمية. ولأنه لم يكن لإنتاجهم الأدبي من سبيل إلى الظهور في الفترة الهاشمية[1] فقد برزوا على المسرح الأدبي عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) حاملين روحاً نشيطة مندفعة، وحماساً قوياً للإصلاح والتجديد.

وكان من أول ما قام به هؤلاء الأدباء الناشئون في بداية العهد السعودي أن أصدروا عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) كتاب «أدب الحجاز» الذي قام بجمعه محمد سرور الصبان، وهو كتاب ضم مجموعة من شعرهم ونثرهم. وقد أصدر محمد حسن عواد أحد هؤلاء الكتاب بعد ذلك في أوائل عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) كتاب «خواطر مصرحة» وهو مجموعة من الخواطر والمقالات التي تعالج القضايا الأدبية والاجتماعية، وقد وصفها زميله محمد سرور الصبان بأنها «العنوان البارز لهذه اليقظة» ودستور الحركة الفكرية في هذه البلاد[2].

ويبدو أن هؤلاء الكتاب السعوديين الناشئين قد اعتقدوا بأن الأدب من أقوى العوامل في إيقاظ الأمة وإصلاح شأنها، ففي عام ١٩٢٦ م أعلن محمد سرور الصبان ــ الذي كان يعتبر رائدهم ــ باسمه واسم زملائه الكتاب قائلاً: «إن نحن إلا أبناء وطن نريد إصلاحه، ونسعى لنقيم العدل فننزع إلى مكارم الأخلاق»[3] أما محمد حسن عواد مؤلف كتاب «خواطر مصرحة» فقد قال بأن «كل نهضة سياسية أو علمية أو اقتصادية أو اجتماعية في العالم، وكل نهضة عمرانية أو صناعية كان محركها الأدب»[4]. وإذ عدَّ هؤلاء الشباب الأديب رائداً من رواد الإصلاح، فقد

---

(١) انظر: محمد سرور الصبان «أدب الحجاز» ص ٧ ــ ٨.

(٢) انظر: مقدمته لكتاب «خواطر مصرحة» ص ٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٣. لعل العواد قد تأثر هنا بما قاله عباس محمود العقاد من قبل حول هذا الموضوع، حيث قال العقاد في عام ١٩١٣: «فمما لا مشاحة فيه أن

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

انصرفوا إلى ميدان الكتابة، واعتبروا الإسهام فيه عملاً من أعمال البناء الاجتماعي. ولذلك فإن الإنتاج الأدبي الذي كان قليلاً نادراً في الفترتين السابقتين قد اتسم في هذه الحقبة بالوفرة والغنى.

لقد تجاهل محمد سرور الصبان ما وجد في الفترتين السابقتين من نشاط فكري، وما قام به كتابها ــ الذين كان معظمهم من غير أبناء هذه البلاد ــ من إسهام أدبي، ولذلك قدم لكتاب «أدب الحجاز» قائلاً: «أقدم بين يدي القارىء الكريم صفحة فكرية وجيزة من شعر الشبيبة ونثرها لهذا العهد ولأول مرة في التاريخ الأدبي لهذه البلاد بعد فترة طويلة وقرون كثيرة قضى بها سوء الطالع لهذه الأمة ولهذا الوطن أن يكون علم الأدب فيها غريباً والأديب مبتذلاً...»[1]. كما أن العواد قد اعتبر الجيل القديم من أدباء بلاده «شبه كلاسيكيين ولكنهم مقلدون»[2]. وبما أن هؤلاء الأدباء الناشئين قد نظروا إلى سلفهم بعين الاستهانة، فقد رأوا أن من واجبهم أن يخلقوا جواً أدبياً جديداً، وأن ينادوا بمفاهيم أدبية حديثة.

وحينما قدم محمد سرور الصبان لكتاب «خواطر مصرحة» وصف هذه الحركة الأدبية الجديدة بأنها معركة فكرية، وكذلك فعل العواد نفسه

النهضات التي تشحذ العزائم وتحدوها في نهج النماء والثراء لا تطلع على الأمم إلا على أعقاب النهضات الأدبية التي يتيقظ فيها الشعور وتتحرك العواطف وتعتلج نوايا النفوس ومنازعها. وفي هذه الفترة ينبغ أعاظم الشعراء، وتظهر أنفس مبتكرات الأدب، فيكون الشعر كالناقوس المنبه للأمم، والحادي الذي يأخذ بزمام ركبها». انظر: كتابه «مطالعات في الكتب والحياة»، ص ٢٩٣. وربما كان من المفيد أن يشار هنا إلى أن عبد السلام عمر أحد زملاء العواد قد ردد هذه الفكرة بعد عشر سنوات من صدور كتاب «خواطر مصرحة» حيث قال بأن «الأدب قوام النهضات والحضارات...» انظر كتاب «وحي الصحراء...» جمع محمد سعيد عبد المقصود وعبد الله بلخير، ص ٢٧٧.

(١) انظر: ص ٥.

(٢) «خواطر مصرحة» ص ٩٢.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

عندما قال بأن «هزازة ملاك الوحي والشعر والإلهام» قد قدمت إليه حاملة «في إحدى يديها مشعلاً نارياً وسيفاً مسلولاً . . . وفي الأخرى . . . صحفة حلوى وكوباً من الماء العذب الفرات» ثم قال: «وإذ قدمت هزازة نحوي هديتها مددت يدي وتناولت الهدية الأولى مؤثراً مشعل النار لأننا في ظلمات، وسيف الحرب لأننا في بدء تكوين نهضة فكرية»[1]. وقد تحدث العواد عن هذه النهضة الفكرية فقال بأنها نقمة «الجديد على القديم والحرية على التقليد»[2].

□ المقالة النقدية:

لقد كانت الحركة الأدبية التي قام بها الأدباء الناشئون في مطلع العهد السعودي حركة إصلاحية في حقيقتها، ولذلك فإن من الطبيعي أن ينتمي معظم إنتاجها إلى ميدان النقد الأدبي. ولعل من المفيد أن تناقش هنا عدة نماذج من المقالة النقدية التي تصور هذه الحركة الجديدة في مرحلتها الأولى حين كانت تميل إلى العراك الأدبي، ثم في مرحلتها الثانية حيث قل فيها أسلوب الهجوم، وخمدت وقدة الحماس، وصارت أكثر تطوراً ونضجاً.

وإذا كان قد أشير في ختام الفصل الذي سبق عن النثر في الفترة الهاشمية إلى أن محمد حسن عواد كان رائداً من رواد الحركة الأدبية التجديدية في هذه البلاد، فإنه قد أصبح في هذه الحقبة من أبرز هؤلاء الأدباء الناشئين المتحمسين. ومما يمثل إنتاجه النقدي في هذه المرحلة مقالة نشرها في كتابه «خواطر مصرحة» بعنوان «البلاغة العربية». وقد أوضح في هذه المقالة بأنه حاول جاهداً منذ بدأ دراسة البلاغة في مدرسته أن يكتشف

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

جوهرها، ويتلمسها في التراث الأدبي لعصور اللغة العربية الأولى فلم يجدها. ولقد اعتقد الكاتب الذي كان حينئذ في العشرين من عمره بأن مجرد تعلم نظريات البلاغة سيتيح له ما أراد من غوص واكتشاف. ولم يكن له آنذاك إلا قليل من المران والخبرة الأدبية، كما لم يكن لديه من المعرفة بأدب اللغة العربية إلا ما يمكن أن تمد به المدرسة الثانوية تلميذها من معلومات محدودة، ولكن إعجابه الشديد بمفاهيم الأدب الحديث قد أعطاه من الجرأة ما جعله يأخذ على عاتقه تلك المهمة العظمى، مهمة تقويم الخصائص الفنية في تراث الأدب العربي. ولا عجب بعد هذا إن أتت رحلته السريعة خلال القرون مجرد تأكيد لتحيزه لمفاهيم الأدب المعاصر حيث قال:

«تلمستها [البلاغة العربية] في جواهر الأدب فرأيتها تبعد ٦٥٤,٣٢١ مرحلة.

تلمستها في مولد البرزنجي فرأيتها تتلكأ متسكعة متعثرة.

تلمستها في البردة والهمزية فرأيتها تمشي على استحياء.

تلمستها في كتب الأشياخ فأجابتني الكتب أن ليست هنا.

تلمستها في المقامات فإذا هي لحوم ناضجة ولكنها من حيوان غير مأكول اللحم.

تلمستها في كتب السعد والجرجاني فرأيتها تحشرج على فراش الموت.

تلمستها في شعر المولدين فإذا هي عجوز شمطاء في زي حسناء.

تلمستها في المعلقات فإذا هي منجم يحوي ذهباً في جنادل وصخور.

تلمستها في الجرائد فإذا هي خروق بالية وأديم ممزق... وأخيراً تركت البحث... ثم عدت فوجدتها.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وجدتها رعداً يقصف من نبرات القرآن فوقفت خاشعاً أمام معبدها.

وجدتها ألقا يلمع في مقالات بعض كتاب سوريا فهززت يدي وصافحتها.

وجدتها ورداً ذابلاً في مقالات بعض كتاب مصر فهتفت لها مبتسمًا.

وجدتها في شعر المتنبي ينبوعاً يحاول الانفجار فلا يستطيع.

وجدتها في نظرات المنفلوطي عروساً تزف ولكن بلا طبول.

وجدتها في الريحانيات موجة تصعد وتهبط.

وجدتها في كثير من شعر وكتابة مسيحي لبنان تسلس عن قيادها.

ثم وجدتها في مترجمات فولتير وموليير وشكسبير وبايرون وجوته فقلت واهاً لمجد شعراء الغرب»[1].

لقد تميزت هذه الأحكام النقدية بالغموض، واتسمت بالتعميم. وما هذا الإنكار الكلي للقيم التي تحفل بها الآثار الأدبية العريقة، والإعجاب المطلق بالأدب المعاصر سوى دليل قوى على تعصب الكاتب ضد أدباء العربية القدامى الذين وصف خواطرهم وأفكارهم في إحدى مقالاته بأنها «مائتة»[2]. ورغم أن العواد قد استثنى المتنبي حينما أنكر بلاغة شعراء العربية الأوائل، فإنه لم ينصفه بل عرض ببلاغة شعره حيث وجدها «ينبوعاً يحاول الانفجار فلا يستطيع» وفي الحقيقة إن المرء لا يملك إلا أن يشعر بأن الكاتب قد افتقر إلى الحصافة النقدية، ذلك أنه قد أنكر القيم الفنية في المعلقات وشعر المولدين من أمثال بشار بن برد وأبي نواس

(١) «خواطر مصرحة»، ص ٢٥ ــ ٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٠.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وأبي تمام وابن الرومي على حين أسبغ الثناء على طوائف من الأدباء المعاصرين. ومهما يكن، فإنه يبدو أن هذه الأحكام النقدية لم تبن على نظرة تأملية عميقة، بل أتت نتيجة لما لدى الشباب من اندفاع فطري وميل طبيعي إلى الأشياء المحدثة من أجل جدتها وغرابتها[1]. كما أن من الواضح كذلك أن هذه المقارنة شبيهة بما فعله أستاذه ميخائيل نعيمة من قبل حينما سخر من شعراء العربية ومفكريها الأقدمين كامرىء القيس والنابغة الذبياني ولبيد وعلقمة الفحل والمتنبي وجرير وابن رشد وابن سينا وقال بأن «غثهم أكثر من سمينهم»، وأن أحداً منهم لا يمكن أن يرتفع إلى «مصاف هوميروس وفيرجل ودانت وشكسبير وملتون وبيرن وهيكو وزولا وغوتي وهينه وتولستوي»[2].

إن ما في الأحكام النقدية التي أبداها العواد من ضعف لأبين من أن يشار إليه، وإن ما في نقاشه من أخطاء لأوضح من أن يرد عليها، ولكن أهمية هذه الأحكام من الوجهة التاريخية هو أن العواد قد قلل من قيمة الأدب العربي العريق، وأبدى إعجابه بأولئك الأدباء المعاصرين الذين استوحوا الأدب الغربي، وتأثروا به، وذلك بعد أربع سنوات من تفضيل جريدة «القبلة» لتقاليد الأدب العربي العريق وتحديها «عظماء القرن العشرين وفلاسفته وأساطين مدنيته ومعارفه» أن يأتوا بمثل ما حفلت به معلقة الحارث بن حلزة من أسلوب متين وأفكار عالية[3].

---

(١) لقد بلغ من حماسة العواد للتجديد أن جعل ذلك واجباً من واجبات الجيل الجديد من شباب بلاده حيث قال: «يجب أن نكون جميعاً وعلى الأخص نحن شبيبة البلاد، عصريين، عصريين في ألسنتنا، عصريين في تفكيرنا، عصريين في دفاعنا، عصريين في أقلامنا، عصريين في عاداتنا...» انظر كتاب «أدب الحجاز»، ص١١٣ ــ ١١٤.

(٢) «الغربال»، ص٤٧ ــ ٤٨.

(٣) «القبلة»، عدد ٥٩٨ (١٩٢٢/٦/٢٩ م). وانظر ما سبق من حديث عن النقد الأدبي في جريدة «القبلة».

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ولقد تجلت بساطة الكاتب الشاب وتحديه لأدباء بلاده التقليديين حين قال مخاطباً البلاغة: «فيا أيتها البلاغة العربية، ما أسمى ذوقك حينما اخترت مقراً للدينمو الكهربائي الذي يفيض عليك نوره وناره تلك الأدمغة المطربشة، والمبرنطة والحاسرة، ذوات فكرة التجدد العصري، والذكاء النجيب، وضربت صفحاً بل ربأت بنفسك أن تتدفقي من رؤوس غلاظ أفسدها ثقل العمائم وطول اللحى»[1]. وقد يكون للعواد بعض الحق في مهاجمة المتشاعرين والمقلدين، ولكنه جاوز ما يمكن أن يسمح به قاموس النقد الأدبي حينما وصف قصائدهم بأنها «الأمراض والسموم والجراثيم والميكروبات والأوبئة»[2].

وإذ بدأ الكاتب مقالته بمقدمة قصيرة تحدث فيها عن ذكريات ماضيه القريب في المدرسة، فقد خيل إلى القارىء أنه سيفضي إليه بحديث ذاتي حميم، ولكنه سرعان ما تبين أن الأمر غير ما توقع حينما تقمص العواد تلميذ الأمس شخصية الحكم الأدبي الخبير، وانساق في استخدام أسلوب يتسم بالتحدي، ويميل إلى صوغ الحكم. ورغم أن الأسلوب قد بدا في المقدمة مهلهل النسج، غير محكم التركيب، فإنه لم يلبث أن انقلب إلى جمل شاعرية خطابية قصيرة حينما أخذ الكاتب في إبداء ملاحظاته النقدية. ولذا فإن أسلوبه قد بدا أكثر جودة عندما انصرف إلى الجدل وتوجيه النقد اللاذع. ولكي يزيد الكاتب من تأثير حجته فقد حاول أن يأتي بأحكامه النقدية في صورة أقوال محكمة تشبه النثر الشعري، وأن يصوغها في أسطر أو فقرات قصيرة تبدأ بلوازم قولية مكررة. ولذلك فإن ما في المقالة من خصائص أسلوبية يفوق من حيث القيمة ما أبداه الكاتب فيها من آراء أدبية وأحكام نقدية. والحقيقة أن هذه المقالة إنما تمثل العواد في بدء نشأته الأدبية، ولكن إنتاجه الأدبي قد أصبح بعد ذلك أكثر أصالة وعمقاً.

---

(١) «خواطر مصرحة»، ص ٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وفي الحقيقة إنه لم يُعرِّض بأدباء العرب الأقدمين إلا قلة من الكتاب السعوديين الناشئين، وذلك حينما صب هذا النفر من الكتاب جام غضبهم على التقاليد القديمة التي كانت تسيطر على الجو الأدبي في بلادهم. ومن هؤلاء الكتّاب محمد حسن عواد كاتب المقالة السابقة، ومحمد جميل حسن الذي ساءل مواطنيه قائلاً: «لماذا لا تنهضون وتنبذون عهد الآباء القدماء»[1]. ولكن معظم اللوم والهجوم الأدبي الذي نشر في أواخر العقد الثالث من هذا القرن قد وجه إلى نمط الحياة التقليدية التي كانت تعيش هذه البلاد حينئذ في ظلها، والتي كان ينظر فيها ــ كما قال الصبان ــ إلى أن «قرض الشعر وروايته، والنظر في كتب الأدب مما لا يليق، والترفع عنها من الكرامة...»[2].

وقد رثى معظم المسهمين في كتاب «أدب الحجاز» حالة الأدب في بلادهم بطريقة أو بأخرى، وذلك حينما كانوا يبدون أساهم لما أصيب به مجتمعهم من تخلف حضاري وتأخر فكري. ولكن محمد حسن عواد ــ كاتب مقالة «البلاغة العربية» السابقة ــ قد خصص جزءاً كبيراً من كتابه «خواطر مصرحة» لمناقشة الأحوال الأدبية في وطنه، وقام في سبيل معالجة هذه القضية بما لم يقم بمثله أي كاتب آخر من زملائه.

لقد تناول العواد في مقالته عن البلاغة الجدل بين قديم الأدب العربي وحديثه بصفة عامة، ولكن مقالاته الأخرى التي حواها كتاب «خواطر مصرحة» قد عالجت هذه القضية في إطارها المحلي. ومما يمثل هذا النوع الأخير مقالة «أيها المتشاعرون»[3] التي يشير الكاتب فيها إلى بعض

(١) انظر مقالة «المناجاة» في كتاب «أدب الحجاز»، ص٨٣.
(٢) «أدب الحجاز»، ص٦.
(٣) «خواطر مصرحة»، ص٣٠ ــ ٣٣.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مفاهيم الشعر الحديث التي تتسم بالرومانسية ثم يتحدى بعد ذلك «المتشاعرين» في بلاده بأن يثبتوا ما ادعوه لقصائدهم التقليدية من إبداع شعري وذلك في ضوء هذه المفاهيم النقدية الحديثة. ولم يمهل الكاتب «المتشاعرين» حتى يجيبوا، ذلك أنه قد سارع إلى إبداء رأيه في قصائدهم فقال: «أواه كل هذه أيها المتشاعرون صديد فكري، وقيء لو أنفق العمر أجمعه في مثلها لما وصل الناظم إلى الشعر. الشعر جميل، أما أمثال هذا فلا، وإن كنتم تفهمون من كلمة الشعر أنها تعني أمثال هذه المقيئات فاعلموا أنكم على بعد ٩٨٧٠٠٠ كيلومتر من الشعر»[١].

حاول العواد حينما تحدث عن «البلاغة العربية» أن يقوم الإنتاج الأدبي الكامل لأديب من الأدباء أو مجموعة من الشعراء، ولكنه انتهج في هذه المقالة سبيلاً غير تلك السبيل، ذلك أن حكمه النقدي قد بني هنا على النظر في قصائد معينة وآثار أدبية محددة. ومهما يكن من اختلاف بين الطريقتين، فإن اتجاهه في المقالتين واحد، ألا وهو تفضيل المفاهيم النقدية الحديثة على الأسس الأدبية القديمة. ويبدو أنه لم يكن له من اهتمام بالبحث عن القيم الفنية في تلك القصائد التي ذكرها في مقالة «أيها المتشاعرون» ذلك أنه قد اكتفى بالإشارة إلى عناوينها، ثم أخذ في مهاجمة ما تمثله من تقاليد أدبية. وصحيح أن عنصر التقليد قد غلب على هذه الأشعار، ولكن هذا لا يبرر ما وجهه الكاتب إلى الأدباء التقليديين من سباب في هذه المقالة وفي أماكن أخرى من كتابه. وإن من الواضح كذلك أن ما نادى به العواد من مفاهيم أدبية حديثة أقرب إلى الشعر الأصيل من تلك القصائد المقلدة التي هاجمها، ولكن نقده قد اتسم بالمغالاة والتحدي، ولم يسلم هو نفسه مما عاب به خصومة من تعصب وضيق أفق.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣١ ــ ٣٢.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ولعل العواد قد تأثر في هذا النقد التهكمي اللاذع بما صنعه ميخائيل نعيمة من قبل حين هاجم الشعراء المقلدين وقال بأن الشاعر قد انقلب «بهلواناً وأصبح الشعر ضرباً من الحلج والجمز والمشي على الأسلاك والانتصاب على الرأس، ورفع الأثقال بالأسنان ولف الرجلين حول العنق، إلى ما هنالك من الحركات التي تجيدها القردة أيما إجادة»[1]. كما أن من المحتمل أن يكون العواد قد تأثر كذلك بما كتبه عباس محمود العقاد من هجوم مماثل على الشعراء التقليديين[2].

وفي الحقيقة أن المقالة النقدية قد شغلت في أواخر العقد الثالث من هذا القرن بتقويض دعائم الحياة الأدبية التقليدية. وإن الحركة الأدبية التي قام بها العواد وزملاؤه لتعيد إلى الذاكرة تلك الروح التجديدية المتحمسة التي وجدت عند سابقيهم من كتاب مصر والمهجر. ولكن إذا كان هؤلاء الكتاب قد لقوا رداً حامياً من قبل الأدباء التقليديين، فإن تلامذتهم الأدباء في هذه البلاد قد نزلوا ميداناً كاد يخلو من الخصوم المحاربين، ذلك لأن مواطنيهم من الأدباء التقليديين لم يحاولوا صد الهجوم أو الدفاع عن موقفهم الأدبي[3]. وإن من الصعب على المرء أن يفسر صمتهم هذا، ولكن من

---

(١) «الغربال»، ص ١٢٠.

(٢) انظر «الفصول»، ص ١١٧.

(٣) لقد نشرت في جريدة «أم القرى» عشر مقالات بعنوان «خواطر مصرحة» (العدد ١١٢ في ١٣٤٥/٨/١ هـ/ ١٩٢٧/٢/٤ م) حتى العدد ١٢١ في ١٣٤٥/١٠/٦ هـ/ ١٩٢٧/٤/٨ م)، وقد نقد فيها كاتبها الذي رمز لاسمه بتوقيع «قارىء» كتاب «خواطر مصرحة» لمحمد حسن عواد. ورغم أن الاسم الحقيقي لهذا الناقد غير معروف، إلا أن من المحتمل أن يكون يوسف ياسين الذي كان رئيساً لتحرير «أم القرى» آنذاك، والذي لم يكن من بين الأدباء التقليديين في هذه البلاد، وقد رجح هذا الافتراض الدكتور منصور الحازمي في كتابه «معجم المصادر الصحفية، صحيفة أم القرى» ص ١٥٣ ــ ١٥٤.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المحتمل أن يكون من أسباب ذلك هو أن معظمهم كانوا من بين العلماء الذين كان لهم في مجالاتهم العلمية والفكرية ما يمنعهم من أن يولوا الأدب جزءاً كبيراً من وقتهم وتفكيرهم. ولذلك فإن ما اتخذه العواد وزملاؤه من أسلوب هجومي عنيف لم يكن وليد عراك أدبي، بل كان نتيجة لما شعروا به من ألم إزاء ما أصيبت به بلادهم من تأخر فكري، كما أن من الممكن أن يكونوا قد تأثروا كذلك بطريقة شعورية أو لا شعورية بالاتجاه النقدي اللاذع الذي شغف به أساتذتهم في مصر والمهجر.

ولم تدم معركة الكتاب الناشئين ضد الأدباء التقليديين سوى سنوات قلائل. وعندما صدرت جريدة «صوت الحجاز» في أوائل العقد الرابع من هذا القرن استخدمت المقالة النقدية في نفس المجال، ولكن سهام النقد لم تصوب في هذه المرة نحو خصم خارجي، بل صار الأدباء الناشئون أنفسهم يتراشقون بألسنة حداد، حيث أخذ بعضهم في نقد ما أنشأه زملاؤهم، أو بالأحرى في تلمس ما في هذا الإنتاج الأدبي من معايب. ولقد حفل هذا العقد الرابع بالمعارك الأدبية التي لم ينشب معظمها لخلاف حول مفاهيم نقدية، بل كان ذلك بسبب الأغراض الشخصية والنزعات الذاتية. ولعل أشد هذه المعارك ضراوة تلك المعركة التي نشبت عندما انتقد محمد حسن عواد قصة قصيرة نشرها عبد القدوس الأنصاري بعنوان «مرهم التناسي»[1]، فقد أثار هذا النقد حفيظة الأنصاري ومؤيديه، وانقلب النقاش إلى حرب كلامية طال أمدها، واشتد أوارها. ومن الملاحظ أن العواد قد لجأ في رد من ردوده إلى تعبيرات قاسية لاذعة تشبه تلك التي استخدمها حينما كان يهاجم الأدباء التقليديين في مطلع حياته الأدبية، إذ قال مشيراً إلى ما أورده الأنصاري وأتباعه من نقاش: «ورأى الناس على صفحات صوت الحجاز الماضي أوحالا من أقذار الذهن الكليل ليس من

---

(١) جريدة «صوت الحجاز»، عدد ٨١ (١٣٥٢/٧/١٢ هـ/ ١٩٣٣/١١/١ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

كرامة النفس، ولا من كرامة الفكر أن نتنزل إلى الإجابة عنها»[1].

وقد أصبحت أعمدة جريدة «صوت الحجاز» مشغولة بمثل هذه الخصومة الأدبية، مما جعل المحرر يدرك أن صحيفته قد صارت لساناً لحال أولئك النقاد الذين قال عنهم بأنهم قد أغرموا بالانقضاض على الآثار الأدبية «كأنهم يريدون القضاء على تلك الروح الأدبية في مهدها»[2]. فما كان منه إلا أن أعلن بأن الجريدة لن تنشر من بعد شيئاً من النقد الأدبي[3]. ولكن جريدة «صوت الحجاز» ــ التي كانت تعتمد على ما يجود به الكتاب من إسهام أدبي ــ ما لبثت أن وجدت نفسها مضطرة لافتتاح صفحاتها أمام المقالات النقدية. وقد شعر المحرر بالمرارة وهو يشير إلى هذه الحقيقة قائلاً: «. . . وعمد فريق [من الأدباء] إلى مقاطعة الجريدة إذ لم يرق لهم أن يتابعوا الطريق التي ارتسمناها للجريدة والتي توخينا من ورائها زوال الخلاف الذي تحفز بينهم وكاد يؤدي إلى سوء العواقب»[4].

وظل كتاب المقالة النقدية في خلطهم الهجوم الشخصي بالنقد الأدبي حتى نهاية العقد الرابع من هذا القرن. فمن ذلك مثلاً تلك المقالة النقدية التي نشرها محمد علي مغربي في جريدة «صوت الحجاز» بعنوان «تعريف»[5].

وإذا كانت مثل هذه المقالات النقدية المغرضة قد سادت الجو الأدبي وأوجدت شيئاً من الشك بقيمة النقد وجدواه، فليس من العدل أن يظهر الباحث هذه المقالات بصورة توحي بأنها تمثل كل ما اسهم به الكتاب في

(١) المصدر نفسه، عدد ٨٧ (١٣٥٢/٨/٢٤ هـ/ ١٩٣٣/١٢/١٢ م).
(٢) المصدر نفسه، عدد ٩٦ (١٣٥٢/١١/٥ هـ/ ١٩٣٤/٢/١٩ م).
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه، عدد ١٣٢ (١٣٥٣/٧/٢٧ هـ/ ١٩٣٤/١١/٥ م).
(٥) انظر المصدر نفسه، عدد ٣٨٤ (١٣٥٨/٥/٧ هـ/ ١٩٣٩/٦/٢٥ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

هذا الميدان آنذاك، ذلك لأن فئة منهم قد شعروا بما أحاط بهم من فوضى أدبية، وآلمهم ما آل إليه النقد على أيدي عدد كبير من زملائهم فحاولوا في أواخر العقد الرابع وفي العقد الخامس من هذا القرن أن يعالجوا النقد الأدبي بطريقة أكثر موضوعية وإنصافاً. ومن بين هؤلاء الكتاب حسين سرحان الذي تناول في مقالته «صلة الأدب بالحياة» قضية التقليد التي كان يعاني الأدب المحلي منها حينئذ. ولم يقصر السرحان حديثه على مقلدي الأدب القديم كما فعل العواد من قبل في مقالاته السابقة، بل عالج جميع أشكال التقليد وصوره. ولم يصنع مثل صنع العواد الذي خصص مقالاته لمهاجمة المقلدين والتشهير بهم، ذلك لأنه قد اتخذ لنفسه طريقة نقدية بناءة تتلمس الأصالة في الأدب، وتبحث عن عناصر الصدق الفني فيه، ولذلك بدأ مقالته قائلاً: «لست أفهم للأدب معنى ولا أقيم له وزناً ما لم تقو وشائجه بالحياة ويندمج فيها اندماجاً كلياً حتى يتبطن أسرارها ويستعرض صورها في أتم ما تكون من الجلاء والوضوح وحينئذ يكون الأدب قد أدى رسالته السامية كما يجب أن تؤدى سالمة من شوائب السخف والغثاثة والتخليط»[1].

لقد رأى السرحان أن أدب بلاده يتأرجح حينئذ بين مفاهيم الأدب القديمة والحديثة، فأراد أن يقرب بين هذه المفاهيم المختلفة، وأن يوضح حقيقة الأصالة الأدبية التي لم تكن وقفاً على جديد الأدب أو قديمه بل عرفها عباقرة الأدباء في الماضي والحاضر. وقد ناشد الكاتب زملاءه من الأدباء ألا يستوحوا ــ إذا ما أرادوا إنتاج آثار أدبية مبدعة ــ سوى الحياة التي يعيشونها، والطبيعة التي يستظلون بظلها.

وتعود أهمية هذه المقالة إلى أن السرحان قد أشار إلى موطن الداء في

---

(١) المصدر نفسه، عدد ١٨١ (١٣٥٤/٨/٨ هـ/ ١٩٣٥/١١/٥ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أدب بلاده، وحاول أن يقدم الدواء الناجع. ورغم أن آراءه الأدبية أقرب إلى نظريات الأدب الحديث منها إلى تقاليد الأدب العربي العريق، فإن مما يحمد للحركة الأدبية الجديدة في الأدب بهذه البلاد هو أن أحد روادها قد استطاع في زمن وجيز أن يتمثل نظريات الأدب الحديث وأن يوائم بينها وبين أسس الأدب العربي العريق ثم يتخذ الحكمة والحصافة في تطبيق مفاهيم الأدبين على الأدب المحلي الناشيء.

ولكي يدرك المرء مدى ما حققه السرحان من نضج في الفكر وعمق نسبي في النظرة الأدبية فما عليه إلا أن يقارن هذه المقالة بمقالة «البلاغة العربية» التي نشرها العواد قبل ذلك بتسع سنوات، لقد بهرت التيارات الأدبية الحديثة عقل العواد وكادت تعشي عينيه، فأنكر قيمة تلك الآثار الأدبية التي خلفها شعراء العربية الأقدمون، وصار لا يقدر إلا ما أنتجه الأدباء المعاصرون. أما السرحان الذي لم يسمح لأي بدعة أدبية أن تخدعه، فقد اتسم منهجه بالشمول والموضوعية حين بحث عن عناصر الجمال الفني ومقومات الإبداع الأدبي فوجدها متوافرة في الجيد من قديم الأدب وحديثه. وإذا كان العواد قد قلل من قيمة المعلقات حين وازنها بقصائد المحدثين، فإن السرحان قد أنصف الشعر الجاهلي حين قال بأنه قد: «مضت عليه الحقب الطوال وهو ما يزال يفيض بدقة التصوير وسمو الفن وبراعة الأداء».

ولعل في موقف أنصار الأدب القديم من مفاهيم الأدب الحديث ما جعل العواد يتبنى مثل تلك الآراء الأدبية المجحفة، ولذلك فإن من الممكن أن يقال بأن إنكاره لقيمة الأعمال الأدبية القديمة لم يكن مبنياً على أسس منهجية ومبادىء نقدية بقدر ما كان نتيجة لهذا الموقف، ورد فعل لذلك الرفض. ومهما يكن فإن من دلائل النجاح في حركة الأدباء الناشئين أنهم ما لبثوا غير قليل حتى وجدوا بينهم من تميز بالحصافة الأدبية والذوق

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

النقدي السليم كالسرحان الذي يرى أن استيحاء نماذج الماضي أو الحاضر، أو إيثار طريقة من طرق الأقدمين أو اللاحقين لا تخلق فناً أصيلاً، وأن الأدب «لن يكون حقيقاً بالسحر والخلود ما لم يتوقل الذرى العالية ويتغلغل في الأعماق السحيقة وينفذ إلى اللباب المطمور بالقشور التي يكتفي بها الأدباء السطحيون يحومون حولها ولا يتجاوزونها زاعمين أنهم بلغوا من الأدب غايته ونفذوا إلى صميمه».

ويبدو أن السرحان قد أراد أن يحتج في مقالته هذه على حال الأدب في بلاده، ولكنه لم يقم بمثل ما قام به العواد الذي سيطر عليه الغضب فلم يستطع أن يأتي بحجة مقنعة، كما لم يجأر بمثل تلك الشكوى الاجتماعية التي أدت بمحمد بياري ومحمد عمر عرب وأحمد السباعي[1] إلى اليأس، وجعلتهم يتخذون من الهروب حلاً لما واجههم في مجتمعهم من مشكلات. لقد تميز نقاش السرحان بالتحديد والهدوء والرزانة، أما نقد هؤلاء الكتاب فقد اتسم بالاندفاع والميل إلى إصدار الأحكام العامة. وإذا كان سبيل هؤلاء الكتاب يوحي بالتشاؤم واليأس، فإن عمل السرحان أكثر إيجابية وأقرب إلى طبيعة البناء، إذ يلقي الضوء على أسباب ضعف الأدب المحلي ثم يحاول أن يبث في نفوس زملائه من الكتاب الثقة، ويقنعهم بأن لديهم من الإمكانات ما يجعلهم قادرين على إبداع آثار أدبية أصيلة حيث يقول: «فلئن حرمتنا الطبيعة من الرياض المونقة والمناظر الفاتنة فلن تقدر أبداً أن تحرم عقولنا من التفكير وأذهاننا من التخيل، فواجب محتوم على كل أديب ممتاز يرنو إلى الكمال والمثل العليا في الأدب أن يلابس الحياة الصحيحة ويتعمق في ملابستها وأن يفسح لها من نفسه طريقاً حتى تلابسه هي وتنطوي فيه وأن يعبر عن الشيء ــ كائناً ما كان ــ بقدر إحساسه به وأن

(١) انظر ما سيأتي من حديث عن المقالة الاجتماعية.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

يتخيل الغاية قبل أن يسلك المذهب حتى لا يسير على ضلال ولا يذهب على غرر».

وإذ استخدم الكاتب أسلوباً مشرقاً فقد أتت المقالة واضحة المعنى محكمة السبك. إن حماسته للإصلاح لا تقل عن حماسة زملائه الذين أشير إليهم من قبل، ولكنه يختلف عنهم من حيث أنه استطاع أن يحد من فيض عواطفه وأن يجعل أفكاره أكثر عمقاً وأشد إقناعاً.

وقد عالجت المقالة النقدية في هذه الحقبة بعض القضايا المتصلة بتاريخ الأدب العربي، حيث كتب حمد الجاسر مقالة بعنوان «الشعر العربي في مختلف أطواره». ومن الواضح أن هذا موضوع لا تقدر على معالجته مقالة ذات صفحات معدودة، ولكن ما يحمد للكاتب هو أنه قد فطن لهذه الحقيقة فلم يسلك طريق مؤرخي الأدب، بل طوَّع الموضوع لقالب المقالة، واقتصر على إيراد الظواهر البارزة في الشعر العربي. ولا تكمن أهمية المقالة فيما أتى به الكاتب من حقائق تاريخية وآراء أدبية ولكنها تبدو في النظرة الموضوعية المتزنة التي نظر بها إلى التراث الشعري للغة العربية. إن الجاسر ليتفق مع العواد صاحب مقالة «البلاغة العربية» في إعجابه بالشعر الحديث، ولكنه يختلف عنه في النظر إلى القيم الشعرية التي حفل بها الشعر العربي القديم، فإذا كان العواد قد بدا متحيزاً نحو الشعراء المحدثين حين فضلهم على سائر شعراء العربية فإن الجاسر لم يتعصب لعصر ضد آخر بل وصف الشعر في كل حقبة بما اتصف به، واعترف بأن هذا الشعر قد بعث على أيدي المحدثين، ولكنه أوضح بأن سر نجاحهم هو أنهم قد عادوا بالشعر إلى «حالته الطبيعية الأصلية من حيث الإحساس والشعور» هذه الحالة التي تميز بها الشعر العربي في جميع مراحله المزدهرة. ولم يخدع الكاتب بلون عرضي من ألوان الأدب، ولكنه نظر إلى جوهر الأشياء وبحث عن القيم الأدبية الثابتة ثبات الانسان، فرأى أن نجاح الأدب يعتمد على ما

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

فيه من تعبير صادق عن الذات البشرية، وأدرك أن فقدان هذا العنصر سبب من أهم أسباب الضعف التي تصاب بها فترة من الفترات الأدبية.

لقد رأى العواد في مقالته عن البلاغة العربية أن المعلقات عبارة عن «منجم يحوي ذهباً في جنادل وصخور»، أما الجاسر فقد عالج الموضوع بطريقة أقل غموضاً فوجد أن الشعر في العصر الجاهلي عصر المعلقات: «لا يخرج عن حالته الطبيعية، يعبر عن العواطف أبلغ التعبير، ويثير الإحساسات الكامنة، مع عذوبة في أسلوبه، وفخامة في تركيبه، بالنسبة لأهل عصره، يصف لك الحياة الجاهلية كأنك تشاهدها رأي العين ويطلعك على غرائز أهلها بدون محاباة ولا مداهنة. أصخ لقول أميره في ذلك العصر فيبين لك جميع ما تطمح إليه نفسه بأوجز بيان وأفصح لسان:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليلاً من المال
ولكنني أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي»[1]

وفي أوائل العقد الخامس من هذا القرن دار حوار أدبي بين عبد الله عريف وحمزة شحاتة حول مدى تأثر المشاهد بالمنظر الجميل ومدته. ومما يثير الانتباه أنه لم يكن في هذا الحوار ما يمت بصلة إلى تلك المعارك الكلامية الحامية التي نشبت من قبل بين عدد من الأدباء الناشئين، ذلك لأنها قد اتسمت بالاعتدال، والتزمت آداب المناظرة. لقد ألقى حمزة شحاتة محاضرة عامة في مكة المكرمة عام ١٩٤٠ قال فيها «إن إدمان النظرة إلى صورة جميلة يفقدها شيئاً من تأثيرها، فإذا تجدد إليها النظر وارتوى الحس فقدت مقدرتها على التأثير، وإنك لتلقى المنظر يلقاك بألف معنى أول ما تلقاه، فما

---

(١) في كتاب «نفثات من أقلام الشباب الحجازي»، جمعه هاشم يوسف الزواوي وآخرون، ص ٩١ ــ ٩٨.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

تزال نفسك دائبة في تحليل معانيه حتى تنتهي بها إلى الإصفاء والإفلاس».
وحين عقب العريف على هذه المحاضرة قصر نقاشه على هذه الفقرة، ولكن لأنه قد شعر بما اتسم به النقد في بلاده من عنف، وما آل إليه في معظم الأحوال من قدح وسباب، فقد وجد نفسه مضطراً إلى أن يجعل الجزء الأول من حديثه تمهيداً قال فيه: «... ومن الخير لي أن أسرع فأزيل من ذهن القارىء ما ركزته مفاهيم النقد في بلادنا، فما أود أن يفهم أحد أني أريد التطاول أو التنقص...»[1].

وبعد أن أبدى العريف رأيه في الحركة النقدية في بلاده، أخذ في مناقشة وجهة النظر التي أتى بها شحاتة، وقد اعترف بأن في رأي شحاتة شيئاً من الصدق، ولكنه أخذ عليه ميله إلى أن يعزو جمال المنظر إلى عنصر عرضي خارج عنه ألا وهو حواس المشاهد، وحاجه قائلاً: «إن الصورة الجميلة القوية لا يذيبها ــ ونعني بالإذابة الفقدان المطلق ــ إدمان النظر وارتواء الحس، إنما يقلل من أثرها فقط من غير أن يدفع بها إلى الإصفاء والإفلاس».

لقد اشتط حمزة شحاتة في أمره حين حاول تعريف جوهر الجمال، وتحليل ما يحدث في نفس مشاهده[2] من انفعالات. ولم يدرك عبد الله عريف أنه من الصعب على المرء أن يجد جواباً واحداً شاملاً لهذه القضية الجمالية النفسية المعقدة، لذا فقد اعتمد في رفضه لرأي شحاتة على أحكام عامة لا تختلف من حيث ضعف أسسها عن تلك الآراء التي عارضها.

---

(١) «ضريبة الإعجاب»، «صوت الحجاز»، عدد ٤٤٧ (١٣٥٩/١/١٠ هـ = ١٩٤٠/٢/١٨ م).

(٢) إن الحديث هنا عن هوية المشاهد لا يخلو من غموض، ولكن شحاتة قد بدا ــ في مقالة لاحقة رد بها على العريف ــ أكثر تحديداً وتوضيحاً لطبيعة المشاهد الذي قصده. وسيشار إلى هذه الحقيقة عندما يناقش رده فيما بعد.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وإذا كان محقاً حين لاحظ بأن في رأي شحاتة شيئاً من الصدق، فإنه يجب على القارىء كذلك أن يقر بأن في نظرته شيئاً من الحق، ولكنه ليس الحق كله كما خيل إليه. ولعل السبب في أن لكل من الرأيين حظاً من الصواب، هو أن كل كاتب قد عبر عن ذوقه الجمالي وميوله الذاتية في قضية قد يكون لها من الحلول والإجابات المناسبة بقدر ما يكون هناك من المشاهدين الذين يحاولون جاهدين في أن يصوروا انفعالاتهم إزاء مشهد من مشاهد الجمال. إن الموضوع ذاتي، وخير ما يحتكم في أمره هو أن يرجع إلى الذوق الذاتي المدرب، والمزاج الشاعري، لا أن يبحث عن قاعدة عامة شاملة، ذلك لأن انفعالات الفرد ذاته نحو منظر واحد من مناظر الجمال قد تتغير بتغير الزمان والمكان.

وتكمن أهمية مقالة العريف هذه في طريقة تناوله للموضوع، فهو لم يلجأ ــ حين وجد نفسه غير مؤمن بقول شحاتة ــ إلى ما اعتاده بعض زملائه من نقد لاذع وهجوم على من يخالفون، ولكنه بدا ناقداً مخلصاً في بحثه عن الحقيقة، وناقش بطريقة ممتعة تخلو من التعالم والادعاء، ولعل في الفقرة التالية ما يكفي للتدليل على أسلوبه في النقد حيث يقول: «. . . إنما يكون الإصفاء والإفلاس عندما تفقد الصورة الجميلة جمالها فقداناً ذاتياً يسلبها جمالها، لا فقداناً شعورياً يحسه الناظر إلى تلك الصورة. وأحسب أن أساس هذه النظرة التي قعَّد لها الأستاذ هذه القاعدة، إنما هي الصورة الجميلة في الإنسان، وما فقد الجمال الإنساني ــ في الإنسان الواحد ــ تأثيره إلا لأنه لم يعد جمالاً يملأ النفس، ويروي الحس المنهوم، فقد أصيب بالفقدان الذاتي السالب، ولو ضمن لنفسه الاستدامة لظل أثره قوياً فعالاً.

لنستعرض الآن ألواناً من الصور الفكرية والطبيعية واللغوية، لنرى هل إدمان النظر فيها واستحالة ما فيها إلى دمائنا يذيب أثرها في النفوس، ويدفع بها إلى الإصفاء والإفلاس؟ هذه رقعة السماء ــ وهي صورة رائعة بسيطة من صنع الله ــ لا تزال تجذب النفوس إليها، مهما أدمن الناظر

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

النظر ودقق الفهم، فهي هي، لا تزال جميلة فاتنة وإن قويت النفوس واستشرت فلن ينال الصورة إصفاء أو إفلاس. وهذه الحقول لا تزال النفس الإنسانية مأخوذة بها بل لا تزال مسرة النفس وفرحتها».

وحينما رد حمزة شحاتة على مقالة العريف هذه وصفها بأنها قد تضمنت «نقداً دقيقاً، ومناقشة هادئة»[1]، ثم أخذ في الحديث عن نظرته التي وجه العريف إليها النقد فوصفها بأنها لم تكن سوى فكرة «ساقها الاستطراد عفواً في مقدمة حديثي». ولم يغير الكاتب من وجهة نظره، ولكنه حاول أن يوضحها ويدعمها بعدد من الأمثلة. ورغم أن حديثه ما زال غير محدد، إلا أنه قد جهد في أن يكون كلامه عن طبيعة المشاهدين أقل غموضاً وتعميماً مما ورد في محاضرته، ذلك أنه لم يقصد بالمشاهدين هنا أولئك المتفرجين العاديين، بل عنى «عشاق الشعر وهواة الفنون».

ولم يبد شحاتة متعصباً لرأيه، بل إن نقاشه قد اتسم بالهدوء والرزانة والسماحة. وقد لا يوافقه الباحث في وجهة نظره، ولكنه لا يستطيع أن ينكر ما لنقاشه المتزن من قوة آسرة، وما في آرائه من إحكام وتماسك، كما لا يملك إلا أن يعجب بروحه السمحة وأسلوبه المعبر الجميل. ولم يصبح النقد في يده سلاح هجوم، بل كان أداة لتبيان أسرار الفن، ووسيلة للتأمل الجاد. وذلك كما في قوله حين يناقش بإخلاص: «... وأي شيء في الحياة تبقى له روعة جماله، وجدة معناه في نفوسنا وأبصارنا بعد فهمه واستغراقه، والتزود بخير ما فيه وأجمله؟ إنا لو نظرنا إلى الوجود لما أصبنا معناه إلا في الإنسان، ولو التمسنا معنى الإنسان لما أصبناه إلا في الزمن الدائب، والزمن ليس إلا إحساسنا بالحركة والتحول، ولو وقف كل شيء في أعيننا لا يريم مكانه لما كان الجمال ولا كان الشعور بالسعادة.

---

(١) «بين الجمال والنقد»، «صوت الحجاز»، عدد ٤٤٩ (١٣٥٩/١/١٧ هـ = ١٩٤٠/٢/٢٥ م). وعدد ٤٥٠ (١٣٥٩/١/٢٠ هـ = ١٩٤٠/٢/٢٨ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ما معنى مظاهر الوجود في ذاتها، ما معنى الجدول المترقرق والحقل المهتز، والنسمة المنطلقة والجبل القائم والكوكب المتألق والبدر المشرق والليل الساجي؟ أليست حقيقة معانيها في نفس الإنسان ونظرته وشعوره؟ وما كنه هذه الحقيقة ومعانيها في نفسه إلا أنها جزء من الزمن المتغير وساعاته المتجددة. فالمعاني تنسب إلى مظاهر الوجود من قبيل التغليب، وإلا فهي في حقيقتها معاني أنفسنا وصور أفكارنا ومشاعرنا وتأثراتنا. وهب أنني رجل أكمه الذوق، فماذا تكون معاني هذه الصورة في نفسي؟ أو هب أنني فلاح يقضي حياته بين حقوله وعلى ضفاف جداولها المنسابة، أفتكون معانيها في نفسي ودخائل فكري هذا الجمال المعبر الأخاذ، الذي يحسه الشاعر ويساجله، ويناغيه العاشق وينافثه، ويحدثه الفيلسوف ويستنطقه؟ أم أنها تكون عندي رمز الكد وضرورة الإنتاج والنصب للعيش وضروراته القاهرة؟»[1].

واستمر العريف في مناقشة الموضوع، فنشر مقالة أخرى[2] أكد فيها آراءه السابقة، وقد استخدم في هذه المقالة ذلك الأسلوب الهادىء الذي اتخذه من قبل، ولكنه لم يأت بآراء جديدة، كما أنه قد أصبح أقل من زميله قدرة على متابعة الجدال. وكان من الممكن أن يصير ما كتبه شحاتة من رد مفصل[3] على هذه المقالة ختاماً لهذه المناظرة المتزنة لولا أن محمد عمر توفيق وأحمد عبد الغفور عطار قد شاءا أن يشاركا حينئذ في النقاش. ولم يضيفا شيئاً جديداً إلى ما سبق أن قيل حول هذا الموضوع، ولكنهما وازنا بين الآراء التي عرضها شحاتة والعريف، فحبذ توفيق وجهة نظر

(١) المصدر نفسه، عدد ٤٥٠ (١٣٥٩/١/٢٠ هـ = ١٩٤٠/٢/٢٨ م).
(٢) المصدر نفسه، عدد ٤٥٣ (١٣٥٩/٢/١ هـ = ١٩٤٠/٣/١١ م).
(٣) المصدر نفسه، عدد ٤٥٨ (١٣٥٩/٢/١٨ هـ = ١٩٤٠/٣/٢٨ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

العريف[1]، أما العطار فقد وقف إلى جانب شحاتة[2]. ورغم أن الجدل قد طال حينما أصبح لكل من المتخاصمين نصير يشايعه، فإن النقاش قد احتفظ بتلك الروح الموضوعية الهادئة التي سادت جوه منذ البداية، ولم تفقد المناظرة سمة النقد المنصف البناء في أي لحظة من اللحظات.

وإن هذا النقاش الذي تبودلت فيه وجهات النظر بطريقة موضوعية متزنة[3] لبعيد كل البعد عن ذلك النقد المتحيز والهجاء الذي حفلت به الأيام الأولى من هذه الفترة. لقد تطور النقد الأدبي في نهاية هذه الحقبة، فتحول إلى بحث جاد عما في العمل الأدبي من قيم فنية، وعناصر جمالية.

□ مقالات أخرى:

ولم يقصر كتاب المقالة إنتاجهم على المقالة النقدية بل تناولوا عدداً آخر من الموضوعات الأدبية والتأملية والاجتماعية. ولكن لأن معظم من عالجوا هذه الموضوعات في أواخر العقد الثالث من هذا القرن كانوا من بين كتاب الشباب المتحمسين، فقد كان أسلوب هذه المقالات ــ ولا سيما تلك التي تتناول القضايا الاجتماعية ــ شبيهاً بذلك الأسلوب الهجومي العاطفي الذي تميز به إنتاج الأيام الأولى، كما أن النغمة التي سيطرت حينئذ على جو المقالة الأدبية هي الدعوة المتحمسة للإصلاح الاجتماعي والأدبي والتعليمي، وقد تصدى بعض هؤلاء الكتاب الناشئين ممن لا دربة لهم في شؤون الكتابة لمعالجة القضايا التأملية والاجتماعية، ولذلك اتسمت

---

(١) المصدر نفسه، عدد ٤٥١ (١٣٥٩/١/٢٤ هـ = ١٩٤٠/٣/٤ م). وعدد ٤٥٢ (١٣٥٩/١/٢٧ هـ = ١٩٤٠/٣/٧ م).

(٢) المصدر نفسه، عدد ٤٦١ (١٣٥٩/٢/٢٩ هـ = ١٩٤٠/٤/٨ م). وعدد ٤٦٢ (١٣٥٩/٣/٣ هـ = ١٩٤٠/٤/١١ م).

(٣) وقد اتسم بهذه الصفة كذلك عدد من المقالات النقدية التي نشرت في جريدة «صوت الحجاز» ومجلة «المنهل» في أواخر هذه الحقبة.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مقالاتهم بسذاجة المشاعر، وعدم العمق الفكري، ومن بين هؤلاء الكتاب محمد البياري الذي أعلن الأهل والأصدقاء في مقالته «وحدتي» بأنه قد وجد في الوحدة ما فقده بين ظهرانيهم من عزاء وسعادة، وأنه يرفض تلك الحياة المادية التي يحيونها ويبرأ منها حيث يقول: «لا أريد يا أعزائي غير وحدتي لأكون بها بعيداً عن استنشاق تلك الجراثيم المتطايرة من مستنقعات عاداتكم وقوانينكم التافهة التي لا ترمون بها إلا إلى ابتعاد الأرواح وتقييد العواطف.

أنا يا أعزائي مغرم بوحدتي ولكن ألا ترون في غرامي شيئاً من الأسرار الغامضة؟ بلى ترون. ولكن لا تستطيعون أن تحلوا لغزاً من ألغازها لأنها ظلمة في أعينكم، والظلمة لا تقتدرون أن تحدقوا فيها لأنها تخيفكم، وقلوبكم درنة فليست ترى الأشياء إلا منعكسة»[1].

ولم تكن وحدته نتيجة من نتائج الشعور بالكآبة، ولكنها كانت في مضمونها الروحي المعنوي شبيهة بعزلة النساك. وكما أنها ليست مما يزيد الحياة فراغاً ووحشة، ذلك لأنها قد أمدته بالعزاء، وأرته «شيئاً من الخيالات السحرية التي تخلب لبي بهيبتها». ولم يشعر بقسوة الوحدة لأن له في عزلته التي اختارها لنفسه عالماً يرافقهم «متحداً معهم في العواطف والمدارك والمشارب». ولم يكشف حقيقة هؤلاء الرفاق، ولكن من الممكن أن يكونوا من بين تلك الأشباح التي تحدث عن دورها الحاني حين قال: «أليس في الوحدة من الأشباح ما تسر به العين الزائغة والقلب المروع؟». ورغم ما وجده في عزلته من رضا وقناعة، وما أبداه في مطلع حديثه من تصميم على أنه لا يريد شريكاً في وحدته، فقد بث آهة حرى في آخر المقال، حين تمنى أن يجد بين أهله وأصدقائه من يشاركه في حب العزلة فقال: «آه، من لي بمن يأنس كما أأتنس بك أيتها الوحدة القاسية».

---

(١) في كتاب «أدب الحجاز» جمعه محمد سرور الصبان، ص ١١٨ ــ ١١٩.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وإذ لجأ البياري إلى عالم الرؤى، فقد استخدم اللغة الشاعرية وسيلة للتعبير عن أفكاره التخيلية الذاتية. ولكن لأنه لا يحتمل أن يكون الكاتب الشاب قد اختار[1] هذه الحياة القاسية بسبب نزعة زهدية راسخة، فقد افتقرت خواطره إلى العمق، واتسمت نظراته بالسطحية. ولم يستطع إقناع القارىء بحقيقة دنيا العزلة التي اصطفاها، أو إغراء الخيال بالبحث عن أسرارها. وحينما تخلص من دنيا المادة التي يعيشها أهله وأصدقاؤه لم ينصرف إلى حياة الروح والتأمل انصرافاً كاملاً، بل كان يخرج أحياناً من صومعته ليعظ قومه، ويؤنبهم على ما ارتكبوا من أخطاء.

وإلى جانب ذلك فإنه لم يوفق في تبيان حجته حينما رفض الأمور الدنيوية ونصر مثاليته على مادية أهله وأصدقائه، ولا سيما أن بعض ما أخذه عليهم لم يكن خالياً من العنصر الروحي أو الذوق الشاعري، ولذلك فإنه يعرض ــ وربما كان هذا بطريقة لا شعورية ــ بعض جوانب الحياة التي يحياها أهله وأصدقاؤه بأسلوب يجعل الروحانية والشاعرية أقرب إليها من المادية حيث يقول: «أنتم تغتسلون من مياه الشلالات والجداول، وأنا أغتسل من ينابيع الحب الخالد ومجاري الحرية النفسية المقدسة.

أنتم تسيرون مع أحبائكم والذراع ملتفة بالذراع، أما أنا فأطوق خصر وحيدتي وأحلق بها في العالم الذي أتمناه، عالم الطهارة والعفاف والنزاهة.

لكم بسط العشب الخضراء تمرحون عليها، والأزهار الزهراء تتلذذون بمرائيها، وأنا لي من وحيدتي قلب رحب أمرح فيه فتتلذذ به نفسي».

ويبدو أن البياري قد أراد أن يتخذ أسلوباً مثل أسلوب المهجريين،

(١) لقد كان في الواحدة والعشرين من عمره آنذاك.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ذلك لأنه استخدم طريقة تشبه طريقة الشعر المنثور، كما أنه كان يقدم لأسطر المقالة وفقراتها القصيرة بكلمات أو عبارات خطابية مكررة. وربما كان متأثراً في هذه المقالة المتبرمة الخيالية بجبران خليل جبران الذي قال عن نفسه «وفي قلبي كره لما يقدسه الناس، وحب لما يأبونه، ولو كان بإمكاني استئصال عوائد البشر وتقاليدهم لما ترددت دقيقة»[1]، والذي كان قد أغرق «في الرومانسية والرمزية، ولون الكلام ونغمه، وألقى عليه ستارة من الضباب. . . ودخل بصوره أجواء غريبة لم تألفها اللغة العربية»[2].

ويظهر أن البياري قد تأثر كذلك بما تميزت به أقوال جبران من وعظ للبشر وتأنيب لهم. وليس معنى هذا أن البياري قد وقع في التقليد الأعمى، ولكن القارىء لا يملك إلا أن يشعر بأنه قد تأثر بالروح الجبرانية. وقد لا يستطيع الباحث أن يعزز هذا القول بالإشارة إلى موضع معين من أقوال جبران، ولكن بمقارنة هذه المقالة بمجموعة من مقالات جبران التي عمد فيها إلى تقليد أسلوب الكتاب المقدس مثل كتابه «العواصف» الذي قال فيه ــ على سبيل المثال ــ مخاطباً بني أمه: «. . . أما أنتم يا بني أمي فمستنقعات خبيثة تدب الحشرات في أعماقها وتتلوى الأفاعي على جنباتها»[3].

ويختلف التلميذ عن أستاذه في أنه لم يكن لديه ذوق حصيف يمكنه من وضع الأشياء في مواضعها، وتقدير الأمور حق قدرها، كما أن أفكاره قد اتسمت بالإبهام والغموض. ولذلك فبينما لجأ البياري ــ كما ذكر من قبل ــ إلى عزلة عاش فيها مع الأشباح والمخلوقات الخفية اختار جبران وحدة الموسيقيين والشعراء حيث قال متحدثاً بلسانه وألسنتهم: «نحن

(١) «العواصف»، ص ٦١.
(٢) عبد الكريم الأشتر، «النثر المهجري: المضمون وصورة التعبير»، ص ٢٢٠.
(٣) «العواصف»، ص ٤٤.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

نعانق الوحدة وفي ظلال الوحدة تجسمت المعلقات ورواية هملت وقصيدة دانتي»[1].

وعندما يقارن جبران حياته الروحية وحياة أصفيائه من الموسيقيين والشعراء بتلك الحياة الدنيوية الوضيعة التي يحياها «بنو أمه» البشر، فإنه يرسم خطاً واضحاً يميز ما بين الحياتين. ولكن حينما يحاول البياري أن يصنع مثل هذا يصبح الخط غير واضح، وذلك كما فعل من قبل حين لام أهله وأصدقاءه على أعمال لم تخل من الخصائص الروحية، ولم تكن مادية صرفة.

ومن المحتمل أن يكون الكاتب مخلصاً في التعبير عن اشمئزازه من الحياة التقليدية التي كان يحياها مواطنوه، ولكن يبدو أن من أهم الأسباب التي حرمت مقالته من الإحكام والوضوح هو أنه لم يعش بين مواطنيه، ويتعرف على مشاكلهم الاجتماعية والروحية، بل هرب إلى عالم مجهول لم يستطع أن يصوره تصويراً فنياً مقنعاً. ومهما يكن، فإنه يحسن بالقارىء ألا يضن بالثناء على البياري، ذلك لأنه قد حاول كتابة المقالة الذاتية التي كانت حينئذ نادرة الوجود في الأدب المحلي.

وحينما سئم محمد عمر عرب نمط الحياة التي كان يحياها قومه فر من عالمهم، وبحث في مقالته «إيه من أسطورة الحب»[2] عن العزاء في صحبة حبيبة معنوية هي «عروس الفجر». وإذا كان البياري لم يحاول إنقاذ أهله وأصدقائه من «مستنقعات» عاداتهم، فإن عرب قد دعا قومه إلى أن يشاركوه متعة الحياة الطبيعية، وحاول أن يلقنهم «دروس المعيشة العالية»، ويعلمهم «سر الحياة الهادئة»، وعندما لم يستجيبوا له جأر بالشكوى قائلاً:

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٢) في كتاب «أدب الحجاز»، ص ١٢٥ ــ ١٢٨.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

«دعوتهم لأشنف أسماعهم بأسطورة الحب، التي سمعتها من عروس الفجر، فوجدتهم عجماوات لا يسمعون. يصيخون لنعيق الغربان ويطربون من صوت الزوابع الثائرة».

ورغم هذا فإنه لم يفقد الأمل في خلاص قومه، إذ خطر بباله أن «القلب المظلم لا تنيره إلا أشعة الحب» وأن «الأدمغة السوداء لا تضيؤها إلا أغاني الحياة وأناشيد الحرية» فرتل «على مسمع منهم أسطورة الحب». لكن حينما أدرك أنهم «مخدرون بمورفين الجهل» قال: «ودعت قومي، تركت مسقط رأسي، عفت مربى طفولتي، وأخذت قيثارتي بيدي». ثم أوغل في التطواف إلى أن وجد عروس الفجر «واقفة على ربوة الحياة، مشرفة على الأفق من وراء العالم»، فعلمته «نشيد الحرية» وهدته إلى «أسرار الوجود».

ومع أن محمد عمر عرب والبياري قد وقفا في النهاية موقفاً واحداً من قومهما، فإن من الملاحظ أن عرب ما كان ليفارق مواطنيه لو وجدهم مثل قوم البياري يغتسلون «من مياه الشلالات والجداول» ويسيرون مع أحبائهم «والذراع ملتفة بالذراع» ويمرحون على «بسط العشب الخضراء» ويتلذذون بمرأى «الأزهار الزهراء»[1]، ذلك أنه لم يكن هناك شيء أحب إليه من أن يشرب قلوبهم حب الطبيعة، وأن يراهم يعيشون في ظلالها. وهناك فرق آخر بين الكاتبين، فبينما يخاطب البياري مواطنيه بل يؤنبهم من عالمه المعمور بالأشباح، ينادي عرب قومه إلى أن يشاركوه متعة الجمال الطبيعي، ولم يبدأ في لومهم إلا بعد أن أعرضوا عن دعوته. وقد فر كل من الكاتبين إلى عالم رومانسي، أما عالم البياري فقد كان مخيفاً موحشاً، ولكن العالم الذي لجأ إليه عرب كان سعيداً مشرقاً.

---

(١) «أدب الحجاز»، ص١١٨.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وكما بدا تأثير المهجريين على العواد والبياري حينما نوقشت مقالاتهم من قبل، فإن هذا التأثير واضح هنا كذلك، إذ أن عرب قد استخدم أسلوباً مثل أسلوب المهجريين من حيث شاعريته وخطابيته وقرب شبهه بالشعر المنثور. كما أنه قد تابع المهجريين في استخدام كلمات معينة مكررة في بداية أسطر مقالته. لقد كان عرب تلميذاً من تلاميذ المدرسة المهجرية، ويبدو هذا واضحاً من قصيدته التي نشرها وأعلن بأنه قد قالها «مجاراة لميخائيل نعيمة في قصيدته يا نهر»[1]، كما أن هجومه على قومه يشبه ما فعله جبران في مقالته «الملك السجين» حين سأل جبران الأسد الأسير قائلاً: «وما عسى ينفع الزئير والضجيج والناس طرش لا يسمعون»[2]، وحين أشار جبران إلى مختلف الأنماط البشرية التي تحيط بقفصه قال: «انظر فهذا كالخنزير قذارة أما لحمه فلا يؤكل. وهذا كالجاموس خشونة أما جلده فلا ينفع. وذاك كالحمار غباوة ولكنه يمشي على الاثنتين. وذلك كالغراب شؤماً ولكنه يبيع نعيبه في الهياكل»[3].

وقد حاول محمد عمر عرب أن يجعل أسلوبه موسيقياً مؤثراً، كما أنه وفق في استخدام بعض الاستعارات الجديدة مثل قوله بأنه رأى عروس الفجر «مرتدية ثوب السكون، متمنطقة بوشاح الهيبة». وقد أبدى مقدرة في دقة الملاحظة حين وصف في بداية المقالة ما رآه وسمعه وشعر به، ولكنه لم يحاول أن يبث روح الحياة في وصفه. أو أن يصور تصويراً فنياً ما أحس به حينما أثملت «خمرة الحب» روحه.

وهناك عدد آخر من الكتاب الناشئين الذين أغرموا حينئذ بالأسلوب

(١) المصدر نفسه، ص ٤٠ ــ ٤٢.
(٢) «العواصف»، ص ١٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٩.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المهجري مثل عبد الوهاب آشي[1] ومحمد علي رضا[2] وعبد الوهاب النشار[3] وعبد الله فدا[4]. وقد لاحظ هذه الحقيقة وأكدها محمد سعيد عبد المقصود أحد زملائهم حين قال بأن «النهضة الفكرية [في البلاد المقدسة] بدأت بتأثر قسم كبير من الشباب بكتاب المهجر، فعشقوا أدبهم والتهموه، وقلما تجد شاباً متعلمًا يومذاك إلا وقد تأثر بالثقافة المهجرية ولو إلى حد ما»[5].

وقد غلب التقليد على المقالة الذاتية في بداية أمرها، ولكن ما إن مضت السنوات حتى قل فيها عنصر الاحتذاء والتقليد، ورغم أن النماذج القليلة التي نشرت خلال الثلاثينات من هذا القرن مثل مقالات أحمد السباعي وعزيز ضياء ظلت تعكس شيئاً من آثار التقليد، إلا أن من الواضح أنها قد جاوزت مرحلة التقليد الأعمى، واتسمت ببعض الخصائص الفنية الأصيلة.

ومما يمثل هذا النوع من المقالة ما كتبه أحمد السباعي بعنوان «هات رفشك واتبعني»[6]، حيث طلب من صاحبه الذي يمثل سائر مواطنيه أن يأخذ رفشه ويتبعه. وقد تحدى الكاتب صاحبه أثناء سيرهما أن يخبره بما قدم أي منهما لمصلحة وطنه، وعندما أدرك أن صاحبه قد ألجم فلم يحر جواباً، أوغل في التحدي وسأله عما إذا كان يستحق الحياة. ولم ينتظر

---

(١) انظر كتاب «أدب الحجاز»، ص ٩٩ ــ ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٢ ــ ١٢٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٩ ــ ١٣٤.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٥ ــ ١٣٧.
(٥) مجلة «المنهل»، عدد ٢ (محرم ١٣٥٨ هـ = فبراير ١٩٣٩ م).
(٦) في كتاب «وحي الصحراء» جمع محمد سعيد عبد المقصود وعبد الله عمر بلخير، ص ٦١ ــ ٦٣.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الكاتب إجابته بل سارع إلى الكلام قائلاً: «لا وربك، وإذن أنت مثلي وأنا مثلك فاتبعني، اتبعني ورفشك، اتبعني إلى حيث ترقد الجثث الهامدة، هناك نواري جسمينا بين الحجون وكدا».

وإذ وجد الكاتب صاحبه غير منقاد لاتِّباعه، لجأ إلى سبيل الإغراء والإقناع، وأخذ يضرب له من الأمثلة ما يصوّر حياتهما التافهة حيث يقول: «لا يا صاحبي، كن شجاعاً ولو مرة واحدة وتعال فاعترف معي بتقصيرك، وهلم بعد إلى رفشك وامش معي.

هناك في ظل كدا نهدأ بين ركام أمسى رفاة سحيقاً وصعيداً جرزاً فهات رفشك.

هاته يا صاحبي، هاته واتبعني!

لا، لا تصعد زفرة فما أغنت الزفرات يوماً. هاك التاريخ فاستنطقه هل بلغ شعب بزفراته يوماً في الحياة شوطاً؟

ألا إنها الحياة جهاد تتزاحم فيه المناكب والأقدام، فلا تذهب نفسك حسرات على عيش لا تنعم فيه بهذا الزحام.

يا صاحبي بالأمس قرأت اسمي إلى جانب اسمك في سجل الصدقات، فما هانت نفسي هونها علي يومئذ، ولا صغرت عندي استصغارك آن إذ ذاك.

أرجل أنا وأنت؟ إذن أين هي مميزات الرجولة وأنفتها وإباؤها؟

الحق ــ والحق أقول لك ــ إنني وإياك لا نستحق الحياة، فهلم، هلم برفشك واتبعني!

اتبعني وتعال نحتفر لأنفسنا هناك في حضن الأبد مأوى نهائياً».

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

إن من الواضح أن السباعي قد اقتفى بأسلوبه الشاعري الخطابي آثار المهجريين، وقد أشار عبد الله عبد الجبار إلى هذه الظاهرة حيث قال بأن السباعي كان في أول أمره «يسير على خطى جبران»[1]، ولم يعزز الكاتب قوله هذا بالإشارة إلى أمثلة معينة. ومهما يكن فإنه يبدو أن السباعي قد تأثر هنا بجبران في مقالته «حفّار القبور»[2]. حيث يأمر «الشبح الجبار» جبران بأن يتخذ «حفر القبور صناعة تريح الأحياء من جثث الأموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم». ولم يكتف جبران بالتطوع لدفن من «يرتعش» أمام «العاصفة» بل جند أبناءه للقيام بما أمر به حيث قال: «ثم أعطيت كل واحد من أطفالي رفشاً ومحفراً، وقلت لهم اذهبوا وكلما رأيتم ميتاً واروه في التراب». ويظهر أن السباعي قد تأثر كذلك بقصيدة «أخي» لميخائيل نعيمة، هذه القصيدة التي خاطب بها الشاعر أخاه بعد الحرب العالمية الأولى قائلاً:

بل اتبعني لنحفر خندقاً بالرفش والمعول
نواري فيه موتانا
فهات الرفش واتبعني لنحفر خندقاً آخر
نوارى فيه أحيانا

إن الفكرة التي تقول بأن من لا نفع فيه ليس جديراً بالحياة، فكرة معروفة متداولة، ولذا فإنه ليس هناك ما يدعو إلى القول بأن السباعي قد أخذ هذه الفكرة من جبران أو نعيمة. إن من المحتمل أن يكون هذان الأديبان قد أثرا في شكل مقالة السباعي وأسلوبها، وأوحيا إليه بمضمونها، ولكن مما لا شك فيه أنه قد عالج الموضوع بطريقة مستقلة، وطوّع الفكرة

(١) «التيارات الأدبية الحديثة...»، ص١٥٢.
(٢) «العواصف»، ص٥ ــ ١٢.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

لموضوع محلي يختلف اختلافاً بيّناً عن تلك المواقف التي تناولها جبران ونعيمة من قبل.

لقد ألقى جبران والبياري وعرب اللوم كله على مجتمعاتهم واعتبروا أنفسهم ممن هدي إلى الطريق السوي. أما السباعي فقد عدَّ نفسه ـ حينما نعى الأحوال الاجتماعية في بلده ـ واحداً ممن يحملون وزر هذا التأخر. وقد فر البياري وعرب من واقعهم الأليم إلى عالم رومانتيكي، ولكن حينما أراد السباعي أن يصنع مثل ما صنعوا لم يلجأ إلى برج عاجي، بل دفعه الشعور بالذنب إلى أن يختار لنفسه رمساً تتوارى فيه إلى الأبد. ورغم ما في هذا الموقف من انهزام وسلبية، فإنه يبدو أكثر إيثاراً من موقف جبران الذي أراد الحياة لنفسه والقبر لغيره. لقد أدرك السباعي أنه لا يفضل أحداً من مواطنيه، ولذلك عزم على أن يبدأ بدفن نفسه، وحاول إقناع صاحبه بأن يقتفيه.

وإذ شارك السباعي في حمل المسؤولية إزاء ما أصاب بلاده من تأخر في الماضي. فقد استطاع أن يقنع القارىء بصدق موقفه وإخلاص مشاعره. فليست مقالته موعظة غاضبة، بل هي مناجاة حزينة أسر بها إلى صاحبه. وقد تميزت المقالة بالمهارة الأسلوبية، والقدرة التعبيرية التي جعلت هذه الحقائق البسيطة متلونة بمشاعر الكاتب وانفعالاته كما في قوله في تلك الفقرة التي اقتبست من قبل حيث يشير إلى ما كانت تعتمد عليه الأماكن المقدسة حينذاك من صدقات المسلمين: «يا صاحبي بالأمس قرأت اسمي إلى جانب اسمك في سجل الصدقات، فما هانت نفسي هونها علي يومئذ، ولا صغرت عندي استصغارك آن إذ ذاك».

ولم يطغ التأثير المهجري على أصالة السباعي في معالجة هذا الموضوع. كما لم يحرم أسلوبه من أن يتسم بشخصيته المستقلة، ذلك أنه قد جمع إلى الطريقة المهجرية عناصر أسلوبية عربية قديمة. وإذا كان

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

عبد الكريم الأشتر قد أشار إلى أن جبران ونعيمة تأثرا بأسلوب الإنجيل[1]، فإن من الملاحظ هنا أن أسلوب السباعي قد خضع كذلك لتأثير ديني، إذ تأثر بالقرآن الكريم حيث قال:

«لا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه أمراً. ثاني عطفك. رفاة سحيقاً وصعيداً جرزاً. فلا تذهب نفسك حسرات».

ورغم أن السباعي قد اهتم اهتماماً كبيراً بجمال الأسلوب ورشاقته، وحرص على أن يستخدم لغة شاعرية خطابية، فإن هذا لم يشغله عن الاحتفال بالمضمون، ذلك أنه اهتم كذلك بتطوير الفكرة، وتوضيحها.

لقد تناول البياري وعرب قضايا اجتماعية مشابهة للقضية التي عالجها السباعي، ولكن يظهر أن السباعي كان أحسن حظاً منهما، ذلك أنهما قد كتبا مقالتيهما السابقتين على حين كان الاتجاه إلى تقليد المهجريين قوياً غلاباً، أما السباعي فقد أنشأ مقالته في وقت بدأ فيه التأثير المهجري يخمد ويتلاشى، ولهذا استطاع أن يتمثل مبادىء المهجريين ويطوعها للتعبير عن تجاربة، ومعالجة المشاكل التي كانت تحفل بها بيئته.

ومع أن الروح المهجرية في معالجة القضايا الأدبية والاجتماعية قد سيطرت على عدد غير قليل من الكتّاب في هذه الحقبة، فإن هذا التأثير لم يكن شاملاً، ذلك أن نفراً من الكتّاب ظل يعالج القضايا الاجتماعية بطريقة مستقلة تتسم بالهدوء والموضوعية. ومن هؤلاء الكاتب أحمد خليفة النبهاني الذي تناول مشكلة الصراع بين الجيل القديم والجيل الجديد. وإذا كانت السمة الغالبة على معظم ما كتب في هذه الفترة هي الانتصار للجديد والهجوم على قديم العادات وعريق القيم، فإن النبهاني قد وقف موقفاً

(١) كتابه السابق، ص ٢٠٤ و ٢١٣.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وسطاً حين نظر إلى القديم والجديد، فهو يدعو أنصار القديم إلى ألا يقدسوا كل ما جاء به القدم، ولكنه يأخذ على الشباب حماستهم وغرورهم ونظرتهم الجزئية إلى الأمور حيث يقول: «ألف بعضنا التفكير والتأني حتى في الضروريات من الحياة بصورة زادت عن الحد حتى بلغ منها الضد، فكانت عقبة في سبيل التقدّم والرقي ظناً منهم أن التقدّم العصري الحديث بلاء على الدين وقضاء على مكانتهم، فحرصاً منهم على المبادىء نبذوا كل ما جاء به العصر الحاضر إلا ما قل.

وليس ما يتخوفونه ويتوقعونه أمراً وهمياً، لا بل هو أمر حقيقي مشاهد من بعض من تملك الطيش نفوسهم وظنوا أنهم وصلوا منتهى المجد وأن العلم كله ما عرفوه، وأن كل قديم سخيف حتى ما يتعلق بعضه بالدين وآدابه ونبذوه وراءهم واتخذوا من تمسّك به موضع سخرية، وأخذوا يكابرون ويغالطون في الحقائق حتى أنفسهم. وما ذلك إلّا من قصر باعهم في العلوم، فلو درسوا العلم وأخذوا منه النصيب الوافر لعلموا أنه غير مناف للأدب والدين، ولميزوا بين الغث والسمين. كما وأنه ليس كل ما جاء به العصر الحاضر إلحاد وزندقة، كما وأنه لو ألقى المفكر نظرة إمعان إلى الماضي لوجد فيه من العوائد السيئة ما ينافي آداب الدين وليس من يعمله جاهله فحسب، بل ربما يندفع إليه منتقده بحكم العادة فيعمله وهو كاره له معترف بسخفه»[1].

وقد يبدو للقارىء أن النبهاني مال إلى القدماء وتحامل على الشباب حين لامهم وأنبهم، ولكن يظهر أن ما دفعه إلى هذا هو ما رآه من افتتانهم حينئذ بالجديد، ونفورهم من القديم، وارتفاع صوتهم فوق أصوات آبائهم وأسلافهم. ومهما يكن فإنه لم يعد في مخاطبته للشباب أسلوب النصح

(١) «صوت الحجاز»، عدد ١٣٦، (١٣٥٣/٨/٢٦ هـ = ١٩٣٤/١٢/٣ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ومنهج التبصير حيث قال: «ألا يعلم بعض المغالين من أحداثنا أنهم بذر آبائهم وأنهم غرس أثمر بتعهد معلميهم سقياه، وأنهم فرع هذا الأصل، وقبيح من فرع يشتم أصله وهو لم يكن، بل لم يتكون حساً ومعنى إلّا بهم وبواسطتهم».

وإذا كان الأسلوب العاطفي التخيلي قد سيطر حينئذ على جو المقالة الاجتماعية، فإن النبهاني قد بدا واحداً من أولئك الذين لم يخلبهم الجديد، ولم يقصروا أنفسهم على القديم، إذ نظر نظرة موضوعية إلى ما في الأمرين من محاسن ومساوىء، فأتت مقالته هادئة تستوحي الواقع الإنساني، ولا تتأثر بالرومانتيكية المهجرية. ولم يكن النبهاني بأقل وطنية من كتّاب المقالة الاجتماعية العاطفية، ولكنه كان أكثر إدراكاً للطريقة الصحيحة في معالجة قضية كقضية القدماء والمجددين، ولذلك دعا إلى أن يفهم كل فريق حقيقة الفريق الآخر لكي يسود الوئام، وتستفيد الأمة من خبرة القدماء وحماسة المحدثين فقال مخاطباً الفريقين: «أما آن لنا أن نتدبر كيفية رد جماحنا عن الاسترسال فيما يوجب الشحناء ويقضي على الوفاق، ونتدارك أمرنا بالتكاتف والتآزر قولاً وعملاً ببث العلوم والمعارف، والحث عليها لا سيما وقد أشيدت المدارس لهذا الغرض ليحل الوفاق مكان التنافر ويسود التفاهم بين الطبقات، ولنسلم من المروق والجهل. وإن من الصغار علينا عدم معرفتنا مكانتنا من بعضنا ومن العلم وكيفية ارتباطنا واتحادنا وتقدّمنا من غير خنوع ولا تبجح. وليعذر بعضنا أولادهم لعدم إتمامهم علومهم من جهة ومن أخرى لطيش الشباب الذي هو شعبة من الجنون إن لم يكن الجنون بعينه».

لقد اختار العواد والبياري وعرب وكثير من زملائهم أن يعالجوا ــ كما ذكر من قبل ــ موضوع إصلاح أمر الأمة وإخراجها من جهالتها بطريقة تخيلية غامضة متشائمة، ولكن بعض معاصريهم لم يسلكوا

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

طريقهم، بل تناولوا هذا الموضوع بأسلوب هادىء مباشر، ومن هؤلاء عبد العزيز الفضل الذي كتب مقالة بعنوان «جهود الشباب» فلم يتخذ الموقف مناسبة لمهاجمة الشيوخ وإعلاء شأن الشباب، بل استبشر بالخطوات المتزنة التي خطاها شباب بلاده، دون أن يعرض بالقدماء أو يحاول أن يؤصل للعدواة بين الشباب والشيوخ. وقد استخدم أسلوباً يلائم ما تتطلبه المقالة الاجتماعية من موضوعية وكبح لجماح الخيال حيث قال: «بدأ الشباب يستيقظ من سباته وشعر بالواجب نحو بلاده، وبعد أن كان خائر العزيمة ضعيف القوى بدأ الشباب يستيقظ لأنه شعر بضرورة إعادة مجده التالد، فمضى في سبيله دائباً، يحفز الشعب إلى التقدم والنهوض استعداداً لملاحقة الأمم الراقية والدخول في مصافها، ويستفز الرجال العاملين في البلاد ليكونوا له عوناً ويداً فينهضوا نهضة رجل واحد، لا يعمل إلّا لمصلحة البلاد العامة بغير توان ولا كسل، ويستجمع العناصر التي عليها قوام الحركة الأدبية. وقد عز على الشباب أن يرى هذا السباق على أشده ثم يقبع جامداً. فما كاد يرى ذلك كله بعين اليقظة والانتباه حتى شمر عن ساعدي الجد، فإذا أكثريته الساحقة قد اندفعت تتلمس سبل الهداية والرشاد، وتتطلب التعاليم الراقية لتجرب حركتها الأولى لعلها تجدي نفعاً وفائدة فكانت لتدرجها بهذه الحركة السريعة أثراً كبيراً في تكوين البعثات الفنية وإيفاد الإرساليات العلمية وتطوّر الحالة الأدبية»[1].

ومهما قيل عن سيطرة الروح المهجرية على معظم الكتّاب الناشئين فإنه يبدو أن الحركة الأدبية في هذه البلاد كانت أكثر طموحاً من أن تظل مجرد انعكاس للتيارات الأدبية التجديدية في الأدب العربي، ذلك أنه بعد

(١) «نفثات من أقلام الشباب الحجازي»، ص١٤٣ ــ ١٤٤.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أقل من عشر سنوات منذ صدور كتابي «أدب الحجاز» و«خواطر مصرحة» ــ اللذين يمثلان هذه الحركة في مرحلتها الأولى ــ شهد الميدان الأدبي نوعاً آخر من الكتّاب ممن تأثروا بما في الثقافة العربية من أسس قديمة وعناصر جديدة، ولكنهم لم يقتفوا آثار السابقين أو اللاحقين، كما لم يؤثروا مدرسة أدبية جديدة على أخرى، بل حاولوا جاهدين أن يعبّروا عما في أنفسهم بطريقتهم الخاصة.

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن المقالات التي اتسمت بالتقليد وافتقرت إلى النضج قد ظهرت في كتب مطبوعة مثل «أدب الحجاز» و«خواطر مصرحة» أما المقالات التي توافر لها شيء من الإحكام الفني والعمق الفكري فقد نشأت في ظل الصحافة. وإلى هذا النوع الأخير تنتمي مقالة حمزة شحاتة «هل الحروب تطوي الحضارات أم تنشرها؟»[1]، هذه المقالة التي أسهم بها الكاتب للإجابة عن الاستفتاء الذي طرحته مجلة «المنهل» إبان الحرب العالمية الثانية.

لقد أوحت الحرب التي كانت تدور رحاها آنذاك بهذا الاستفتاء الذي قصد به أن يبحث في مدى تأثير الحرب على الحضارة. وبما أن حمزة شحاتة قد نظر إلى الموضوع نظرة كلية شاملة، فقد انصرف إلى التأمل الفلسفي حيث وجد أن الحرب المسلحة ليست سوى عنصر من عناصر ما يسمى بظاهرة «التنازع من أجل البقاء». هذه الظاهرة الطبيعية التي رآها تتمثل في أشكال متعددة من نشاط المخلوقات جميعها، وقد بدأ شحاتة بالإشارة إلى الحياة الإنسانية كمثل لما يخضع لهذا النظام الكوني فقال: «. . . نبدأ بالإنسان، أليس هو ميدان حرب تتطاحن فيه القوى وتتنازع؟ عاطفة تقهر عاطفة، وخالجة تهزم خالجة، ولمحة فكر تهدم عقيدة، حب

(١) مجلة «المنهل»، عدد ٥، (ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ/ مايو ١٩٤٠ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

جديد يطرد حباً قديماً، صداقة تموت وأخرى تحيا، ذكرى تلحد وذكرى تولد. هذه لغة الحرب ومظهرها الطبيعي...

والفكر، أليس ميداناً يموج بآثار الصراع القائم فيه، فكرة تصرع فكرة، وخيال يخنق حقيقة، ونعسة تغلب يقظة؟ القوانين، أليست مظهر الحرب بين العقل المبصر، والعقل الفطير، أو بين الإدراك اليقظ المسلح، وبين الإدراك الفطري الأعزل؟ المخترعات، الآلات، أليست لغة حرب العقول وتطاحنها؟ الخطب، المحاضرات، القصص، الأشعار، المقالات، الفنون، أليست كلها لغة النزاع على البقاء، والسيادة والسيطرة، أو لغة دفاع الموت والركود في عالم النفس والخيال والحركة الخفية؟».

وإذ عزا شحاتة كل ما في حياة الإنسان من بناء وتطور إلى غريزة حب البقاء، فقد استمر في ضرب المزيد من الأمثلة المستمدة من عالمي الحيوان والنبات لكي يبينّ أن كل شيء يدين بتطوره لهذه الغريزة الكامنة التي لولا وجودها لأصبحت الحياة «برزخاً بين دنيا ساكنة وأخرى هامدة معطلة». وبعد أن أشار إلى عدد من تلك المظاهر الكونية المحسوسة التي تتسم بالهدوء والمسالمة، تابع الحديث ليوضح وجهة نظره في الحرب التي هي أشد جوانب هذه الظاهرة الطبيعية عنفاً فقال: بأنما هي: «في حقيقتها الكونية من عمل القوة المتطلعة إلى استكمال معانيها ونفوذها، فهي لغة الحياة والفطرة».

وبعد أن ناقش الكاتب طبيعة الحرب من زاوية تساعد في تأكيد فكرته، وعزز أقواله بفيض من الأدلة والأمثلة، أخذ في الحديث عن علاقة الحرب بالحضارة في نهاية المقال حيث تساءل قائلاً: «أية حضارة لم تكن وليدة حرب ونزاع؟». وهو لا ينكر أن الحرب ليست دائمًا عاملاً حضارياً، إذ ربما أصبحت عاملاً من عوامل الهدم، ولكنه يقول بأنها إنما تهدم «حضارات ناعسة، وحضارات كليلة وحضارات شائخة وحضارات يدب

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

فيها وهن الفناء»، وذلك لكي تقيم مكانها ما هو أرسى أساساً وأصلح للبقاء.

وقد عالج شحاتة هذا الموضوع الجدلي بمهارة، وعزز وجهة نظره بأدلة ملائمة استقاها من الماضي ولكنه أوغل في التفاؤل حينما تنبأ بأن الحرب التي دعاها «لغة الحياة» لن تهدم سوى الحضارات الناعسة الكليلة الشائخة، إذ ما لبثت الحرب أن أصبحت ــ بعد سنوات قليلة من حديثه هذا ــ خطراً محدقاً يهدد الإنسانية بالفناء، وينذر كل ما بنته البشرية خلال تاريخها بالخراب.

ولقد اتسمت هذه المقالة بالنضج الفني، وخلت مما شاب بعض المقالات السابقة من تقليد وغموض. ويشبه حمزة شحاتة في عمله هذا زميله حسين سرحان من حيث أنه كان يكتب في وقت لم تعد تستحوذ فيه على الكتّاب الشباب فكرة الهجوم على القيم التقليدية في القضايا الأدبية والاجتماعية، ومن حيث أنه قد هيىء له أن يمارس الكتابة في جو هادىء مكّنه من أن يفيد من الوسائل الثقافية المختلفة التي أتيحت له. لقد وفق الكاتب في أن يسهم إسهاماً أصيلاً يدل على شخصيته ويحمل طابعه الخاص. ولا يختلف أسلوبه في معالجة هذه القضية عن نهج أحد معاصريه الذي تحدث عن الحب حديثاً جريئاً ثم وصف طريقته في تناول هذا الموضوع قائلاً: «. . . ولننظر إليه [الحب] نظرة مجردة لا ندعي فيها فضل الابتكار والسبق، ولا نزعمها تقليداً أو نقلاً، بل نقول إنها نظرة نشأ الإحساس بها في العقل والنفس، وألقت عليها نظرات الناس وتجاربهم ضوءاً سابغاً، وقامت من تجاريبنا الكثيرة وتفكيرنا المستقل على أساس قوي»[1].

---

(١) «نظرة في الحب»، «صوت الحجاز»، عدد ١٩٥ (١٣٥٤/١١/٢٥ هـ = ١٩٣٥/٢/١٨ م). وصفت الجريدة صاحب المقال بأنه «كاتب بارز لم يشأ ذكر

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ولا تكمن أهمية المقالة في مضمونها فحسب، بل تكمن كذلك في أسلوبها المنطقي المحكم الذي استخدمه الكاتب في التعبير عن آرائه وتوضيح وجهة نظره، لقد أظهر شحاتة ميلاً إلى التأمل الفلسفي، حين نظر إلى الحرب باعتبارها ظاهرة كونية شاملة، ولم يقصر حديثه على جوانبها المباشرة المرعبة. وقد تميزت المقالة بالوضوح والنقاش المنطقي واتصف الأسلوب بالدقة والمهارة في التعبير. كما أن استخدام الطريقة الجدلية قد جعل الموضوع أكثر حيوية، وأقل إملالاً. وقد وفق الكاتب كثيراً في تبيان ما تضمنته المقالة من قضايا فلسفية ومسائل بيولوجية.

وحينما تصدى حمد الجاسر للإجابة عن هذا الاستفتاء الذي طرحته مجلة «المنهل» متسائلة «هل الحروب تطوي الحضارات أم تنشرها» نهج نهجاً يشبه ذلك الذي اتخذه حمزة شحاتة من حيث أنه لم يكتف بالنظر إلى جوانب الحرب الظاهرة ونتائجها القريبة المباشرة، بل نظر إليها من خلال وظيفتها الكونية الشاملة، واستطاع أن يدرك محاسنها ومساوئها. ورغم أن الكاتب قد عدد مضار الحرب ومنافعها، فإن من الملاحظ أنه قد أوجز حينما أشار إلى المضار، وحرص على الإطناب والتفصيل عندما تحدث عن المنافع، وربما كان سبب ذلك أنه غلّب عنصر المنافع على جانب المضار، ومهما يكن فإنه لم يشأ أن يأتي برأي قاطع منذ أول وهلة، بل لجأ إلى أسلوب المناظرة حيث أخذ ينظر إلى الموضوع من زوايا متعددة فقال: «يستطيع المجيب أن يقول «نعم» مستدلاً بما يشاهد الآن من اشتغال العالم بالحرب وبالاستعداد لها، وبالانصراف لكل ما يتعلق بها انصرافاً هو بدون شك من أعظم العوامل، وأقوى الأسباب لطي الحضارة.

اسمه» ومهما يكن، فلعله ألا يكون من باب التخمين أن يقال بأن هذا الكاتب هو حمزة شحاتة نفسه، وذلك لأن كثيراً من الخصائص الأسلوبية في هذا المقال شبيهة بتلك التي اتسمت بها مقالته عن الحرب والحضارة.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ويستطيع أن يقول «لا» مقدماً بأن تنازع البقاء قاعدة مسلم بصحتها، وأن الحرب للعالم هي بمثابة النار للحديد تصهره وتزيل زيفه، ومستنتجاً بأن الحرب والحالة هذه ــ من ضروريات الحضارة التي لا بد منها، ومعتبراً ما تسببه من فقر وهلاك وموت، أموراً ضئيلة، بالنسبة لما يعقبها من تقدم وقوة، قائساً ذلك على كثير من المظاهر الكونية العظيمة، كاصطخاب البحر وهيجانه، ومده وجزره، تلك الأفعال التي تتوقف عليها حركة الملاحة التي تعتبر من أقوى عوامل تقدم الحضارة. وكهطول الأمطار هطولاً ينشأ من جرائه أضرار جسيمة، ولكنها لا تعد شيئاً عند مقارنتها بمنافعه التي هي أعظم من مضاره، ومستدلاً بكثير من الحروب العظيمة التي غيّرت مجرى التاريخ تغييراً لولاه لأصبح كثير من الحضارات العريقة في القدم في دوائر محدودة ضيقة»[1].

ويبدو أن فكرة التنازع من أجل البقاء لم تسيطر على تفكير حمزة شحاتة وحده بل كانت ذات تأثير قوي على الجاسر الذي بنى مقالته عليها، وجعلها أساساً من أهم الأسس التي اعتمد عليها نقاشه. ولم يبين الكاتب رأيه حتى الآن، ولكن من الواضح أنه هو الذي قال «لا» في الفقرة السابقة، حيث نفى أن تكون الحرب طاوية للحضارة وذلك لأنه قد أعلن رأيه صريحاً في آخر المقالة حين قال: «أما أنا فأقول ــ معبراً عن رأيي الذي طلب مني... إبداءه ــ مرحى لك أيتها الحرب، وسقى الله أولئك الجدود القائلين: بسفك الدما يا جارتي تحقن الدما! وأما أنت أيتها الحضارة الزائفة فإلى حيث ألقت».

وتكمن أهمية هاتين المقالتين مقالة الجاسر وشحاتة في أنهما تشهدان بأن المقالة التأملية لم تعد دائرة في فلك التقليد أو متسمة بالسذاجة العاطفية

(١) مجلة «المنهل»، عدد ٦، (جمادى الأولى ١٣٥٩ هـ/ يونيو ١٩٤٠ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وعدم النضج الفكري، وأنها تبرزانها وقد شبت عن الطوق، فتميزت بالاستقلال الفني، وعمق النظرة وشمولها.

وكما أن الحرب الدائرة آنذاك قد أوحت إلى شحاتة والجاسر بهذا النوع من المقالة التأملية الجادة، فقد اتخذ عبد القدوس الأنصاري من الحرب مناسبة لتجربة المقالة الذاتية المرحة التي قل وجودها آنذاك في الأدب المحلي، حيث كتب مقالة بعنوان «بين مدافع المقاومة وطائرات الانقضاض»[1] ويوحي العنوان بأن المقالة ليست سوى حديث عن الحرب وشجونها، ولكن يبدو أن الكاتب ــ الذي طال عليه أمد الحرب ــ قد سئم العيش في ظلها، وبرم بها فأراد أن يهرب من واقعها ويتحدث عن معركة ساخرة خاضها مع عدو لا يهاجم في الميدان، بل ينقض عليه كلما اعتكف في مكتبه، أو أوى إلى فراشه حيث تدور «معارك حامية الوطيس، يأخذ بعضها برقاب بعض... وحرب عوان لا تنتهي مرحلة منها إلّا إلى مرحلة جديدة.

كم مرة أجلس في غرفتي هادىء البال، فتميل النفس إلى مطالعة كتاب من الكتب أو صحيفة من الصحف، أو قضاء عمل من الأعمال، وإذا عدو شديد الوطأة يفاجئني بهجماته العنيفة، حالما أتجه إلى ما أريد، فيحول بيني وبين أي عمل مفيد، وتتمثل هجمات هذا العدو المغير في تشكيلات الطائرات المنقضة والطائرات المطاردة التي يصوبها شطري بدقة وإحكام، وسرعة وانتظام، فهو عدو جوي محض، وأخطر الحروب على الإنسان ما كان منها جوياً. وهكذا ينقض علي ذلك العدو المتوحش بطائراته السريعة أفواجاً بعد أفواج، حتى يبالغ في إزعاجي وبلبلة أفكاري.

---

(١) المصدر نفسه، عدد ٥ (ربيع الثاني ١٣٦٠ هـ/ أبريل ١٩٤١ م). وقعت المقالة بتوقيع «باحث»، وقد ذكر عبد القدوس الأنصاري نفسه أنه كان يوقّع بعض مقالاته بتوقيع «باحث»، «المنهل»، عدد ١١، ذوالقعدة ١٣٩٢ هـ/ ديسمبر ١٩٧٢ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وكم مرة آوي إلى الفراش الوثير لآخذ قسطي من الراحة بعد النصب والعياء وبعد المجهود الفكري العنيف، وإذا بهذا العدو الخطير يشعر بوجودي في المكان بما لديه من آلات الإحساس الدقيقة، فما هي إلا لحظة حتى يتبدل هدوئي إلى قلق وسكوني إلى حركة، وأملي إلى ألم بما يبديه من هجوم شديد يقوض عنفه المنهك كل أطناب الراحة والاطمئنان المنصوبة أوتادها في جوانب النفس المكدودة».

لم يبين الكاتب كنه خصمه، ولكن من الواضح أنه إنما كان يتحدث عن البعوض ذلك العدو المنزلي اللدود. ولأنه قد أخفى حقيقة هذا العدو، فقد تمكن من أن يستخدم لهذه المعركة مصطلحات الحرب البشرية وأجواءها. وأن يجعل المتعة الفنية أقوى، والسخرية بالحرب البشرية أشد تأثيراً. وقد وفق الكاتب في أن يعبر عن هذه المواقف تعبيراً مرحاً ساخراً، وأن يصف المعارك وصفاً مليئاً بالحيوية والحركة، كما في قوله حين تحدث عن مداورته للعدو ومصارعته إياه.

«وما كنت في يوم من الأيام كسولاً في مقاومته، وما كنت متوانياً عن البحث وراء وسائل إبادته وكفاية شر سلاحه الجبار، فكم مرة منذ نشوب الحرب بيني وبينه أعملت التفكير في ابتكار الأساليب الفعالة للقضاء عليه بحرب خاطفة جوية مثل حربه، وبقوة خارقة تفوق قوته، وعمليات أحسن تنظيمًا من عملياته وأوسع أثراً من هجماته، وأوفر خطراً من غاراته، وأتذكر أن من ألوان المقاومة التي وفقت إليها بادىء ذي بدء أني جعلت من باطن كفي ذات مرة قنابل يدوية محطمة، أهوي بها هوياً وبغير هوادة ولا رفق على أم رأسه بمجرد ما تهبط طائراته على الأرض وبمجرد ما ينشب مخالبه في المسام، فتارة أكون الظافر المنتصر فأباهي بهذا الفوز المبين، وتارة أخفق في تسديد الضربة وإحكام الرمية فيباهي عدوي بهذا الإخفاق، ويذيع على الملأ إخفاقي بزئيره المرعب الذي يرسله في الفضاء

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

حينما يطير ناجياً بروحه التي تعز عليه ويعتز بها، وحينئذ أتحمس وأظل أتعقب ببصري حركاته في طيرانه علني أهتدي إلى المطار الذي يأوي إليه أخيراً لأحكم له الضربة النهائية، وما أزال أرسل وراءه البصر، وما يزال هو يرتفع وينخفض ويتلوى في طيرانه عن عمد ودهاء ليختفي عني بهذا الالتواء حتى يغيب عن نظري في أجواز الفضاء القريب، وهنا أنتظر الغارة الجوية التالية، أنتظرها وقد سرت في الجسم قشعريرة انتظار هولها المرير، فقد عرفت أن العدو سيأخذ بالثأر، وأدركت أنه لا شك يتهيأ للانتقام. وما هي إلا لحظة وجيزة وإذا بأسرابه تعود أقوى قوة وأوفر نشاطاً، وأشد حماسة من ذي قبل: فتتناوشني من كل جانب، وتعمل في أنيابها الحادة من كل طرف. فأتألم وتبتدىء المقاومة الجديدة. وهكذا تظل المعركة في مراحلها العديدة...».

وقد تحدث الأنصاري عن عدو لا يؤبه له، ولكنه وفق في أن يرسم صورة كاريكاتورية سخر بها من الحروب البشرية الفتاكة، واستطاع أن يستأثر بانتباه القارىء، وأن يغريه بمتابعة أحداث هذه المعركة التي أجاد في إضفاء روح المرح عليها: «والحاجة أم الاختراع، فقد دفع بي عامل الرغبة في المقاومة المجدية إلى أن أجعل من سبابتي وإبهامي طرابيد تصوب إلى هيكل الطائرات المغيرة بمجرد جثومها على الأرض، فإما أن أنجح في المقاومة والدفاع، وإما أن أفشل، فإذا بالعدو يعود إلى سيرته الأولى في الأخذ بالثأر، مزدرياً بوسيلتي الثانية، معلناً استهزاءه بفشلي المريع بما يطلقه من أجنحة طائراته من أزيز فظيع.

وأخيراً وبعد كل تفكير، وبعد كل لأي ــ إن صح التعبير ــ اهتديت إلى اكتشاف وسيلة حاسمة من وسائل التحطيم المبيد لجموع هذا العدو المتوافر النفوس والعتاد، مهما تكاثفت جموعه، ومهما تكاثرت بنوده، فاسترسلت في إتقان كيفية الاستعمال لهذا السلاح الجديد الذي يفوق

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

سلاح الطابور الخامس حتى تمرنت على ذلك وعرفت وجوه القضاء به على العدو أينما جاءت غاراته وكيفما حومت طائراته، ودأبت على إدخال التحسينات الجمة على هذا الاكتشاف، ولا أكتم القراء أني بهذا الاكتشاف توصلت إلى الفتك بالعدو اللدود وإلى إدخال الرعب في قلوب جنوده. ويتمثل اكتشافي هذا الذي أتبرع بإذاعة أنبائه على جمهرة القارئين، في مروحة غليظة أقبض على طرفها بجمعي بحرص وقوة وانتباه متظاهراً بعدم الشعور بوجود أسراب المهاجمين التي تحوم حولي في كفاح شديد لتطمئن بذلك التغافل فتتكاثر وتتراكم، فإن لعدوي إحساساً دقيقاً جداً به يعرف حركاتي وسكناتي، ولولا عنايتي بتضليله وتوهيمه أني لا أراه ولا أراقبه إذن لفات المراد، وحينئذ حينما تتم جماعاته، وتنتظم معداته، وتتشابك أسرابه بالقرب مني وتتلاحم وتتكاثف جنوده الهابطون بالمظلات وتتلاطم أهوي بمروحتي الجبارة على الجمع الغفير فإذا الجمع قد تمزق شذر مذر، فمنه الصريع المضرج بدمائه، والجريح الملتصق بالتراب ولا أمل له في السلامة لأني سأجهز عليه حالاً، والكسير الذي تطايرت أشلاؤه، والهارب المرتعب من هول الصاعقة فهو يطير في سرعة جنونية ولا يلوي على أحد مكتفياً من الغنيمة بالإياب، ومن السعادة بالهزيمة.

ثم بعد انتهاء هذه المعركة الحاسمة أظل قابضاً على مروحتي الجبارة منتظراً قدوم فلول جديدة من هنا وهناك، وأمثل دور المتغافل لئلا يشعر عدوي بحركاتي وسكناتي، وبعد برهة وانتظار طويل أسمع أزيز طائرة أو طائرتين منفرتين قادمتين من هنا أو هنالك، وسرعان ما أوجه إليهما الضربة الخاطفة فإذا بهما تهويان ونار الموت تشتعل فيهما أيما اشتعال. . .».

ولم يقلل من القيمة الفنية لهذه المقالة إلا تلك الخاتمة القصيرة التي صور بها الكاتب مقالته بصورة لغز من الألغاز حيث طلب من القراء اكتشاف أمر عدوه وحل رمزه فقال:

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

«وأخيراً فإني أترك إلى ذكاء القارئين أمر الاهتداء إلى معرفة هذا العدو اللدود الذي لا يكاد يخلو منه مكان، ولا يسلم من هجماته إنسان. كما أترك لألمعيتهم أيضاً الاهتداء إلى معرفة تلكم الطائفة التي تتطوع دائمًا لنقل جثث هذا العدو الهامدة المتساقطة في الميدان بعد كل معركة من المعارك السالفة».

لقد اعتمد جمال هذه المقالة وإمتاعها على ما فيها من لمح وإيهام، ولذلك كان إقحام هذه الخاتمة إخلالاً بالمهارة الفنية التي توافرت للمقالة، وإضعافاً لأثرها في نفس القارىء المتذوق.

ومهما يكن، فلا شك أن الأنصاري قد وفق في استخدام أهم عنصر من عناصر المقالة الذاتية المرحة حين أصبح كالسمير لا يثقل على جليسه بجاد الأمر، أو يلح عليه بقبول الرأي بل يمتعه بحديث النفس، ويسامره بأسلوب شيق يجمع بين الروح الفكهة والسخرية الذكية، كما أنه قد أسهم بهذه المقالة في سبيل تأصيل المقالة الذاتية المرحة في الأدب المحلي، وشارك في توجيه الفن المقالي نحو الأصالة والنضج الفني.

ومن بين هؤلاء الكتاب المجيدين الذين برزوا على مسرح الحياة الأدبية في أواخر العقد الرابع من هذا القرن حسين سرحان كاتب تلك المقالة النقدية الرصينة السابقة حول صلة الأدب بالحياة. وليست مقالته الذاتية «الطائف في ذكرياتي»[1] سوى مثال آخر لما حققته مقالة هذه الحقبة من نضج وتطور.

ولم يقنع السرحان وقد رزق حساً أدبياً رفيعاً بأن تكون مقالته هذه حديثاً عن المظاهر المألوفة في حياة الطائف المصيف الجبلي، ولكنه آثر أن يصف ما كان لديه من ذكريات حلوة عندما كان طفلاً في التاسعة من

(١) المصدر نفسه، عدد ٨، ٩ (رجب وشعبان ١٣٦٠ هـ/يوليو وأغسطس ١٩٤١ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

عمره، ولم يجعل الكاتب مقاله وصفاً مفصلاً لصيف قضاه هناك، ولكن يبدو أن طبيعته الفنية قد أوحت إليه بأن يقصر القول على حادثتين شاعريتين، أولاهما رحلته من مكة إلى الطائف على ظهر الجمل، والثانية تلك اللحظات الطليقة السعيدة التي قضاها مع رفاق صباه بين بساتين الطائف ووديانه.

لقد ظل الجمل في أيام طفولته ــ كما كان منذ القدم ــ أهم وسيلة من وسائل الانتقال، ولذا بدأ بما كان يبدأ به أجداده شعراء العربية الأول حيث وصف رحلته بصحبة راحلته. وإذ نقل قارئه إلى جو شاعري ملائم، وأثار في نفسه الحنين إلى ذلك الماضي البعيد، فقد أخذ يروي له ذكرياته البسيطة الساحرة مطمئناً إلى أنه سيتقبل ما يلقي به إليه قبولاً حسناً.

وترسم المقالة صورة حية معبرة للصبي الذي نصب نفسه قائداً للقافلة، ثم ما لبثت نشوة الطفولة أن جرفت ما تقمصه من شخصية وقور حينما رأى معالم الطائف تلوح في الأفق البعيد. ولعل أكثر المشاهد صدقاً وجمالاً صورة الأطفال وهم يدلفون نحو باب البستان بهيبة ووقار، حتى إذا ما اختفوا عن عيني البستاني خلعوا لباس الوقار، وأخذوا يعبثون هنا وهناك ويقطفون ما شاؤا من شهي الثمار. قال الكاتب:

«وما أنفك أذكر ــ فيما أذكر ــ كيف كنا نذهب في العشي والإبكار إلى الحدائق، وهي مفتحة أبوابها، فنأكل ما نشاء من الأثمار، ونحمل ما نشتهي من أطايبها، لا صاد يصدنا عنها، ولا مانع يمنعنا منها.

كنا كالعصافير تنطلق من أوكارها خماصاً فتعود بطانا، وكنا نعبث ما حلا لنا العبث، حتى إذا ولجنا باب بستان بدا علينا ما يشبه الرصانة والوقار، فما نتمكن من الثمار والأزهار والجداول إلا وقد طاشت الأيدي الثقيلة، وذهب الحلوم الرصينة، وأطلت العيون الصغيرة من حماليقها،

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ونظل في قصف ولهو كقصف الرومان يوم دخلوا قرطاجنة لولا أن قصفنا برىء، أما قصفهم فقد كان فيه ما فيه.

ويأتي البستاني يهدد ويتوعد، فيجد غصونا عريت من الثمر، وفروعاً عطلت من الزهر، وآثار أقدام صغيرة طارت بأهليها كالفراش، فيغتاظ في غير عناء، ويذهب إلى غير لقاء».

وإلى جانب ما أبدعه السرحان من جو مرح بهيج يشبه مزاج طفل أغرم بالعبث وانتشى بالسعادة، فإن مقالته قد حفلت بالتعبيرات الشعرية، وليس في هذا ما يؤاخذ عليه، ذلك أن المقالة ذات طبيعة شعرية، إذ ليست في حقيقتها سوى تذكر لأيام الطفولة السعيدة. ولذلك فإن هناك جمالاً أخاذاً في استخدام الأسلوب البلاغي كما في تشبيهه هجوم الأطفال على البساتين بالعصافير «تنطلق من أوكارها خماصاً فتعود بطاناً» وكذلك وصفه للبستاني الذي ضاق بالأطفال ذرعاً فأتى «يهدد ويتوعد فيجد غصوناً عريت من الثمر، وفروعاً عطلت من الزهر وآثار أقدام صغيرة طارت بأهليها كالفراش».

وليس جمال الأسلوب كل ما لهذه المقالة من مزايا، ذلك لأنها تشبه في حيويتها ومرحها وحلاوتها الطفل الهانىء الذي تصوره. ورغم أنها قد وشيت بالأسلوب الشعري، فإن جو البساطة الذي أحاط بها، ونغم الحديث العادي في أسطرها قد جعلاها توحي بالعفوية وعدم التكلف. ولذلك فإن نجاح الكاتب لا يقتصر على مهارته في إخفاء أثر الصنعة الفنية، بل إنه قد وفق كذلك في أن يشعر القارىء بتلك المتعة الفنية التي لا توجد إلا في المقالة الذاتية الحميمة. وإن مقارنة بين هذه المقالة وتلك المقالات الأولى التي سبقت الإشارة إليها والتي ظهرت في العقد الثالث من هذا القرن لتجعل القارىء يدرك مدى ما حققته المقالة الأدبية من تطور ونضج.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وفي ختام هذا الفصل فإن من الممكن أن يقال بأن تطور المقالة في هذه الفترة قد مر بمرحلتين متداخلتين. أما المرحلة الأولى فتمثلها تلك المقالات المبتدئة المقلدة التي نشرت في بداية العهد السعودي واتسمت بالنقد الهجومي، ومهما كانت معايب هذا النوع من المقالات، فإنها قد بعثت الحياة في التقاليد الأدبية الراكدة، ومهدت لظهور المرحلة الثانية في أواخر العقد الرابع وأوائل العقد الخامس من هذا القرن حين أصبحت المقالة أكثر نضجاً من حيث النواحي الفنية والفكرية.

ولم يكن أسلوب هذا النمط الأخير من المقالات بأقل مستوى من أسلوب المقالة التي ظهرت في المنطقة الغربية خلال الفترة الهاشمية، بل إنها قد فاقتها من حيث البناء الفني، وأصبحت ألصق بفن المقالة الأدبية من تلك المقالات الهاشمية التي اقتصرت على المجال السياسي، واستخدمت لأغراض آنية مباشرة. لقد كانت الأخطاء الكتابية التي وقع فيها الأدباء المحدثون أول أمرهم أكثر من أخطاء سابقيهم من الكتاب الهاشميين، ولكن هذا قد يعود إلى أنه كان على الأدباء المحدثين أن يعالجوا بأقلامهم الفتية قضايا أدبية واجتماعية حيوية لم يحاول سلفهم أن يمسوها. وما على المرء لكي يدرك أهمية الزمن بالنسبة لتطور المقالة الأدبية، إلا أن يقارن ما أنتج من نثر أدبي قبل عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م) بتلك المقالات التي نشرت أواخر هذه الحقبة مثل مقالات حمزة شحاتة وحسين سرحان وعبد القدوس الأنصاري.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الفصل الثاني

المحاولات الأولى لكتابة القصة القصيرة

شهد الأدب العربي نهضته الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولقد حقق الأدباء حينئذ شيئاً من الأصالة في تلك الفنون الأدبية التي عرفها الأدب العربي من قبل كالشعر والمقالة. أما الفن القصصي الحديث الذي وفد إلى الأدب العربي على أثر اتصاله بالأدب الغربي فقد تأخر إسهامهم فيه، وكان إنتاجهم في هذا المجال أقل نجاحاً وأصالة مما حققوه في ميدان الشعر والمقالة.

ورغم أن نهضة الأدب الحديث في هذه البلاد قد تأخرت من حيث الزمن عن نهضة الأدب العربي المعاصر في مراكزه الرئيسة بمصر وبلاد الشام، إلا أن الأدب المحلي لم يكن بدعاً من الآداب العربية الحديثة فقد مر بأطوار مماثلة لما مرت به هذه الآداب، واستطاع أن يحقق شيئاً من الأصالة في مجال الشعر والمقال، ولكنه لم يحقق مثل هذا في ميدان الرواية والقصة القصيرة والمسرحية.

وفي أوائل هذا القرن كانت الأنواع الأدبية التقليدية مسيطرة على الأدب في هذه البلاد، ولم يكن إسهام الكتاب في مجال الفن القصصي سوى محاولات في فن المفاخرة والمقامة، كتلك المفاخرة التي نشرها الشيخ أبو بكر خوقير عام ١٣٣٠ هـ (١٩١١ ـ ١٩١٢ م) بعنوان «مسامرة الضيف

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

بمفاخرة الشتاء والصيف»، والمفاخرة التي أجراها الشاعر إبراهيم الأسكوبي بين القطار والباخرة. وفي الحقيقة إن المحاولة الأولى في ميدان الفن القصصي الحديث لم تأت إلا في عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) وذلك حينما أصدر عبد القدوس الأنصاري روايته القصيرة «التوأمان». وقد شهدت السنوات الخمس عشرة التالية ظهور رواية قصيرة أخرى هي قصة «الانتقام الطبعي» لمحمد نور الجوهري، وصدور عدد كبير من القصص القصيرة.

ولذلك فقد فاق ما أسهم به الكتاب في ميدان القصة القصيرة من حيث الكم ما أنتجوه في مجال الرواية خلال الفترة التي انتهت بنهاية الحرب العالمية الثانية، وربما كان يعود ذلك إلى ما لقيه فن القصة القصيرة من تشجيع ورعاية في ظل الصحافة، ولا سيما جريدة «صوت الحجاز» ومجلة «المنهل». ومهما يكن الأمر، فإن معظم هذا الإنتاج القصصي القصير يشبه روايتي «التوأمان» و«الانتقام الطبعي» من حيث الإلحاح على الغرض التهذيبي التعليمي، ومن حيث كونه لم يتجاوز المرحلة التجريبية الأولى.

ويبدو أن بعض الكتاب لم يكونوا شاعرين بما بين القصة القصيرة والرواية من فروق فنية. ولذلك فإنهم لم يدركوا بأنه كما تختلف القصة القصيرة عن الرواية في الطول، فإنه يجب أن تختلف عنها كذلك في الخطة والبناء والهدف. لقد فقدت معظم القصص القصيرة التي أنتجت في هذه الفترة ما تقتضيه أسس القصة القصيرة من الاقتصار على فكرة واحدة، تعالج من أجل تحقيق هدف واحد معين، وتتناول بطريقة محكمة تسعى بالحادثة إلى نتيجتها المنطقية. ويفتقر معظم هذه القصص كذلك إلى ما تتسم به القصة القصيرة عادة من التركيز على شخصية واحدة تصور من خلال اشتراكها في حادثة معينة، أو موقف قصصي واحد. ولذلك فقد بدت هذه القصص كما لو كانت مختصرات روائية أبرزت في شكل قصص قصيرة.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ومما يمثل هذا النوع من القصص القصيرة، قصة «رامز» التي كتبها محمد سعيد العامودي[1]. وهي قصة يتيم تربى في بيت خاله، ولكنه اضطر إلى ترك هذا البيت عندما توفي الخال وساءت معاملة الزوجة الأرملة له. وبما أن رامزاً كان تلميذاً مبرزاً فقد رحبت به مدرسته ليكون ضيفاً في قسمها الداخلي. وواصل رامز دراسته حتى أصبح طبيباً. وقد افتتح بعد ذلك عيادة طبية في مدينة بعيدة عن مسقط رأسه. وفي إحدى الليالي أتاه غلام توسل إليه أن يذهب معه لإنقاذ حياة أمه المريضة. وتبع رامز الغلام إلى حي من الأحياء القذرة حيث فوجىء بأن المريضة لم تكن سوى أرملة خاله. ولم يستطع رامز أن يصنع من أجلها شيئاً، فقد كانت في الرمق الأخير من حياتها، ولكنه رعى ابن خاله، وأشرف على تعليمه حتى صار طبيباً مثله.

لقد حاول العامودي أن يصور حياة هذه العائلة في بضع صفحات، وكان من نتيجة ذلك أن بدت أحداث قصة رامز عبارة عن حلقات مصطنعة لا تثير شوق القارىء، ولا تستأثر بانتباهه. وقد اعتمد الكاتب على الصدفة في تكوين ذروة القصة ونهايتها، إذ جعل رامزاً يلتقي بأرملة خاله الشريرة فجأة على حين كانت تعاني سكرات الموت. والحقيقة أن هذه خاتمة مفتعلة توحي بأنه لم يؤت بها إلا لتؤكد موعظة القصة، وترضي في نفوس بعض القراء عاطفة سطحية ساذجة.

وكان من المفروض في هذه القصة أن تعالج موقفاً من مواقف الصراع الإنساني، ولكن الكاتب لم يتعمق في نظره إلى الطبيعة البشرية، ولذلك لم يلجأ في تعليل أحداث القصة إلى التفسير النفسي، بل حاول الإتيان بالحكم العامة والأقوال المألوفة التي تلقي الضوء على بعض الجوانب في الحياة الإنسانية.

---

(١) انظر: «صوت الحجاز» عدد ٢٤٤ (١٣٥٥/١١/٢٧ هـ/ ١٩٣٧/٢/٩ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وقد حاول العامودي أن يصور الجو المحيط بالأحداث، وأن يلون مشاهد الطبيعة باللون المأسوي الذي اصطبغت به القصة. وذلك لكي يوجد في نفس القارىء ما يلائم الموقف من مشاعر وانفعالات، ولكن عاب هذه المحاولة أن افتقر أسلوب الكاتب إلى الحيوية، واتسم بالتقريرية، فلم يستغل ما في القصة من لحظات التأزم النفسي استغلالاً فنياً، كما لم يضف الروح المأسوية على المواقف التي قصد بها أن تكون مثيرة للمشاعر، كتلك اللحظة التي اكتشف فيها رامز أن المرأة المحتضرة لم تكن إلا عدوته القديمة، إن المشاعر التي قال الكاتب بأن رامزاً قد أحس بها حينئذ لم تحلل ولم تصور أمام القارىء بطريقة قصصية تحمله على المشاركة العاطفية. وما زاد الكاتب على أن أخبر القارىء بما حدث بأسلوب تقريري لم ينجح في إيجاد ما أراده من تأثير فني.

ومما يزيد من صعوبة تقويم قصة رامز هو أن المرء لا يدري بأي نوع من الأنواع القصصية يلحقها. لقد سميت هنا قصة قصيرة لقصر حجمها، وانتمائها إلى الفن القصصي، والحقيقة أن لها قصر الأقصوصة وتسلسل أحداث الرواية، ولكنها تفتقر إلى تركيز الأولى، وشمول الثانية وعمقها. وبالإضافة إلى ذلك فإن الكاتب لم يأت بما يضفي شيئاً من الجدة والإمتاع على ذلك الموقف القصصي المكرر المعاد حيث يقاسي الشرير ألوان المذلة والعذاب بينما يلقى الطيب كل نجاح وهناء. ورغم أن قصة «رامز» أقل صراحة في إعلان غرضها التهذيبي من قصتي «التوأمان» و «الانتقام الطبعي»، إلا أنه من الواضح أنها إنما تنتمي إلى هذا اللون من القصص التهذيبي.

ولم يستمر العامودي في محاولاته القصصية، بل انصرف إلى كتابة المقالة، ولعله قد أدرك أن المقال أكثر الأشكال النثرية ملاءمة لإبراز قدراته الفكرية والأسلوبية. ولا شك في أن مكانته بين كتاب المقالة الأدبية تفوق كثيراً تلك المنزلة التي تحتلها تجاربه القصصية.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وتمثل قصة «رامز» ـ كما ذكر من قبل ـ عدداً كبيراً من قصص هذه الحقبة، ولكنها ليست مثالاً لكل ما أنتج حينئذ من قصص قصيرة، ذلك لأن عدداً من هذه القصص قد حفل بشيء من الخصائص الأدبية، واتسم بقدر من النضج في الفكر، وطريقة المعالجة الفنية. وستناقش في الصفحات التالية نماذج من هذا اللون القصصي.

فمن ذلك أولاً تلك القصة القصيرة المرحة التي نشرها محمد علي مغربي بعنوان «ملابسه المسروقة»[1]. وهي تعتبر بدعاً في قصصنا الذي أنتج في هذه الفترة، إذ لم تكن مأسوية في موضوعها أو تهذيبية في غرضها. وتدور القصة حول بطلها أحمد الذي اعتاد أن يقضي ليالي الصيف الحارة بعيداً عن العمران في مقهى «العم بدوي» الذي كان غريباً في طباعه، مضحكاً في تصرفاته. وبما أن أحمد كان يعاني في إحدى الليالي من الحمى، فقد استغرق في نومه دون أن يتدثر بالغطاء. وعندما أيقظته برودة الهزيع الأخير من الليل أخذ يتلمس اللحاف ولكنه وجد نفسه مدثراً بالغطاء. وقد اعتقد أحمد بأن هذا من صنع «العم بدوي»، ولذلك شكره في الصباح، وأراد أن يضاعف له الأجر، ولكنه دهش حين أخبره العم بدوي بأنه لم يفعل شيئاً من هذا، وزادت دهشته حين لم يجد أثراً لثيابه أو محفظة نقوده. وإذ أدرك أحمد بأن أحد اللصوص قد طرق المقهى أثناء الليل، فقد قال معزياً نفسه بأن هذا اللص «ظريف على كل حال».

وتبدأ القصة بفقرة قصيرة تصف الجو الحار الخانق الذي خيم على مكة في ليلة من لياليها القائظة. وقد نجح هذا الوصف في إضفاء جو من الخمول والكآبة يلائم ما كان قد أصيب به أحمد آنذاك من مرض الحمى، ويبين سبب ذهابه للمبيت في المقهى الخلوي، ولكنه لا يناسب الجو المرح

(١) مجلة «المنهل»، عدد ٨ (رجب ١٣٥٨ هـ/أغسطس ١٩٣٩ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الذي وقعت فيه الحادثة القصصية. ومهما يكن، فإن جو الخمول والكآبة سرعان ما تلاشى حين أخذ الكاتب في رسم صورة مفصلة مضحكة للشخصية الثانوية شخصية العم بدوي. وعندما رجع الكاتب إلى الموضوع الرئيسي حاول أن يعيد الجو الكئيب الذي صوره في البداية، ولكنه لم يوفق في أن يجعل عودته هذه مؤثرة مشوقة، ولعل من أسباب ذلك أنه استخدم طريقة إخبارية جافة في وصف حالة أحمد حيث قال: «وكان أحمد أفندي في هذه الليلة التي قدمنا الحديث عنها في صدر الكلام مصاباً بحمى خفيفة إثر إجهاد عنيف...».

ويختلف البناء الفني في هذه القصة عن قصة «رامز» التي سبقت الإشارة إليها، فقد حدد المغربي قصته هذه من حيث الزمان والمكان والحدث، فاستطاع بذلك أن يجعلها مركزة متماسكة. ولم يقلل من التركيز فيها سوى ذلك المشهد الهزلي الذي صور فيه العم بدوي، ذلك لأن الكاتب قد ترك مجرى الحدث الرئيسي واستطرد في وصف شخصية ثانوية لم تكن لآرائها وأفعالها صلة وثيقة بالحكاية نفسها. وقد كان هذا من أهم الأسباب التي جعلت القصة توحي للقارىء ـ خلافاً لما أراده المؤلف ـ بأنها إنما تدور حول العم بدوي. ومهما يكن فإنه لا بد من القول بأن معظم ما في هذه القصة من مرح وجمال إنما يعود إلى هذا الاستطراد الذي وفق الكاتب فيه إلى أن يرسم شخصية فريدة الطباع، غريبة الأطوار.

ويصور الموقف المرح الذي يساوم فيه العم بدوي بائع الحطب مظهراً بديعاً من مظاهر الحياة الصحراوية، هذه الحياة التي لم تجد بين كتاب هذه الفترة من يهتم بها أو يستغل عناصرها. وإلى جانب هذا فإن الكاتب قد استخدم لغة عفوية معبرة تلائم هذا الموقف حيث قال:

«وكانت للعم بدوي مع الفلاحين من البدو الذين يردون بمقهاه في طريقهم إلى المدينة وعودتهم منها حوادث طريفة فيها كثير من الشذوذ

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

والطرافة، وكان له مع الحطابين حوادث أخرى، وكان صاحبنا من نزلاء هذا الفندق الخلوي المزمن، ويروي لأصدقائه أنه في طول هذه السنوات التي قضاها نزيلاً بمقهى العم بدوي لم يره يتفق مع أحد الحطابين على صفقة من الصفقات التي يدخل فيها مساوماً والتي تبدأ في كل مرة بالمناقشة الآتية:

العم بدوي: ولد بدو.

الحطاب: إيه.

العم بدوي: كم الحمل؟

الحطاب: ريالين.

العم بدوي: (وكأنه لم يسمع): نزله وخذ نصف ريال.
(الحطاب ينظر إليه شزرا، ويمضي في سبيله دون جواب).

العم بدوي: أنت خبل؟ خذ اثني عشر قرشاً.

الحطاب: يسهل الله.

العم بدوي: ريال إلا ربع.

الحطاب: ما هو للبيع.

العم بدوي: أيش هذا الفراش اللي تحت الحمل؟ منين جايبه يا حرامي يا... وينطلق الحطاب لسبيله مشيعاً بلعنات العم بدوي واتهاماته دون أن يلتفت إلى شيء من هذره.

وعلى الأيام عرفه البدو جميعاً، فكان الخبثاء منهم يجعلون من الحديث معه مادة للعبث والفكاهة، وكان الآخرون لا يلقون إليه بالا، فهو

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

يساومهم ويرد على نفسه ويطلب إنزال الحمل بنصف ريال ويزيده قرشاً وقرشاً من تلقاء نفسه والبدوي ينكت الأرض بعصاه، وبصره على بعيره أو قافلته الصغيرة دون أن يلتفت إلى هذا الشيخ المخبول كما يسمونه، وييأس العم بدوي من المساومة فينطلق في اتهاماته وسبابه إلى أن يجيء بدوي آخر وتعود الأسطوانة من جديد».

إن أكثر أجزاء القصة نجاحاً هي هذه الصورة الهزلية المرحة التي صور بها العم بدوي صاحب المقهى، فقد كانت شخصيته أكثر نمواً وإقناعاً من أي شخصية أخرى في القصة، ولكن الدور الثانوي الذي قام به بالنسبة لمجرى الأحداث في القصة كان أقل من أن يسمح للكاتب بأن يخصه بمثل هذه العناية التي أضفيت عليه، ولا سيما أن أحمد الشخصية الرئيسة لم يلق من اهتمامه مثل ما لقيه العم بدوي. ولذلك فإن أحمد لم يكن أبرز شخصيات القصة، بل كان أبرزها العم بدوي الذي يأسر القارىء بشخصيته الغريبة الجذابة فتظل ذكراه عالقة في الذهن أمداً طويلاً. ولو دارت القصة حول العم بدوي بدلاً من أحمد لكان الجهد الفني الذي بذله الكاتب في إبداع هذه الشخصية المرحة أكثر جدوى وأشد تأثيراً.

وإلى جانب ما افتقدته القصة من التركيز على شخصية واحدة وموقف واحد، فإنها قد افتقرت إلى الوحدة في الجو القصصي والمزاج النفسي. إذ كان جوها كئيباً في البدء ثم أصبح مرحاً حين تقدمت الأحداث قليلاً، ولكن هذا كله ما لبث أن انقلب إلى جو من الإثارة غير المرحة في نهاية القصة. وليس في قصة قصيرة كهذه مجال لمثل هذا التغير الجذري في الجو والمزاج.

ورغم هذا فقد تميز الأسلوب القصصي بالسلاسة والعفوية، واتسم الحوار بالمرح والحيوية. وقد لجأ الكاتب إلى استخدام بعض الكلمات

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

والتعبيرات العامية مثل ما ورد في الفقرة التي اقتبست من قبل، ولكنه لم يستخدم إلا ما كان ذا دلالة خاصة ولون محلي معين. والحقيقة أن الذي شاب السرد القصصي وقلل من إمتاعه هو ما وجد لدى الكاتب من ميل إلى إقحام بعض التعليقات التي لم تكن سوى استطراد عاق سير القصة مثل قوله في الختام: «نعم ظريف هذا اللص الذي أشفق عليه من البرد والحمى فأسدل عليه الغطاء وأحكمه وخفف عنه ثقل ملابسه بما حوت من نقود ومتاع».

وقد نشر محمد أمين يحي في الفترة نفسها قصة «دموع العيد»[1]، وهي قصة تصور ليلة ليلاء سهرت فيها أرملة فقيرة حول فراش ابنها الوحيد سعيد الذي لم يبل من الحمى إلا مع اطلال الفجر فجر يوم العيد. وتبدو الحبكة القصصية بسيطة، ولكنها لا تخلو من لحظات التأزم التي حاول الكاتب أن يسبر أغوارها. ولا شك في أن اقتصار الكاتب على شخصيتي الأم وابنها، ومراعاته ــ بطريقة عفوية ــ للقيود التي تفرضها وحدات الزمان والمكان والحدث قد أفاد القصة، وجعلها محدودة تركز على تلك المواقف النفسية التي اعتبرها جديرة بالتناول والمعالجة.

وقد راوح الكاتب بين أسلوب السرد المباشر وبعض الطرق التعبيرية الأخرى مثل الحوار الداخلي وتصوير الماضي من خلال الذكريات التي تمر بذهن الشخصية القصصية. ولذلك استعرضت الأم أحداث حياتها وحياة ابنها وذكريات زوجها المائت بطريقة تشبه طريقة تيار الوعي. ورغم أن أسلوب الكاتب هنا كان أكثر تكلفاً وأقل عفوية مما اتسم به أسلوب تيار الوعي في نماذجه الأصيلة المعروفة، إلا أن المرء سيزداد تقديراً للكاتب إذا ما أدرك أنه قد قل من حاول هذا الأسلوب فيما سبق من إنتاج هذه الفترة.

---

(١) المصدر نفسه، عدد ٤ و٥ (ربيع الأول وربيع الثاني ١٣٥٩ هـ/ أبريل ومايو ١٩٤٠ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وإنه لمما يحمد للكاتب أن اختار اللحظات المناسبة التي كان يدع فيها الأم تنساق في أحلام يقظتها، وتستعيد أحداث ماضيها. وكانت هذه الأحلام والأحداث تدور حول ابنها الذي أصبح من أجل ذلك محور القصة وشخصيتها الرئيسة.

وحرص الكاتب على أن يصف البيئة التي وقعت فيها أحداث القصة، فأشار إلى الحارة الفقيرة المظلمة التي كان الفتى وأمه يقطنانها، والحجرة الحقيرة التي كان يتقلب فيها الشاب المحموم على فراشه القذر، كما أنه قد صور الليلة القارسة العاصفة التي كانت تلف الكون من حولهما. ولا شك في أن هذا الوصف قد أفاد في إيجاد جو قصصي يلائم بؤس الأم وعناء ابنها. وتجدر الإشارة كذلك إلى الطريقة الأسلوبية التي استخدمها في تكوين علاقات تشبه العلاقات الإنسانية بين شخصيتي القصة وبعض الأشياء المحيطة بهما. وبهذا استطاع أن يجعل لهذه الأشياء قيمتين: فهي تحقق وظيفتها المادية العادية، ولكنها قد شخصت إلى جانب ذلك وكادت تتحول إلى أناسي. ولهذا فإن المصباح الخافت الضئيل الذي كان «يغالب ثورة الريح وعبثها» يتخذ قيمة رمزية، ويبدو للقارىء كما لو كان شخصية ثالثة تعيش مع الأم وابنها. ولعل في النص الآتي ما يوضح هذه الخصائص قال الكاتب:

«في منزل بعيد منعزل، يجثم في آخر حارة فقيرة مظلمة، وفي حجرة واطئة باردة الجدران، مبعثرة الأثاث، عض عليها الدهر، وتركها تغالب ثورات الزمن وقد تهشمت نوافذها إلا واحدة صمدت في وجه الرياح، وبهت لونها من وهج الشمس وحرارتها... مصباح ضئيل، تلعب النسمة به، فيظهر نوره حيناً ويختفي حيناً ويرسل شعاعه الضعيف من ثغرات في الحجرة مفتوحات.

كانت تجلس في هذه الحجرة ــ امرأة نحيلة اختلط جمالها بغضون

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الأيام وانطفأ من عينيها بريق كان يلمع ويتألق وتدلت على جبينها شعرات دب إليها البياض. وهزل منها جسم، كان في الماضي فتياً ممتلئاً. تغالب عواطفها الثائرة كما يغالب المصباح الموضوع أمامها ثورة الريح وعبثها، كأنه يأبى إلا البقاء لينير لهذه المسكينة غياهب العتمة الحالكة.

وبجانب المرأة سرير تحطمت رجله الرابعة، كالحيوان الأعرج، عليه لحاف اختلطت القاذورات التي عليه بدموع تسيل... فيه أخراق من عمل «العث» الذي اتخذ منه مسكناً، وأبى إلا أن يفتح له فيه نوافذ وثغرات!

وعلى هذا السرير، جثة تضطرب بين الحياة والموت، تغالب الأخير وتتشبث بالأولى تهتز حيناً وترتعش، وترتفع عن مستوى اللحاف، وتنقبض وتنكمش حيناً منطوية مفجوعة وتنحط حتى تلتصق باللحاف، كأنها تخشى شيئاً تخاله يهوي عليها، والرعشة تلعب بهذا الحطام، والحمى تغالبه وتصهره صهراً، وهو بعد فتى، في ميعة العمر، وفجر الشباب...».

وقد حاول الكاتب أن يجعل أجواء الطبيعة ومناظرها ملائمة لأحداث القصة، فليلة الشتاء المظلمة العاصفة التي وصفها في بداية القصة تناسب حالة المرض والبؤس والكآبة، ولكنه أوغل في استخدام هذا العنصر الوصفي حين أراد عند نهاية القصة أن يوائم بين مظاهر الطبيعة وحالة البشر التي أعقبت شفاء الفتى من مرضه، فقال بأن فجر هذه الليلة القارسة العاصفة كان «يتنسم عن نسمة لذيذة معسولة... وانتشر شعاعه الفضي فغمر الغرفة بنوره ينفذ من خلال النوافذ والفجوات، والنسمة تهب عليلة فاترة تداعب الاجسام وتدغدغها فتغرق في نشوة الكرى، غافية سكرى». وربما كان هذا الوصف جميلاً من حيث الأسلوب الشعري، ولكنه يفتقر إلى الصدق الفني، إذ يصور جواً من أجواء الصيف ويتسم بالصنعة والافتعال.

ومن الملاحظ أن الحوار في هذه القصة يختلف عن الحوار في قصة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المغربي السابقة من حيث أنه لم يكن هنا حواراً سلساً طبيعياً يصور الشخصيات. ويبعث الحيوية في القصة. فقد اختيرت له لغة أدبية منمقة مصطنعة أفقدته بساطة الحديث العادي وعفويته، ذلك أن من يصاب بالإرهاق النفسي، أو الإعياء الجسمي يتسم حديثه عادة بالتوتر والتقطع وعدم التحبير. وربما تميز كذلك بعدم الترابط والغموض، وفي الواقع إن المحموم المتهالك، والأم الخائفة الفزعة لن يهتما كثيراً بالبحث عن أسلوب أدبي رشيق يعبر عن خواطرهما. ورغم هذا فإن سعيداً الذي أضنته الحمى وأنهكه الضعف بحيث كان من الصعب عليه أن ينطق بضع كلمات حين طلب الدواء من أمه ما لبث أن انساق بعد شرب الدواء مباشرة في حديث تأملي طويل عاب فيه الطب والأطباء. وفي الحقيقة إن نغمة الجد في نقده والترتيب المنطقي في أفكاره قد جعلا موقفه موقفاً لا يحتمل أن يقع في حالة مثل حالته ولا سيما أنه سرعان ما ألقى برأسه فوق الوسادة وقد أنهكه الإعياء. قال الكاتب:

«واستفاقت [الأم] من ذكرياتها على همهمة تصدر من فراش المريض، فدنت منه تتلمسه وتجس نبضه، فإذا جسده يفور كالقازان، وإذا عيناه تحدقان وأهدابهما تختلج راقصة ما تستقر على شيء، ويداه مرتخيتان إلى جانبه تهتزان وتتخبطان، وجبينه كجمرة لا تستطيع يدها الاستقرار عليه، كان كشعلة متقدة تعصف به الحمى عصفاً، وقد هربت أنفاسه المبهورة عائدة إلى حلقه، فرفعت يدها مذعورة تكفكف الدمع الهامي، ما يهدأ ولا يرقأ، وتغالب نشيجا يهزها ويكاد يفجر عروقها. وأرسلت بصرها تفتش عن زجاجة الدواء، وأمسكت بها ودنت من المريض، فرفعت رأسه بتؤدة وأدنت الزجاجة من فمه ففتح عينيه وحدق فيها وحاول الكلام، فأرسل حلقه حشرجة ضعيفة، فغالب نفسه، ونطق جملة متقطعة مبتورة.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الكا... نكيـ... نا... ايف... ـا؟؟

ونـزلت القطرات في حلقـه فغص بمـرارتهـا واستجمـع جـأشـه وغمغم... ما....

فأسرعت ترفع الكأس إلى فمه فعب منه حتى الثمالة، ثم رفع رأسه وتكلم وئيداً كطفل يتمرن على النطق:

مـا أمر الكينـة!.. إن هؤلاء الأطباء يـزعجون المـرضى بهـذه العقـاقير،.. يصفـونها لهم أشكالاً حمـراء، خضراء، بيضـاء، سوداء ويسهبون في مدحها، حتى ليخالها المريض، آية الشفاء، وقطرات الحياة، كلها مرة يا أماه يعافها الفم قبل أن تصل إلى الجوف والأطباء يؤكدون أن فيها الشفاء، فلا يزور أحدهم مريضاً، إلا كال له من الكينا والأسبرين والسلفات ما يملأ به جوفه والجوف كمعمل كيماوي يحتار في توزيع كل هذا وهضمه فيلفظه أكثر المرات والشفاء بيد الله لا في الكينا، ولا السلفات، ولكنها أسباب ومعايش، والدنيا تزخر بكل شيء!..

وخنقته عبرة طفرت من عينيه، وهدأ صوته قليلاً قليلاً حتى خفـت وتلاشى، فرمى برأسه فوق الوسادة الممزقة في تخاذل ثم جذب الغطاء وهدأ...».

ورغم هذا فإن محمد أمين يحي قد أبدى قدرة في معالجة المواقف وإيجاد الأجواء القصصية المناسبة، فكان حديثه مؤثراً بارعاً حين وصف الطبيعة ورسم البيئة القصصية، وصور انفعالات الأم الحـزينة وابنهـا العليل. ولم يتردد الكاتب عندما أراد إثارة مشاعر الشفقة والعطف في أن يواجه القارىء بما يهز أعماقه ويبعث التقزز في نفسه، وذلك كما في الفقرة الوصفية السابقة التي قال فيها بأن سرير المرض ذا القائمة المكسورة «كالحيوان الأعرج» وأن اللحاف الذي نخرته العثة قـد اختلطت فيه

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

«القاذورات» بدموع الألم. وفي الحقيقة إن تشبيه هذا السرير بحيوان أعرج ليعبر تعبيراً صادقاً عن حالة البؤس والبلى.

وإذا كان الكاتب قد أجاد في كثير من هذه المواقف الوصفية، فإنه كان أقل توفيقاً حين شبه في بداية القصة دموع الأم باللآلىء، ذلك أنه تشبيه مألوف أكثر الأقدمون استخدامه، كما أن هذا التعبير الذي يناسب حالة الصبا والطراوة والجمال يبدو غير ملائم حين يستخدم في تصوير حزن هذه العجوز وآلامها.

ومهما يكن فإن هذه المآخذ القليلة لا تذهب بقيمة هذه القصة التي توافر لها من عمق الرؤ ية ودقة الوصف ما جعلها تعتبر أحسن ما نوقش من نماذج هذا الفن القصصي حتى الآن.

وتشبه قصة «عودة سعيد»[1] التي كتبها محمد عالم الأفغاني القصة السابقة من حيث الاهتمام بتحليل المشاعر النفسية والخطرات الذهنية. فقد كان سعيد بطل هذه القصة مسؤولاً عن متجر يملكه العم عبد الغني الذي كان يوليه ثقة مطلقة. ورغم هذه الثقة فإن سعيداً لم يكن يحصل إلا على أجر زهيد لا يكاد يكفي حاجته وحاجة أمه العجوز العمياء. وحين عجز عن أداء الديون التي تراكمت عليه، أمهلته الشرطة أربعاً وعشرين ساعة لكي يعطي الدائنين حقوقهم. وإذ أدرك أنه سيذهب إلى السجن إذا لم يف بدينه، فقد راودته نفسه في أن يمد يده إلى صندوق المتجر، ولكنه عاش في صراع بين حاجته الماسة وولائه لصاحب المتجر. وحين استسلم لنزعات الحاجة انتابته الوساوس والمخاوف، وسامته الأحلام المروعة سوء العذاب. وفي صباح اليوم التالي وجد نفسه يتقلب في نار الحمى، فبقي في بيته ولم يذهب إلى عمله. وحين سمع طرقات شديدة على الباب، قام نحوه

---

(١) المصدر نفسه، عدد٢ (محرم ١٣٦٠ هـ/ فبراير ١٩٤١ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

متخاذلاً متهالكاً، ولكنه بهت عندما رأى صاحب المتجر ومعه رفيق ظنه رجلاً من رجال الشرطة. وإذ خيل إليه أن سرقته اكتشفت ولى مدبراً وقد امتلك الخوف والخزي فؤاده. ولكنه ما لبث أن عرف أن الرجل المرافق لسيده لم يكن سوى جار أتى ليعوده، فهدأ روعه، وعزم على التوبة النصوح. وعندما خرج الزائران أسرع إلى المتجر، وأعاد النقود إلى الصندوق «بيد مرتعشة»، ولكن عبارات الحمد والثناء التي رفعها إلى ربه كانت آخر ما تفوه به من كلمات، فقد اشتدت عليه وطأة الحمى فمات بعد ذلك بقليل.

لقد كانت الساعات الأربع والعشرون ــ التي أمهلها سعيد لكي يفي بدينه حافلة بالأحداث، ولكن الأفغاني لم يهتم بالحوادث الخارجية مثل اهتمامه بتأثيرها في نفس سعيد وذهنه. فقد أصبح الحدث الحقيقي عنده شيئاً ثانوياً بالنسبة للصراع الداخلي، ولذلك وجهت الأضواء للكشف عما يدور داخل النفس والذهن من انفعالات مبهمة غامضة، وصورت مشاعر الحرمان والتردد والفزع تصويراً دقيقاً مؤثراً. وقد وفق الكاتب في أن يستأثر بأحاسيس القارىء ويشده إلى مراقبة ما كان ينتاب سعيداً من انفعالات متضاربة متصارعة. ولعل الفقرة التالية التي تصور ما حل بسعيد من الرعب والفزع حين امتدت يده بالسرقة لأول مرة في حياته كافية لتبيان هذه الحقيقة. قال الكاتب:

«كانت ليلة ليلاء على سعيد تنهبه الوساوس والشكوك، فيتمثل العم عبد الغني هاجماً يريد أن يسحقه بعصاه المتينة، ثم يرى العم عبد الغني وقد أخذ بخناقه يريد أن يسحبه إلى دار الشرطة وهو يبكي وينشج نشيجاً يفتت الأكباد، ثم يتلاشى المنظر السابق فيخيل إليه أنه واقف فوق جبل شاهق في سفحه هاوية هائلة لا تقر العين عليها من هيبة منظرها، فيفاجئه العم عبد الغني يريد إلقاءه من ذلك الشاهق. فكان في تلك الحالة من الآلام

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

النفسانية لا يطرق النوم جفنه مهما حاول ذلك، وقد أخذته حمى حامية من جراء الخوف والفزع فلم يستطع الذهاب في الصباح الباكر إلى المتجر وهو يهذي هذياناً مستمراً غير مفهوم وكان المطر يتهاطل بغزارة. وبغتة طرق باب بيته طرقاً متواصلاً شديداً، فصحا سعيد من غمرة حماه فزعاً مذعوراً وطرق سمعه صوت الطارق، فإذا به صوت العم عبد الغني يصيح «افتحوا الباب» فغاص قلبه من الخوف وانعقد لسانه فسكت عن الهذيان، وأراد القيام فترنح وسقط على سريره مرة أخرى، لا بد وأن العم عبد الغني قد اطلع على كل شيء وجاء يعاقبه ويلومه، سيلقى ويواجه ما كان يكره أن يلقاه. ليت أمه لم تلده، لكن مهلاً! لا يمكن أن يكون العم عبد الغني علم بفعلته ولم يمر عليها سوى عشرين ساعة. فتماسك قليلاً وقام إلى الباب يعالج فتحه، لكنه ما كاد ينفتح الباب على مصراعيه حتى شاهد رجلين أحدهما كان العم عبد الغني والآخر كان شرطياً. صاح سعيد صيحة مفزعة وولى أدباره يجري إلى داخل البيت، فدخل في أثره العم عبد الغني بصحبة الشرطي، ثم اهتدى الاثنان إلى سريره فألفياه غارقاً في الحمى يتقلب على السرير مضطرباً كالسمكة على اليابسة، ويئن أنيناً خافتاً».

إن أبرز الخصائص في شخصية سعيد هو ضعفه الذي جعله يقف عاجزاً لا حيلة له حين اعترضته المشاكل، فقد عمل تسع سنوات مع سيد كان يعتبره راعياً له منعماً عليه، ولكن هذه السنوات لم تقلل من ديونه بل زادته فاقة وإملاقاً، فأصبح متأرجحاً بين أمرين، فإما أن يبقى وفياً لسيده فيلاقي الفضيحة والسجن، وإما أن يلجأ إلى السرقة فيعاني من عذاب الضمير. ولا شك في أن خصيصة الضعف هذه قد مكنت الكاتب من أن يرسم صورة مقنعة تبرز عوامل الصراع والتردد التي عصفت بسعيد في موقفه هذا. وقد يبدو الجزء الأخير من القصة ــ الذي يتناول مرض سعيد وموته ــ مشوباً بالافتعال والتكلف إذا ما أوله القارىء تأويلاً ظاهرياً مباشراً، ولكن من المحتمل أن يكون الكاتب قد أراد القول بأن سعيداً

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مات موتاً معنوياً لا جسدياً ما دام قد عجز عن أن يجد لمشكلة بسيطة كهذه حلاً إيجابياً بناء. لقد فقد الحياة حين صار وجوده الحقيقي عبئاً على الأحياء، ولعل موته الظاهري لم يكن سوى رمز لهذه الحقيقة المعنوية.

وإذا ما أراد الناقد أن يتلمس أوجه التشابه بين بطل هذه القصة وبطل قصة «دموع العيد» لمحمد أمين يحي، فإنه سيجد كلاً منهما قد سمي بسعيد، وأنهما قد أصيبا بالحمى، كما أن كلا منهما كان وحيد أم عجوز أرملة تعتمد عليه. ولكن وجوه الشبه لا تتعدى هذا النطاق الظاهري، ذلك أن البطل في قصة «دموع العيد» قد عانى من مرض جسمي ساعده على تحمله حنان أمه ورعايتها، وقد وجهت الأضواء هنا إلى المرض ذاته فأصبح موضوع القصة الرئيسي، وصارت النهاية سعيدة حين زال مرض الحمى. ولكن البطل في قصة الأفغاني لم يكن بمثل هذه البساطة من حيث المظهر النفسي، فقد وقع في ورطة أخلاقية هزت منه الأعماق، وكانت هذه الورطة هي المركز الذي دارت القصة حوله. لقد كان مرضه أمراً ثانوياً أتى نتيجة لما تعرض له من فزع وقلق وأسى، وكان عليه خلافاً لسعيد بطل قصة «دموع العيد» أن يجابه مشاكله وحيداً دونما مساعد أو معين، وما كانت أمه ــ التي لم تظهر على المسرح إلا لماماً ــ عاملاً من العوامل التي تخفف عنه مأساته، بل كانت إعالته لها حملاً زاد وقره، وجعله غير قادر على أن يقرر مصيره بنفسه، ولذلك كانت نهايته نهاية مأسوية.

وقد اتسمت قصة «عودة سعيد» بوحدة عضوية زادت من قيمتها الأدبية، كما أن بناءها الفني كان بناء مركزاً هدف إلى الوصول نحو غاية فنية محددة. ولم يفصل الكاتب في الحديث عن الشخصيات الأخرى كصاحب المتجر والأم، بل جعلها تقوم بأدوار ثانوية وذلك لكيلا تقلل من أهمية الشخصية الرئيسة شخصية سعيد التي سيطرت على الموقف منذ بدايته، وكانت المحور الذي دارت الأحداث القصصية حوله. وتمثل قصة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الأفغاني هذه ما حققته القصة القصيرة في الأدب بهذه البلاد من تطور نسبي، إذ تبين من حيث شكلها ومضمونها شيئاً من النضج الفني الذي يزيد من قيمتها إذا ما قورنت بتلك النماذج القصصية التجريبية التي أشير إليها من قبل.

وتختلف قصة «الأديب الأخير»[1] التي نشرها أحمد رضا حوحو عما سبق أن نوقش من قصص قصير، فهي قصة تخيلية اختير لأحداثها أن تقع في المستقبل القريب عام ١٤٩٥هـ (٢٠٧٢م). إنها قصة ابراهيم الذي بلغ من شغفه بالأدب أن كان منذ أيام التلمذة لا يفارق القسم الأدبي في مكتبة المدرسة. وكان ينوي الالتحاق بكلية الآداب في جامعة بلاده، ولكنه علم قبيل ذهابه للتسجيل فيها أن أبوابها ستقفل بسبب زهد الناس بالأدب، وقلة الراغبين في الالتحاق بها. ورغم أنه حزن لما أصيب به من خيبة أمل، ولما سيؤول إليه فن الأدب من انقراض واضمحلال، فقد صمم على أن يواصل السعي في تحقيق آماله الأدبية، وأن يجند نفسه لخدمة الأدب. ثم ما لبث أن أنشأ قصيدة «بديعة» خيل إليه أنها ستكون قادرة على أن تؤثر في القراء، وتغير من نظرتهم المادية نحو الحياة. ولأن حب الأدب قد كاد يتلاشى، فإنه لم يجد بين محرري الجرائد من رضي بنشر قصيدته، ولكن أحدهم عرض عليه أن ينشرها كإعلان تجاري حين ظن أن ابراهيم قد تغنى بالطبيعة لأن لديه فندقاً ريفياً يريد الإعلان عنه. ورضي ابراهيم بدفع أجرة الإعلان حين لم يجد لنفسه بداً من ذلك. وقد ساءه ما نزل به من مهانة وإذلال، ولكنه أخذ يعزي النفس بما سيلاقيه شعره من ذيوع ونجاح. وظل ينشر قصائده على هذا المنوال حتى نفدت نقوده، وتلاشت الآمال. وبما أنه لم يكن ذا مورد يدر عليه شيئاً من الرزق، فقد أصبح

---

(١) المصدر نفسه، عدد ١١ و١٢ (شوال وذو القعدة ١٣٥٧ هـ/ نوفمبر وديسمبر ١٩٣٨ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مهدداً بالطرد من سكنه، وصار في حاجة إلى ملابس تقيه صقيع الشتاء. وإذ وقف يتأمل فيما آلت إليه حاله أخذ يتأرجح بين اليأس والأمل، ولكن شاعريته الحقة ما لبثت أن تبدت في هذه اللحظة حيث أمسك بالقلم، وأنشأ قصيدة سماها «بين اليأس والأمل». وهكذا استطاع حينما حلت به الضائقة أن يبث الشعر شجونه، ويجد العزاء في فنه، ولم يهمه بعد هذا أسمع الناس لقوله أم وضعوا أصابعهم في آذانهم.

وقبل أن يبدأ الكاتب في سرد هذه القصة قدم لها بمقدمة موجزة ذكر فيها أنها إنما تدور حول فكرة سبق له أن أبداها في إحدى مقالاته حيث تحدث عن مستقبل الأدب وقال بأنه: «سيأتي يوم يضمحل فيه [الأدب] ويصبح يومئذ الاشتغال به عبثاً، وتعاطيه جنوناً، فيبقى في معزل مقبوراً فيما بين دفات الكتب، فلا ينظر إليه إلا كما ينظر إلى النقد (العملة) الأثري القديم، ولا يزار إلا كما يزار الميت القديم العهد إلى أن يندرس رسمه، وتمحى آثاره، فيصبح نسياً منسياً»[1].

ولكي يزيد الكاتب هذه الفكرة المتشائمة وضوحاً فقد نسج حولها قصة «الأديب الأخير» بطريقة قللت من القيمة الفنية لهذه القصة. إذ لم تقتصر صلتها بالمقالة على الفكرة الأساسية فحسب، بل تجاوزتها إلى الأسلوب الذي أصبح أسلوباً مقالياً جدلياً في بعض الفقرات التي تتطلب السرد القصصي. كما أن الكاتب قد أقحم تعليقه الشخصي حيث أشار إلى ما ينتجه شغف الأديب بالأدب فقال معلقاً على موقف ابراهيم الذي نذر نفسه لخدمة الأدب: «ولكن الأدب إذا أدرك شخصاً لا يدعه يفلت من يده بسهولة، بل ينشب فيه مخالبه الحادة، ولا يتركه حتى يقضي عليه.

(١) «هل يأفل نجم الأدب»، مجلة «المنهل»، عدد ٧ (جمادى الثانية ١٣٥٧ هـ، أغسطس ١٩٣٨م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ولهذا نجد الأديب شديد الإيمان بآرائه، شديد التمسك بمبدئه، شديد التضحية من أجلهما».

والحقيقة أن جمال الأسلوب في قصة «الأديب الأخير» لا يكمن في طريقة السرد التي شابهت الأسلوب المقالي في بعض المواضع، ولكنه يكمن فيما كان يلجأ إليه الكاتب أحياناً من حوار دانت له القصة بما فيها من حيوية. ومثال ذلك ما استهل به الكاتب قصته قائلاً:

« ــ ابـراهيم!!... ابراهيم!!... أين ابـراهيم؟... (صـاح الأستاذ في تلاميذه بصوته الرخيم، وأخذ يجوب القاعة بعينيه الحادتين، مفتشاً عن الذي يسميه ابراهيم).

ــ رأيته في المكتبة... يا أستاذ قبل لحظة! (أجاب أحد الطلاب).

ــ ادعه يا رشاد!. (أمر الأستاذ) وخرج رشاد يعدو طالباً زميله، وبعد لأي أتى به مذهولاً مضطرباً، فإنه لم ينتبه المسكين للجرس حينما دق.

ــ أين كنت يا ابراهيم... (سأله الأستاذ)، حك ابراهيم قذاله بأطراف أصابعه وطأطأ رأسه خجلاً ثم أجاب:

ــ في المكتبة يا أستاذ!...

ــ وفي القسم الأدبي طبعاً!!... ما بين الأغاني والشوقيات، والعقد الفريد، واليتيمة، والمتنبي، وغير ذلك من تلك الأسفار البالية، التي لو لم يرزقها الله بك لما وجدت من ينفض غبارها!!... (قال الأستاذ هذا بحماس) ثم تبسم، وقال له بكل هدوء:

ــ كن مطمئن البال الآن!!... فقد أراحك الله وأنعم عليك بإغلاق «كلية الآداب» التي ترغب في اللحاق بها!... (وما كاد الفتى يسمع هذه الجملة حتى صاح من غير شعور):

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

ـ كلية الآداب؟!... أغلقت؟!...

ـ أجل! أغلقت كلية الآداب!... وستلغى قريباً جميع الدروس الأدبية من المدارس! وها اسمع!... (وأخرج الأستاذ جريدة من جيبه وأخذ يتلو على التلاميذ):

«بناء على انصراف الطلاب، الكلي عن فن الأدب الذي أصبحت فائدته ضئيلة في الظروف الحاضرة، وبناء على أنه لم يلتحق بهذه الكلية في هذه السنة إلا أربعة طلاب، رأت وزارة المعارف أنه أصبح من غير المفيد بقاء هذه الكلية، فمن الضروري إذن إلغاؤها والاكتفاء بالدروس الأدبية التي تلقى في المدارس. ولهذا ستغلق الكلية أبوابها في أول الشهر الداخل صفر ١٤٩٥».

وتبدو أهمية قصة «الأديب الأخير» كذلك فيما عالجته من موضوع جديد مهم في ذاته، وهي تشبه في هذا قصة «عودة سعيد» للأفغاني، ولكن التشابه بين القصتين لا يتجاوز هذا الحد، ذلك أن الأفغاني كان يعرض وجهة نظره بطريقة ضمنية غير مباشرة، ولكن حوحو بلغ من الصراحة حداً جعله يتخذ القصة وسيلة لضرب الأمثال وإثبات الآراء الأدبية. ورغم ما شاب أسلوبه من عيب فني، فإن الروح المرحة التي أضفاها على قصته قد أبقت على شيء من متعتها القصصية.

لقد كان ابراهيم هو الشخصية الرئيسة في القصة، ومن الواضح أن الكاتب قد جهد منذ البدء في أن يضفي عليه من الصفات ما يجعله جديراً بدور الأديب الأخير. فقد كان بقية من بقايا الماضي، وأثراً من آثار القدم، ولذلك لم يكن بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه شيء من الوئام. وكان يحمل إلى جانب هذا روح المناضل وعزيمة الرائد. وهكذا فإن مأساته تكمن في أنه قد كتب عليه أن يكون البقية الباقية مما ترك أهل الأدب، وأن يوجد في عصر لا يستطيع العيش فيه. وقد صمد في وجه التيار المادي

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الذي يسيطر على العصر حتى تبين له أنه ليس بقادر على أن يقف في وجه أمواجه المتلاطمة، وحينذاك حل به اليأس، ولكنه لم يخضع أو يستكن فقد ظل وفياً لمبادئه، مخلصاً لفنه. ومن الواضح أن ابراهيم لم يكن سوى رمز لفن الأدب الذي حكم عليه ــ كما يعتقد الكاتب ــ بأن يلاقي مصيره المحتوم في عالم تسيطر عليه المادة.

ولم يصغ الكاتب شخصية ابراهيم وفق أنموذج قصصي معروف، ذلك أنها شخصية فريدة لم تفقد الحيوية والإمتاع حين أصبحت مثالاً للطيبة والأمانة. ولأن الكاتب قد مال نحو ابراهيم، فقد جعله مختلفاً عن بيئته الاجتماعية التي انحدرت إلى حضيض التماثل الأعمى، لقد أراد أن يجعله الإنسان الوحيد الذي يعيش بين قطيع من الماشية. وإذا ما اشترك ابراهيم مع شخصيات المجتمع الأخرى في مواقف قصصية، فإن سخرية الكاتب تكون من نصيب هؤلاء الشخصيات وعصرها المادي، أما ابراهيم فقد كان يحظى دائمًا بتقديره واهتمامه. ولعل في الفقرات التالية التي تصور ما جرى لابراهيم بعد إنشاء قصيدته «البديعة» ما يوضح هذه الحقائق قال الكاتب:

«إنها لقصيدة بديعة ذات معانٍ خلابة ومناظر شائقة، وهي تصف هذه الطبيعة الجميلة أدق وصف، وتصورها أصدق صورة، ولا شك في أنها ستفتن هذه القلوب الميتة التي طغت عليها المادة وحرمتها من التمتع بهذا الجمال الرائع. وسنرى بعد نشرها جميع الناس تلقي بآلاتها المادية الجافة، وتسرع إلى هذه الأرياف تشاهد مناظرها اللطيفة الجذابة وتحاول وصفها نظمًا ونثراً، وأنى لهم ذلك وقد هجروا الأدب من زمن مديد؟ فسيقتحمون إذن كلية الآداب ويكسرون أبوابها حتى إذا امتلأت غرفها جاءت وزارة المعارف إليه وأخذته في موكب رهيب ليتولى رئاسة حركة الأدب وزعامته...

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

هكذا كان الشاب الأديب ابراهيم، يناجي نفسه وهو مستغرق في بحور الأحلام المعسولة، أحلام النجاح الكاذبة، وهذه قصيدته التي أعدها للنشر أمامه، هذه القصيدة الساحرة التي يعتقد ابراهيم أنها ستثير ثائرة الأدب وتنفخ فيه الروح من جديد..

ـ إلى أي صحيفة يقدمها يا ترى؟ طرح ابراهيم هذا السؤال على نفسه وطفق يفكر في الجواب، وأخذت أسماء الصحف تمر بين عينيه كأنها على فيلم سينمائي...! النهضة العلمية! خوارق العصر! الصناعة الشرقية! الشرق السياسي، الاختراع! الكشافة الإسلامية!... ولم يجد بين هذه العناوين كلها صحيفة تمت إلى موضوعه ولو بصلة بعيدة، يستطيع لأجلها أن يقدم لها قصيدته للنشر. وأخيراً وقع اختياره على مجلة «خوارق العصر»، أليست قصيدته هذه من خوارق هذا العصر؟! وأخذ قصيدته ونهض قاصداً إدارة هذه المجلة...

ـ هذه مقطوعة شعرية يا سيدي أريد نشرها في مجلتكم الغراء، وآمل أن تكون صحيفتكم فاتحة عهد جديد لهذا الفن الذي يلفظ آخر أنفاسه!... (قال هذا ابراهيم لمحرر الصحيفة بكل لطف وأدب). وأخذ المحرر القصيدة، ومر عليها ثم عد أسطرها وقال:

ـ جنيهان يا أفندي ثمن إعلانكم للمرة الواحدة!!...

ـ جنيهان؟! وأي إعلان يا سيدي تعنون!...

ـ أليس أن لكم مطعمًا أو فندقاً في هذا الريف، تريدون الإعلان عنه؟ وأصرح لكم بأني لا أستطيع نشره بهذه الصورة بل لا بد من تعديله!... بهت الأديب، ولم يستطع أن يتفوه بكلمة واحدة. ما هذا؟! ألا تصلح هذه القصيدة التي سهر الليالي في نظمها واستلهام دقائقها، في نظر هؤلاء الأقوام: إلا أن تكون إعلاناً عن فندق أو مطعم ريفي!!. الله

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

أكبر!. . . ما أجفى هؤلاء الأناسي؟ ما كادت تمر عشر سنوات على إلغاء الأدب حتى أصبح نسياً منسياً!!.

خرج ابراهيم يجوب شوارع المدينة داخلاً إدارة، وخارجاً من أخرى، عارضاً قصيدته للنشر وكلما دخل إدارة خرج منها بعد هنيهة، والخيبة تلوح على وجهه وكان جواب المحررين واحداً:

ـ آسف يا سيدي! صحيفتنا لا تشتغل بهذا الفن!. . . ولما أعياه السعي أزمع أن يعود إلى الصحفي الأول، وينشر القصيدة عنده بالثمن الذي يريد، ولينتظر النتيجة، فإن هذا الصحفي نفسه سيطرق يوماً ما بابه صاغراً، راجياً منه أن يتفضل عليه ببحث في الأدب وينتقم يومئذ منه ومن زملائه للأدب أي انتقام. سلّم القصيدة وسلّم النقود وبقي ينتظر صدور العدد الذي فيه قصيدته. وصدرت المجلة بعد يومين، وعلى آخر صفحة من غلافها نشرت الأبيات الأولى من القصيدة واستغني عن الباقي بهذه الجملة:

«زوروا فندق ابراهيم أفندي الريفي، تحظوا بهذه المناظر الجميلة».

طار عقل الأديب حينما طالع قصيدته مشوهة، محذوفاً أكثرها، منشورة على غلاف المجلة. رضي بتسليم جنيهين ثمن نشرها، ورضي بأن تنشر في محل متواضع من المجلة، كإعلان، ولكن لم يرضه نشرها على الغلاف، وعلى هذه الصورة المشوهة الملطخة!

وبرغم ذلك كله لم ييأس ابراهيم من النجاح، بل استمرت أدبياته تترى مناشير في الصحف ومحاضرات في الأندية، ومحادثات في الجماعات، واستطاع بكل إلحاح أن يلزم الصحيفة التي عقد معها المقاولة على نشر قصيدته أن تنشر مقالاته محترمة بدون حذف ولا تشويه.

ولكن هل أثرت مقالاته وقصائده ومحاضراته وخطبه في هذا المجتمع

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الذي طغى عليه سيل المادة الجارف؟!... فإنه لم يعثر في كل الصحف التي كان يطالعها يومياً على أي صدى لنداءاته العديدة، ولم توجه نظره أية إشارة إلى دعوته الملحة فالعالم لا يزال في شغل شاغل عنه وعن أدبه، وها هو اليوم نضبت أمواله، وأصبح فقيراً لا يملك إلا بضعة قروش وهذا صاحب المسكن الذي يقطنه يهدده كل يوم بالطرد من المسكن إذا لم يسرع بدفع إيجار غرفته، وهذا فصل الشتاء قادم بصره وقره، وأمطاره وثلوجه، فهل تقيه هذه الأهدام البالية والأثواب المرقعة التي تمثل كل ملابسه اليوم من عذاب الشتاء المؤلم؟! فكر الشاب طويلاً في حالته البائسة، واستعرض حياته من أولها إلى آخرها استعراضاً عاماً، مرحلة مرحلة، واستولى عليه اليأس الفتاك فانتثرت من عينيه عبرة الإخفاق المشؤوم، عبرة حارة كأنها الجمر. وهو كذلك في حالة مضطربة إذ سمع صوتاً يصيح من أعماق عقله الباطن بكل قواه:

ـ العمل!!... العمل!!... هذا صوت الأمل الذي لا يموت إلا بموت الإنسان، صوت الأمل الذي يدفن في القبر مع صاحبه، يقدم له يد المساعدة في مثل هذه الساعة الشديدة. وصاح الشاب:

ـ أجل!! أجل!! يجب أن أعمل!! يجب أن أنجح!!. وما شعر إلا واليأس كاشر أنيابه كأنه حيوان مفترس، ويصيح في وجهه:

ـ مسكين أنت يا ابراهيم!... أين أنت من النجاح؟!... فإنه عنك بمراحل!! فإن صعودك إلى المريخ أسهل لك بكثير من إيجاد مائة شخص يسمعون دعوتك الجوفاء، فأنت لم تشم رائحة النجاح يوم كنت مثرياً مستريحاً من تكاليف الحياة! وتريد أن تنجح اليوم وأنت حامل أعباء الحياة الثقيلة؟! والله إنك لمسكين!! لطفك اللهم بهذا المسكين الضعيف فإنه أصبح فريداً في هذا العالم، شاذاً عن هذا المجتمع، وليس له في هذه الحياة سواك!

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وأخذ ابراهيم قلمه وشرع يسجل في مفكرته هذه الخواطر المظلمة والأفكار التعيسة التي أحاطت به في هذه الساعة، ووجد فيها مادة جديدة خصبة لإنشاء قصيدة طريفة عنوانها: «بين اليأس والأمل».

ولم تكن قصة «الأديب الأخير» المحاولة الوحيدة التي أسهم بها الأدباء حينئذ في ميدان الأدب التخيلي الذي يعالج قضايا المستقبل، ولكنها كانت أفضل هذه المحاولات، وأكثرها نجاحاً. ففي عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦م) نشر محمد حسن عواد رسالة مثالية «يوتوبية» تخيل أن فتاة من بنات القرن الخامس والعشرين قد كتبتها من مدينة جدة إلى شقيقها الذي يقطن مدينة أخرى من مدن المملكة السعودية، وقد صورت الفتاة في هذه الرسالة حاضر وطنها المشرق وقارنته بما كان عليه أيام أجدادها في أوائل القرن العشرين[1]. وهناك مقالة مثالية «يوتوبية» أخرى نشرها عبد القدوس الأنصاري عام ١٣٦٨هـ(١٩٤٩م)[2]،وقد تخيل فيها ما ستكون عليه بلاده في عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠م).

ورغم أن الكاتبين قد لجآ إلى الخيال، إلا أن تحليقهما لم يوغل في أجواز الفضاء، فقد كان حاضر الأمم الصناعية المتقدمة هو الأنموذج الذي بنيا عليه صورة المستقبل. ولأنهما لم يخشيا المشاكل الاجتماعية التي أتت بها الصناعة المتطورة في بلاد الغرب، فقد بدت صورة المستقبل عندهما صورة بسيطة مشرقة متفائلة، يحدوها الإيمان بتقدم الإنسان وسيره نحو الأفضل. أما أحمد حوحو فلم تخلبه الإنجازات التقنية الباهرة، ولم يجهر عينيه ما للمجتمعات الثرية في هذا العصر الآلي من بريق خادع، فقد هداه الفكر الفلسفي والميل الروحي إلى أن ينظر نظراً عميقاً، فيبحث عن جوهر الأشياء، ويتجافى عن عرضها. وقد تنبأ بما سيحدث من صراع أليم بين

(١) «الحجاز بعد خمسمائة سنة» في كتاب «خواطر مصرحة»، ص ٨٤ ــ ٨٨.
(٢) «أحلام» مجلة «المنهل»، عدد ٤ (ربيع الثاني ١٣٦٨ هـ، فبراير ١٩٤٩).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مادية المجتمع الآلي، ومثالية من فطروا من أفراد هذا المجتمع على حب الفن والجمال. وما كان ساذجاً في فكره وتخيله، بل كان ذا نظرة ثاقبة مبدعة نظر بها إلى قضية من أصعب القضايا الفكرية المعاصرة، حيث ناقش دور الأدب في عصر الصناعة وتأرجحه بين الفناء والبقاء. ولم يحاول الكاتب أن يسلك طريق من دافعوا عن الأدب ضد ما كان يتعرض له منذ عهد أفلاطون من هجوم واتهام، ولكنه أراد أن يصد عنه ما يلقاه في المجتمع الصناعي من إهمال وعدم مبالاة يهددانه بالانقراض.

ويبدو مما سبق أن أبرز سمات القصة القصيرة في الأدب الذي أنتج في البلاد خلال هذه الفترة هو أن عنصر المضمون قد لقي من اهتمام الكتاب أكثر مما لقيه الأسلوب القصصي والبناء الفني. فقد كانت لهذه القصص عظات تحاول إيضاحها، أو آراء تريد إثباتها والدفاع عنها. وإذا كان هناك خلاف فيما بينها فإنما هو في الطريقة الفنية التي عولج بها الموضوع القصصي، فقد جانب التوفيق بعض الكتاب الذين لم يحذقوا الأسلوب القصصي، ولكن عدداً آخر من الكتاب كالأفغاني وحوحو قد أصابوا شيئاً من النجح في قصصهم.

ومن الملاحظ كذلك أن هذين النوعين المختلفين من القصص قد تعايشا في هذه الفترة، إذ يجد القارىء نماذج من القصص القصيرة الساذجة منشورة إلى جانب قصص أخرى توافر لها قدر من النضج الفكري والتطور الفني. ولا شك في أنه مما يحمد لمحمد علي مغربي ومحمد أمين يحي ومحمد عالم الأفغاني وأحمد رضا حوحو أن أنقذوا القصة القصيرة من أن تؤول إلى ما آلت إليه أختها الرواية التي لم تستطع أن تتجاوز ــ خلال هذه الحقبة ــ مرحلة الطفولة الأولى.

* * *

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وحينما يتتبع الباحث حركة النثر الأدبي في هذه البلاد منذ عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٥٠ فإنه سيلاحظ أن هذا الأدب كان في تغير مستمر وتطور دائم. فقد اتسم خلال هذه الحقبة بقدر من الخصائص الفنية والقيم الأدبية، وأصبح رحب المجال، واسع المدى، حيث شمل عدداً من الأنواع الأدبية الجديدة. وقد تضاءلت سيطرة الأفكار النقدية التقليدية في هذه الفترة، وحلت المفاهيم الأدبية الحديثة مكانها.

ولا شك في أن ما بلغه النثر الأدبي حينئذ من تطور وازدهار إنما يرجع الفضل فيه إلى الصحافة المحلية التي شجعت الأدب وخصته بأعمدتها، وإلى الجيل الجديد من الكتاب الذين أثروا الحياة الأدبية بإنتاجهم.

وحين يذكر المرء ما قام به الكتّاب المحدثون في هذا المجال، فإنه يحسن به ألا ينسى ما كان لسابقيهم من فضل في تمهيد الطريق، وإنعاش الحياة الثقافية في هذه البلاد. وصحيح أن الأدباء المحدثين قد أصبحوا في العقد الثالث من هذا القرن على صلة قوية بالنشاط الأدبي العربي الموجود خارج بلادهم، وأن تأثرهم بهذا النشاط كان أوسع مدى وأكثر عمقاً من تأثرهم بسلفهم، ولكن من الواضح أن ذلك الأسلوب العربي الجزل الذي اتخذه سابقوهم ــ ولا سيما فؤاد الخطيب الذي أعجبوا به كثيراً إبان نشأتهم الأولى ــ قد ترك آثاره على طريقتهم في التعبير، وأضفى على أساليبهم مسحة من جمال الأسلوب العربي وإشراقه.

ومما تجدر الإشارة إليه أن النثر الأدبي كان ذا مجال محدود وصبغة نفعية مباشرة خلال الفترتين السابقتين اللتين كانت الغلبة فيهما للكتّاب الوافدين، ولكن عندما تكاثر عدد الأدباء المحليين في مطلع العهد السعودي، تطورت الحياة الأدبية تطوراً سريعاً، واتسم الإنتاج الأدبي

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

بالخصب والغزارة. ورغم أن هؤلاء الأدباء قد تأثروا بمصادر أدبية عدة، إلا أنهم ما لبثوا غير قليل حتى شبوا عن مرحلة التقليد، فلم يحتذوا هذه المدرسة الأدبية أو تلك احتذاء غير بصير، بل حاولوا أن يحققوا قدراً من الأصالة الفنية، وأن يحتفظوا بشخصيتهم الأدبية.

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

خاتِمَة

كان النثر الأدبي الذي أنتج في هذه البلاد قبل عام ١٩٠٨ نثراً تقليدياً في شكله ومضمونه، أما النثر الحديث الذي ظهر بظهور الصحافة في سنة ١٩٠٨ فكان آنذاك محدوداً في مجاله، متواضعاً في قيمته الأدبية. ولكن لم تأت الثلاثينات، من هذا القرن إلا وقد اتسع ميدانه، واتسم بشيء من النضج من حيث الرؤية الفنية، والقيمة الأدبية. ولقد كانت هذه الدراسة محاولة لتتبع هذا التطور، وتسجيل أبرز المعالم في هذا التجديد الأدبي.

ومن الممكن أن يقسم النثر الأدبي الذي أنتج في مطلع هذا القرن إلى قسمين: نوع تقليدي يتكون من الأنماط النثرية القديمة، ونوع حديث يمثله فن المقالة الصحفية. أما النوع الأول فهو أقل من النوع الثاني من حيث الكم، إذ يتألف من نصوص في فني الرسائل والمفاخرات. وقد كانت هذه النماذج مسجوعة مثقلة بالبديع، ولكن بعضها كرسائل البيتي والكردي واللبني قد حفل بشيء من القيم الأدبية. وبما أن كتاب النثر التقليدي لم يكونوا شاعرين بالاتجاهات الأدبية الحديثة، فقد تمسكوا بالمفاهيم النقدية التقليدية، واستوحوا النماذج الأدبية القديمة.

ويعتبر عام ١٩٠٨ عاماً مهمًا في تاريخ الأدب بهذه البلاد، ذلك لأن

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

فن المقالة قد ظهر آنذاك. وكانت المقالات التي نشرت حينئذ جديدة في اتجاهها الأدبي، حديثة في طريقة تناولها للموضوعات الاجتماعية والسياسية. فبينما كان أكثر الأدباء التقليديين مشغولين بإنشاء النصوص النثرية المصطنعة، أخذ كتاب المقالة في البحث عن قيم أدبية جديدة، وحاولوا أن يبثوا المفاهيم النقدية الحديثة. ورغم هذا فإن المقاليين لا يختلفون ــ في الحقيقة ــ كثيراً عن كتاب النثر التقليدي من حيث استخدام الأسلوب الخطابي المسجوع، بل إن عدداً من المقالات الصحفية قد بدت أقل مستوى من النصوص التقليدية، ذلك لأنها اتسمت بضعف اللغة وركاكة الأسلوب.

ومع أن الروح الحماسية الإصلاحية قد سيطرت على كتاب المقالة في الفترة العثمانية، إلا أن هؤلاء الكتاب لم يكونوا من دعاة التجديد الجذري في ميدان الأدب، فقد كان الناقد الأدبي لجريدة حجاز ــ على سبيل المثال ــ معتدلاً في آرائه، وسطاً في أفكاره حين نادى الأدباء أن ينبذوا التقليد، ويتبنوا المفاهيم الأدبية الغربية الحديثة، ذلك لأنه جمع بين حماسته للأدب الغربي الحديث وحبه للأدب العربي القديم، كما أنه عبر عن وجهة نظره بأسلوب عربي جزل مسجوع. وبالإضافة إلى ذلك فإنه قد مثل للتجديد الأدبي الذي دعا إليه بما فعله شوقي وحافظ اللذان كانا في الحقيقة من أتباع الشعر العربي العريق.

ولم تكن الفترة العثمانية حافلة بالنشاط الأدبي، كما أنه لم تنتج فيها آثار أدبية قيمة. وإذا كان لها من أهمية في تاريخ الأدب بهذه البلاد، فإنما ذلك لأنها آذنت بانقضاء سيطرة النثر التقليدي، وبشرت بظهور كتاب المقالة الذين حاولوا أن ينعشوا أدب بلادهم بالفكر الحديث، وأن يشربوا قراءهم حب حضارة العصر. وإذا كان الكتاب لم يوفقوا حينئذ في أن ينتجوا مقالات مبدعة، فإن إسهامهم الأدبي قد تمثل في استخدامهم طريقة

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

جديدة في معالجة القضايا الأدبية والاجتماعية، وفي أنهم طعموا الحياة الثقافية في بلادهم بأفكار هذا القرن ونظرياته، كما أنهم قد قللوا من تغلب المفاهيم التقليدية على الإنتاج الأدبي.

وقد أصبحت المقالة الصحفية النوع النثري الوحيد خلال الفترة الهاشمية، ولهذا لم يكن لأي نوع آخر من أنواع النثر الأدبي وجود آنذاك. وقد أثرت الأحداث السياسية في المقالة الهاشمية فصبغتها بصبغتها وجعلتها تتسم بروح الجدل والحماس. وإذ تشابهت هذه المقالات في مضمونها وطريقة معالجتها، فقد غلب عليها التكرار في كثير من الأحيان، وافتقرت إلى الحيوية والإمتاع.

ورغم أنه قد قصد بالمقالة الهاشمية أن تخدم أغراضاً دعائية، إلا أنه لا يمكن أن تعتبر جميع هذه المقالات وسيلة من وسائل الدعاية المباشرة، ذلك لأن أساليبها لم تكن سياسية إخبارية، بل إنه قد اختير لبعضها أسلوب أدبي صور انفعالات النفس البشرية عندما تنتشى بالآمال، أو تصاب بخيبة الأحلام. ولذلك فإن مثل هذه المقالات ستظل جزءاً من التراث الأدبي.

ويبدو أن إسهام الكتاب الهاشميين في تطوير فن المقالة ــ الذي ورثوه من الحقبة السابقة على حين كان ذا صورة بدائية ــ إنما يتمثل في القالب والأسلوب لا في المضمون، فقد خلت المقالة الهاشمية من تلك الركاكة التي عابت كثيراً من المقالات التي نشرت قبل عام ١٩١٦، ولكنها شابهتها في الاقتصار على الموضوعات السياسية والاجتماعية. ورغم أن المقالة الهاشمية لم تخل من المسحة الأدبية إلا أن المقالة الذاتية لم توجد في أدب الفترتين.

لقد استخدم الكتاب حينئذ الأسلوب التقليدي في مقالاتهم، ولكن

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

مما يحمد لهم أنهم لم يحتذوا تلك النصوص الأدبية التي أنشئت في عصور الضعف الأدبي، بل رجعوا إلى النماذج الأصيلة التي أنتجت أيام ازدهار الأدب العربي. وما كان عملهم تقليداً غير بصير، كما لم يكن تجديداً جذرياً، ولكنه محاولة لبعث التقاليد الأدبية العريقة. وربما كان من الممكن أن يقال بأن أهمية هذه الفترة إنما تكمن في كونها قد مهدت السبيل لظهور جيل من الكتّاب المجددين.

ولقد كان جو الهدوء والاستقرار السياسي الذي تمتعت به هذه البلاد في مطلع العهد السعودي من الأسباب التي أنعشت المقالة الصحفية وجعلتها ذات موضوعات متعددة، وأساليب متنوعة. فقد أخلى الكتّاب الهاشميون مكانهم للجيل الجديد من الأدباء الذين آذن محمد حسن عواد بمقدمهم حين سجل استجابته للحركة الأدبية العربية الجديدة التي قام بها كتاب مصر والمهجر، وحاول تطبيق المفاهيم النقدية الحديثة على الأدب في بلاده. ولأن هذا الجيل من الأدباء قد نشأ نشأته الأولى في جو حفل بالجدل والخصومات الصحفية، فقد تبين أنهم ورثوا شيئاً من هذه الروح عندما قاموا بدعوتهم إلى التجديد الأدبي، والإصلاح الاجتماعي.

وإذ اعتقد الكتّاب الناشئون بأن لهم في مجتمعهم رسالة تشبه رسالة الرواد والمصلحين، فقد انصرفوا إلى ميدان الأدب الذي اعتبروا العمل فيه من أهم عوامل البناء الاجتماعي، ولذلك أصبح الإنتاج الأدبي ــ الذي كان قليلاً في الفترتين السابقتين ــ خصباً وفيراً خلال الحقبة السعودية. وقد تجاهل الأدباء الناشئون ما أنتجه سلفهم من آثار أدبية تقليدية، ورأوا أن من واجبهم أن يوجدوا بيئة أدبية جديدة، وأن يتبنوا مفاهيم نقدية حديثة.

لقد اعتبر هؤلاء الكتاب حركتهم الأدبية الجديدة معركة فكرية، ولذلك وجدوا في المقالة النقدية سلاحاً ماضياً أفادهم في هجومهم على المفاهيم الأدبية والاجتماعية التقليدية. وكان نقدهم شبيهاً بنقد معاصريهم

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

من رواد الأدب الحديث في مصر والمهجر من حيث أنه كان نقداً لأدباً، وهجوماً شخصياً، ولكن الفرق بينهما هو أن الكتاب المحدثين في هذه البلاد نزلوا ميدان معركة كاد يخلو من الخصوم المحاربين، ذلك لأن الأدباء التقليديين تذرعوا بالحلم والصبر، ولم يصدوا هذا الهجوم.

ورغم قصر المدة التي خاضها الكتّاب الناشئون ضد الأدباء التقليديين، إلا أن المقالة النقدية الهجومية ظلت مزدهرة، ذلك لأن الكتّاب الناشئين أغرموا بتوجيه اللوم والنقد إلى ما كان ينشره زملاؤهم من إنتاج أدبي، فشغلوا بالخصومات الأدبية التي لم ينشأ معظمها لاختلاف في وجهة النظر الأدبية، بل بسبب الأغراض الشخصية والنزعات الذاتية. ولكن هذه الفوضى الأدبية ما لبثت أن خفت حين بدأ يحل محلها اتجاه نقدي موضوعي في أواخر الثلاثينات من هذا القرن. وقد اتسم هذا النوع من النقد بالرصانة والهدوء، واتصف بالأسلوب المنطقي والتفكير المحدد، فلم يكن أداة هجوم، بل كان وسيلة لتقويم الآثار الأدبية، وتبيان خصائصها الفنية، وعناصرها الجمالية.

وإذا كان الكتّاب المحدثون قد شغلوا حينئذ بالمقالة النقدية، فليس معنى هذا أنهم أهملوا المقالات الأدبية الأخرى، ذلك لأنهم عالجوا مختلف الموضوعات، ولكن حماستهم للإصلاح الاجتماعي في العشرينات وأوائل الثلاثينات من هذا القرن قد جعلت المقالات الذاتية والاجتماعية تتخذ أسلوب النقد اللاذع والهجوم الشديد. وبالإضافة إلى ذلك فإنها قد افتقرت إلى عمق الفكر، وصارت مشوبة ــ أحياناً ــ بتقليد أساليب المهجريين. ولكن هذه المقالات ما لبثت أن تجاوزت مرحلة السذاجة والتقليد، وأصابت حظاً من النضج في الشكل والمضمون، ولذلك قطعت المقالة الأدبية بجميع أنواعها شوطاً في مجال التطور والأصالة الفنية في نهاية هذه الحقبة، وفاقت من حيث القيمة الأدبية تلك الآثار النثرية التي أنتجت قبل عام ١٩٢٥.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

وقد شهدت الثلاثينات من هذا القرن ظهور الأدب القصصي في هذه البلاد. وفي الحقيقة إن ما أسهم به كتّاب القصة حينئذ لا يقارن من حيث الكم والكيف بما أنتجه زملاؤهم المقاليون. فلم يزد ما أنتج في ميدان الرواية خلال هذه الفترة عن روايتين قصيرتين اتسمتا بالصبغة التهذيبية التعليمية، أما القصص القصيرة التي نشرت حينئذ فما كانت قليلة العدد، ولكن معظمها كان شبيهاً بالروايتين السابقتين من حيث كونها تهذيبية في غرضها، تجريبية في طبيعتها، كما أنها كانت عبارة عن مختصرات روائية أبرزت في شكل قصص قصيرة. ورغم هذا فإن عدداً من هذه القصص القصيرة قد اتسم بشيء من النضج من حيث الرؤية الفنية، وطريقة المعالجة القصصية.

ويشبه نثر المحدثين ذلك النثر الذي أنتج في الفترتين السابقتين من حيث أنه قد دان للصحافة بوجوده وازدهاره، إذ خصته هذه الصحافة بأكبر قدر من أعمدتها، وقامت بدور رئيسي في سبيل إنعاشه وتشجيع كتابه. وقد بلغ اعتماد الأدب على الصحافة حداً جعل الحياة الأدبية في هذه البلاد تصاب بالخمود حينما احتجبت الصحافة المحلية إبان الحرب العالمية الثانية.

وتكمن أهمية الفترة السعودية في أنه قد تحقق فيها لأدب هذه البلاد ما لم يكن إلى تحقيقه من سبيل خلال الفترتين السابقتين، فقد تخلص هذا الأدب فيها من سيطرة المفاهيم الأدبية المقلدة، واتسم بالوفرة والغنى، كما أن الأدباء قد قاموا حينئذ بتجربة عدد من الأنواع الأدبية الحديثة، وعاشوا في جو أدبي حفل بالنشاط والحيوية.

وعندما يتأمل الباحث في مسيرة النثر الأدبي بهذه البلاد منذ مطلع القرن حتى منتصفه يجد أنها قد اتسمت بالتطور الدائب والتقدم المستمر.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

فقد استطاع الكتّاب في أقل من ثلاثة عقود أن يحولوا هذا الأدب عن وجهته التقليدية، وأن يصبغوه بصبغة التجديد، بحيث أصبح قادراً على مواكبة تلك النظريات النقدية الحديثة التي تدعو إلى الأصالة الأدبية، والإبداع الفني. وقد وفق الكتّاب المحليون في أن ينتجوا إنتاجاً أدبياً قيمًا، وأن يسهموا في حركة الأدب العربي الحديث بآثار أدبية تتسم بطابعهم، وتعبر عن شخصيتهم.

• • •

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

المصَادر وَالمراجع

١ ـ الكتب:

إبراهيم، أحمد أبو بكر: الأدب الحجازي في النهضة الحديثة، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة ١٩٤٨.

الأشتر، عبد الكريم: النثر المهجري: المضمون وصورة التعبير، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت ١٩٧٠.

الأنصاري، عبد القدوس: التوأمان، مطبعة الترقي، دمشق ١٩٣٠.

البيتي، جعفر بن محمد: ديوان البيتي، مخطوطة مكتبة طوبقبو سراي رقم ٥٤١.

جبران، خليل جبران: العواصف، دار بيروت، بيروت ١٩٥٩.

الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، المطبعة الحكومية باستانبول، استانبول ١٩٥٤.

الجندي، عبد الحميد: حافظ إبراهيم شاعر النيل، مكتبة دار المعارف، القاهرة ١٩٥٩.

الجوهري، محمد نور: الانتقام الطبعي، المطبعة الشرقية، جدة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م).

الحازمي، منصور: معجم المصادر الصحفية لدراسة الأدب والفكر في المملكة العربية السعودية: صحيفة أم القرى من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٤٥، مطبوعات جامعة الرياض، الرياض ١٩٧٤.

ابن حسين، محمد بن سعد: الأدب الحديث في نجد، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة ١٩٧١.

الحلو، عبد الفتاح محمد: شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة ١٩٥٩.

خوقير، أبو بكر بن محمد: مسامرة الضيف بمفاخرة الشتاء والصيف، بيروت ١٣٣٠ هـ (١٩١١ ـ ١٩١٢ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الداغستاني، عمر بن عبد السلام: تحفة الدهر ونفحة الزهر في أعيان المدينة من أهل العصر، مخطوطة مكتبة طوبقبو سراي رقم ٥١٩.
الزواوي، هاشم يوسف وآخرون: (جمع) نفثات من أقلام الشباب الحجازي، المكتبة العزيزية ومطبعتها، القاهرة ١٩٣٧.
الشامخ، محمد عبد الرحمن: التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني، المطابع الأهلية للأوفست، الرياض ١٩٧٣.
ـ نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية، دار العلوم، الرياض ١٩٨٢.
شطا، بكري بن محمد: كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء، على المنظومة المسماة بهداية الأذكياء إلى طريق الأولياء، القاهرة ١٣٠٢ هـ (١٨٨٥ م).
آل الشيخ، عبد اللطيف بن عبد الرحمن: مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، ج ٣، مطبعة المنار، القاهرة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ م).
الصبان، محمد سرور: (جمع وترتيب) أدب الحجاز، الطبعة الثانية، مطبعة مصر، القاهرة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ م).
ضيف، شوقي: الأدب العربي المعاصر في مصر ١٨٥٠ ـ ١٩٥٠، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٧.
عبد الجبار، عبد الله: التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٥٩.
عبد الشكور، عبد الله بن محمد: تاريخ مكة المكرمة، مخطوطة مكتبة بايزيد رقم ٧٨.
آل عبد القادر، محمد بن عبد الله: تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، ج ٢، المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٦٣.
عبد المقصود، محمد سعيد وعبد الله عمر بلخير (جمع): وحي الصحراء: صفحة من الأدب العصري في الحجاز، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م).
العقاد، عباس محمود: الفصول، المكتبة الأهلية، القاهرة ١٩٢٢.
ـ مطالعات في الكتب والحياة، المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٢٤.
عواد، محمد حسن: خواطر مصرحة، الطبعة الثانية، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦١.
ـ ديوان روح الشعر العربي، مخطوطة مكتبة مكة المكرمة بدون رقم.
ابن غنام، حسين: تاريخ نجد، المكتبة الأهلية بالرياض، القاهرة ١٩٤٩.
اللبني، جعفر بن أبي بكر: الحديث شجون شرح الرسالة الجدية لابن زيدون، مخطوطة مكتبة مكة المكرمة رقم ١٢٢.
نعيمة، ميخائيل: الغربال، الطبعة السابعة، دار صادر، بيروت ١٩٦٤.
نووي، محمد: سلالم الفضلاء على المنظومة المسماة هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء، القاهرة ١٣٠١ هـ (١٨٨٣ ـ ١٨٨٤ م).

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

Carlyle, Thomas: On Heroes, Hero-Worship and the Heroic in History, London, James Fraser, 1861.
Mill, J. S.: Dissertations and Discussions, vol. I, Longmans, London 1867.

٢ ـ المقالات والدوريات:

جريدة الإصلاح الحجازي: جدة ١٩٠٩.
جريدة أم القرى: مكة ١٩٢٤ ـ ١٩٤٥.
جريدة حجاز: مكة ١٩٠٨ ـ ١٩١٥.
جريدة الحجاز: المدينة ١٩١٦ ـ ١٩١٧.
جريدة شمس الحقيقة: مكة ١٩٠٩.
جريدة صوت الحجاز: مكة ١٩٣٢ ـ ١٩٤١.
عبد الجبار، عبد الله: النهضة الأدبية في السعودية، جريدة المدينة المنورة، عدد ٢٥٢ (٢٩/٨/١٣٨٤ هـ = ٢/١/١٩٦٥ م).
عبد المقصود، محمد سعيد: ما هو الأثر الذي أوجده الأدب الحديث في الحجاز، مجلة المنهل، عدد ٢ (محرم ١٣٥٨ هـ = فبراير ١٩٣٩ م).
عرب، محمد عمر: التطورات التي سبقت نشوء الأدب في الحجاز، مجلة المنهل، عدد ٤ (ربيع الثاني ١٣٦٥ هـ = مارس ١٩٤٦ م).
العربي، أحمد: الأدب الحديث في الحجاز، في كتاب وحي الصحراء، جمع محمد سعيد عبد المقصود وعبد الله عمر بلخير، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م).
علي، أحمد: من تاريخ الصحافة السعودية، مجلة الحج، عدد ٥ (ذو القعدة ١٣٨٣ هـ = مارس ١٩٦٤ م).
جريدة الفلاح: مكة ١٩٢٠ ـ ١٩٢٤.
جريدة القبلة: مكة ١٩١٦ ـ ١٩٢٤.
مج (قارىء «يوسف ياسين؟»): خواطر مصرحة، جريدة أم القرى، من العدد ١١٢ (١/٨/١٣٤٥ هـ = ٤/٢/١٩٢٧ م) حتى العدد ١٢١ (٦/١٠/١٣٤٥ هـ = ٨/٤/١٩٢٧ م). وهي نقد لكتاب خواطر مصرحة لمحمد حسن عواد.
مجلة المنهل: المدينة، جدة ١٩٣٧ ـ

□ □ □

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الفهارس

- فهرس الأعلام.
- فهرس الكتب والدوريات.
- محتويات الكتاب.

مدونة

محمد عبدالرحمن الشامخ

فهرس الأعلام

آشي، عبد الوهاب: ١٢٦.
إبراهيم، أحمد أبو بكر: ٥٨.
الإسكندراني، أحمد رأفت: ٦٣.
الأسكوبي، إبراهيم: ٣١، ٤٩، ٥٦، ٥٧، ١٤٨.
الأشتر، عبد الكريم: ١٣٠.
الأفغاني، محمد عالم: ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٧، ١٧٣.
أفلاطون: ١٧٣.
امرؤ القيس: ١٠٣.
الأنصاري، عبد القدوس: ١٠٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٨، ١٧٢.
بايرون، غوردون: ١٠٢، ١٠٣.
برادة، محمد: ٤٩، ٥١، ٥٦، ٥٧.
البرزنجي، جعفر: ٢٠، ١٠١.
البرزنجي، علي: ٢٠.
بشار بن برد: ١٠٢.
البغدادي، حسن: ٣٩.
بقاعي، أحمد: ١٧.
البياري، محمد: ١١٢، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢.
البيتي، جعفر: ١٤، ١٦، ١٧، ٢٠، ٢١، ٦٤، ١٧٧.
أبو تمام: ١٠٣.
توفيق، محمد عمر: ١١٨.
تولستوي: ١٠٣.
الجاسر، حمد: ١١٣، ١١٤، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩.
جبران، خليل جبران: ٨٤، ٨٧، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠.
جرير: ١٠٣.
الجنيد البغدادي: ٢٣.
جوته: ١٠٢، ١٠٣.
الجوهري، محمد نور: ١٤٨.
الحارث بن حلزة: ٨٥، ٨٦، ١٠٣.
حافظ إبراهيم: ٤٨، ٤٩، ١٧٨.
حسن، عثمان: ٨٣.
حسن، محمد جميل: ١٠٥.
الحسين بن علي (أمير مكة): ٧، ٦٨، ٧٠، ٧٦، ٨٤.
ابن حسين، محمد بن سعد: ٣١.

محمد عبدالرحمن الشامخ
مدونة

حوحو، أحمد رضا: ١٦٤، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٣.
خطيب، عبد الملك: ٥٥، ٥٧.
الخطيب، فؤاد: ٦٦، ٧٦، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٩٢، ٩٣، ١٧٤.
الخطيب، محب الدين: ٦٦.
الخليل بن أحمد: ١٦.
خوقير، أبو بكر: ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٦٥، ١٤٧.
الداغستاني، عمر بن عبد السلام: ٤٢، ٤٣.

دانتي: ١٠٣، ١٢٣.
ابن رشد: ١٠٣.
رضا، محمد علي: ١٢٦.
روحي، حسين: ٨٥.
ابن الرومي: ١٠٣.
زولا، اميل: ١٠٣.
ابن زيدون: ٤٤، ٤٥.
سامي، أبو الثريا: ٥٣.
السباعي، أحمد: ١١٢، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠.

سحبان وائل: ١٦.
سرحان، حسين: ١١٠، ١١١، ١١٢، ١٣٦، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦.
السعد التفتازاني: ٢٣، ١٠١.
ابن سينا: ١٠٣.
الشافعي (الإمام): ٢٥.
شاكر، إسماعيل: ٨٦.
شاكر، عمر: ٦٦، ٧٥.
شحاتة، حمزة: ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٦.
شطا، بكري: ٣٥، ٤٣، ٦٥.
شكسبير: ١٠٢، ١٠٣.
شوقي، أحمد: ٤٩، ٥٠، ٥١، ٩٢، ١٧٨.
آل الشيخ، عبد اللطيف بن عبد الرحمن: ٢٦، ٢٧، ٣٢، ٦٤.
صادق، محمد: ٥١، ٥٤.
الصبان، محمد سرور: ٩٨، ٩٩، ١٠٥.
ابن صبغة، عبيد الله: ٢١.
الصحاف، عبد المحسن: ٨٦.

ضياء الدين بن الأثير: ٨٠.
ضياء، عزيز: ١٢٦.
الطرابلسي، عبد الله نديم: ٨٦.
العابد، عزت: ٦١.
العامودي، محمد سعيد: ١٤٩، ١٥٠.
عبد الجبار، عبد الله: ٥٦، ٦٣، ٦٤، ١٢٨.
عبد الشكور، عبد الله بن محمد: ٣٨، ٤١.
عبد العزيز بن سعود (الملك): ٧.

عبد القاهر الجرجاني: ٨٨، ١٠١.
عبد الله بن سعيد (الشريف): ٣٩.
عبد المقصود، محمد سعيد: ١٢٦.
ابن عتيق، حمد: ٢٦.
عرب، محمد عمر: ١١٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢.
العربي، أحمد: ٦٣، ٦٤.
عريف، عبد الله: ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩.
عزمي، أحمد: ٥٤.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

العطار، أحمد عبد الغفور: ١١٨، ١١٩.
العقاد، عباس محمود: ٨٧، ٩٠، ١٠٧.
أبو العلاء المعري: ٢٤.
علقمة الفحل: ١٠٣.
ابن عمار، أحمد: ٢٠.
عمرو بن عبيد: ٢٣.
عواد، محمد حسن: ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٣، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١٢٥، ١٣٢، ١٧٢، ١٨٠.
ابن غنام، حسين: ٣٦، ٣٨.
غورو (ضابط فرنسي): ٨٣.
أبو الفتح البستي: ٤٥.
الفته، محمد بن سعيد: ٨١، ٨٣.
فدا، عبد الله: ١٢٦.
الفضل، عبد العزيز: ١٣٣.
فولتير: ١٠٢.
فيرجل: ١٠٣.
فيصل بن الحسين (الملك): ٦٨، ٧٠.
القاري، عبد الحفيظ: ٣٢.
كارليل، توماس: ٨٩.
الكردي، عبد الله بن محمد: ٢١، ٢٥، ٦٤، ١٧٧.
الكرمي، أحمد شاكر: ٦٦.
لبني، جعفر: ٤٤، ٤٦، ٦٤، ١٧٧.
لبيد بن ربيعة: ١٠٣.
آل مبارك، راشد: ٣٠.
آل مبارك، عبد العزيز بن عبد اللطيف: ٣٠.
المتنبي: ١٠٢، ١٠٣.
محجوب، حافظ: ٥٨، ٦٠.
محمد بن عبد الله (الشريف): ٣٩، ٤٠.
المدني، محمد أبو الخير: ١٤.
مسعود بن سعيد (الشريف): ٣٩.
المسعودي: ٧١، ٧٢.
أبو مسلم الخراساني: ١٥.
ابن المعتز: ١٦.
مغربي، محمد علي: ١٠٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٨، ١٧٣.
مل، جون ستيوارت: ٨٩.
ملتون، جون: ١٠٣.
المليباري، زين الدين: ٤٣.
ابن منصور، عثمان: ٢٨.
المنفلوطي، مصطفى لطفي: ١٠٢.
موليير: ١٠٢.
النابغة الذبياني: ١٠٣.
النبهاني، أحمد خليفة: ١٣٠، ١٣١، ١٣٢.
النشار، عبد الوهاب: ١٢٦.
النعساني، بدر الدين: ٦٦.
نعيمة، ميخائيل: ٨٧، ٨٩، ٩٠، ١٠٣، ١٠٧، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠.
أبو نواس: ١٠٢.
نووي، محمد: ٣٥، ٤٣، ٤٤، ٦٥.
هايني، هاينريتش: ١٠٣.
أبو هلال العسكري: ٨٠.
هوجو، فكتور: ٨٩، ١٠٣.
هوميروس: ١٠٣.
يحيى، محمد أمين: ١٥٥، ١٥٩، ١٦٣، ١٧٣.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

فهرس الكتب والدوريات

أدب الحجاز: ٩٨، ٩٩، ١٠٥، ١٣٤.
الإصلاح: ٩.
الإصلاح الحجازي: ٩، ٥٤، ٥٨، ٦٤.
الأغاني: ١٦.
أم القرى: ٩.
الانتقام الطبعي: ١٤٨.
بريد الحجاز: ٩، ٦٦.
تحفة الدهر ونفحة الزهر في أعيان المدينة من أهل العصر: ٤٢.
التوأمان: ١٤٨.
جواهر الأدب: ١٠١.
حجاز: ٩، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٤، ٥٦، ٥٨، ٦٢، ٦٤، ٩٢، ٩٣.
الحجاز: ٩، ٧٣، ٧٥.
خواطر مصرحة: ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٥، ١٣٤.
دلائل الإعجاز: ١٦.
ديوان ابن هانىء: ١٦.
الرقيب: ٩.
روح الشعر العربي: ٨٧.
الريحانيات: ١٠٢.
زهر الآداب: ١٦.
شمس الحقيقة: ٩، ٥٨، ٦٠، ٦١.
شمس حقيقت: ٩.
صفا الحجاز: ٩.
صوت الحجاز: ٩، ١٠٨، ١٠٩، ١٤٨.
الفلاح: ٩، ٧٥.
القبلة: ٩، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٨١، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٩٢، ١٠٣.
قلائد العقيان: ١٦.
الكامل للمبرد: ١٦.
المدينة المنورة (الأولى): ٩.
المدينة المنورة (الثانية): ٩.
مسامرة الضيف بمفاخرة الشتاء والصيف: ٣١، ٣٢، ١٤٨.
المنهل: ٩، ١٣٤، ١٣٧، ١٤٨.
المؤيد: ٦٠، ٦١.
النداء الإسلامي: ٩.

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

محتويات الكتاب

مقدمة ٥
تمهيد ٧

الباب الأول
النثر الأدبي في الربع الأول من القرن العشرين

الفصل الأول: النثر التقليدي ١٣

- ☐ الرسائل ١٤
- ☐ المفاخرة ٣١
- ☐ أنماط أخرى ٣٦

الفصل الثاني: المقالة ٤٧

- ☐ المقالة الصحفية من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٦ .. ٤٧
- ☐ ظهور الأدب الحديث في البلاد ٦٣
- ☐ المقالة الصحفية من عام ١٩١٦ حتى عام ١٩٢٤ .. ٦٥
- ☐ المقالة الأدبية ٧٦

مدونة
محمد عبدالرحمن الشامخ

الباب الثاني
النثر الأدبي في الربع الثاني من القرن العشرين

الفصل الأول: المقالة ٩٧

□ المقالة النقدية ١٠٠

□ مقالات أخرى: المقالة الذاتية، المقالة التأملية، المقالة الاجتماعية ١١٩

الفصل الثاني: المحاولات الأولى لكتابة القصة القصيرة ١٤٧

خاتمة ١٧٧

المصادر والمراجع ١٨٥

فهرس الأعلام ١٩١

فهرس الكتب والدوريات ١٩٥

مدونة

محمد عبدالرحمن الشامخ